القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية ٢٠١٩

محمد المعزوز

رواية

بأيّ ذَنب رَحلَتْ؟



مكتبة | 372

رواية

بأيِّ ذَنب رَحلَت؟

الكتاب : **بأي ذنب رَحَلت؟ / رواية**
المؤلف : **محمد المعزوز**
الطبعة : الأولى 2018
عدد الصفحات : 320
القياس : 14.5 × 21.5
الإيداع القانوني : 2017M05340
الترقيم الدولي : 978-9954-705-22-3

الناشر: **المركز الثقافي للكتاب**

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : +212522810406
فاكس +212522810407
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : +9611747422
فاكس : +9611744733

محمد المعزوز

رواية

بأيّ ذَنب رَحلَتْ؟

مكتبة | 372



اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم
ذكرى لـ نورسين

إلى روح الوالدة

لم أنس وأنت تتحدّثين همساً

ترقّعين جرحك الغائر بخيوط الحزن الذي غفا

فوق كتفيك يجدل أشلاء المعنى...

أيّة امرأة تكونين أيّتها الرّوح

الطّيبة...؟

يا من تركتني وحيداً في غبار الطّريق...

أترقب نهاية بعد نهاية...

إلى والدتي التي رحلت دون وداع

.... فاطمة ميري

أبهره ذلك الضّوء البعيد... رآه يتدلّى من حفر السّماء، تمتصّه كلّ الأمداء.

يختلط وميضه بالظّلال النّاصلة ليتشتّت في المنائر العتيقة التي انطفأت قبل قليل.

رفع يده باحثاً عن أصابعه، ليدقّ أبواب اللّغز ومنغلقات اللّحظة.

مرّ فوق يده في الأعلى الشّفيف منها سرب يمام، وكأنّه أعمى يدفن نجمة ميّتة سقطت مكرهة من خدرها الملكي البعيد.

تساءل في منتهى الاستغراب: كيف يمكن لليمام أن يطير ليلاً وأن يرى؟!

هل أصبح نهاره ليلاً؟ هل هذا اللّيل ليل، وهذه السّماء سماء؟

جنح اليمام فوق رأسه، وهو يمدّد جناحيه اليافعين، ليزرق على رأسه وكأنّه يحذّره من وعثاء السّؤال الذي لا يفيد؟

تراءى له، وسرب اليمام يتوغّل صوب الضّوء... أن اللّيل ليس بالذّكر ولا بالأنثى، وأنه بينهما أو شيء غيرهما يشبه الحركة المستنسخة.

هل للّيل قلب وأجنحة؟ هل لديه قدمان ويدان ولسان؟

ارتفع السّرب إلى الأعلى، وكأنه جوقة موسيقى تعزف بقوائمها على أوتار اللّيل ألحان العجب والإبهام، مرتّلة خرافات الغسق السرّي.

ارتفع أكثر وكأنه يتنفّس عمق السّماء؛ لكنّه كاد أن يختنق من هواء غير الهواء الأرضي، فاضطرّ إلى الهبوط أو إلى السّقوط، وكأنّه مذنّبات هاوية صوب ذلك الضّوء البعيد الذي بدأ يخفت وهجه.

خُيّل إليه أنه يحلم تحت أثقال الكوابيس التي ترهق لذّة الرؤيا، أو أنّه مهاجر في الدّوخة متعكّزًا على الهذيان. انفرط عقد تماسكه، وهو يتلهّف إلى التأكّد من صحة ما وقع. تلمّس وجهه وأعضاء جسده، فلم يجد إلا عرقاً متصبّباً وعطر أعشاب بريّة.

الزّمن لا يلده العبث في أحضان المصادفات؛ فلولا الإحساس بالتوهّم لما تعرّف على المعيش وليس الواقع... هذا المعيش يلد من حوله الدّكنة والزّرقة وبصيص ضوء بعيد، وسرب يمام تائه في المدى... لكن، يظل الواقع ظلاماً آخر يحاذي السرّ والغيب، وامرأة من صلب الخرافات والأعاجيب.

ضاق صدره وكأن الهواء ينحبس عن رئتيه؛ حاول تنشّق أيّ شيء يشبه الهواء أو لا يشبهه. شيء يجعله يتنفّس ويصدّق أنه واقف ها هنا، في هذا الطريق المتّصل في حوار مع الظلمة والنّور. تركض الآن رغبته في الانشراح حول حبّة وجود أو حياة، لعلّها تسرق شيئاً من الهواء، من قصب الليل المحشوّ بالتكتّم.

تقلّبت قدماه في موقعه مرّات، لكي تنصب كميناً لجرعة هواء عابر؛ فما كان من تقلّبها إلا رسم دوائر تذكّر بالفراغ. فأي فراغ ممكن دون هواء، دون مطر، دون نار؟!

كأنّ الصّقيع مرفوق بالرّماد، يتطاير من تحت قدميه ليجهز على دمه المقعد في محابر قلبه الشّقي. هو الاختناق يضغط على ما يسفل وما يعلو، يهين الحياة ويذبح الضّوء على أدراج ما لا نحسّه وما لا نراه.

حاول من جديد أن يتنشّق الهواء، فلم تلتقط أنفاسه غير رائحة اللّيل وبقايا حواسّ هاربة. لم تسعفه رجلاه ليترجّل طريقه نحو الضّوء الطّالع من الجهة الملتوية من الشّط. ترنّح في وقوفه التّعب، ثم سقط ببطء وكأنه يذوب في ظلّه، في حضن الدوائر التي رسمتها قدماه. حاول الوقوف مجدّداً، مستعيناً بيديه المرتجفتين. ولمّا استوى مقوّس الظّهر، رغب مجدّداً في تحريك رجليه هارباً من أمر لا يعلمه، لكن قدميه لم تسعفاه أبداً...

خُيّل إليه أن خطواته عائمة في عيون زوجته راحيل، وأن صدى كعبها العالي يتردّد في ثوبها المنكّس الذي غفا منذ مدّة.

كل هذا الغسق الذي يحاصره، يراه الآن مدجّجاً بأسمائها وأنفاس رحيلها الأخير. تعذّر عليه أن يتذكّر اسماً واحداً، أو صورة عابرة لها. ليس هذا ما جعله يخبط في الظّلمة بين أشلاء زمانين؛ لا الماضي المرهق على طرق الانطماس والسرّ يثقل عليه ويسلبه الرّاحة، ولا الحاضر الذي يصنعه الغموض والعجز، يجعل اللّحظة تنقلب حوله، تتناهب طمأنينته. كل معاناته الآن، أنه قد اكتشف عماه متأخّراً، وأنه لم يتعلّم شيئاً.

كان يعتقد في الأمس القريب بأنّه قويّ البصر، يلتقط أدقّ الأشياء عن بعد مسافات طوال، كتب أخيراً أن العالم قد أصبح أمامه عارياً كلّ العريّ. إنه قد أسقط عنه آخر غطاء.

أدار وجهه نحو ذلك الضّوء الذي استقطب اليمام أو أسقطه، فوجده يخبو... يخبو رويداً... تساءل: هل النّور شعاع يخصّ القلب فقط، أم يخصّ العقل أيضاً؟

النّور مكوّم، أو معتقل في عربة الفقد المتوغّلة في عمق السّماء البعيدة جداً جدّاً. هكذا ردّد هذه الكلمات مستنتجاً بنفس منقبض، أن رؤيته كانت طوال العمر وهماً، لأنّه لم يكن يرى أبداً تلك الحقيقة، أو بعضاً من الحقيقة!

يستيقظ النّاس في النّهار، يتحرّكون ويلمسون الأشياء ثم يصدّقونها، يُسلّمون ذواتهم إلى الحياة العابرة دون أيّة مسافات، ثم يعتقدون أخيراً أنّهم كالأبجدية يعمّرون الزّمن المطلق.

كاد أن يقهقه من سذاجة النّاس أو من وعيهم الثاقب، لأنّهم لم ينتبهوا إلى كونهم صوراً مصغرة لأطياف مكررة، أو أنهم صور مكبّرة للاشيء، لمعنى لا وجود له.

الويل من هذه السفسطة التي تحتقر النّاس، كأنّها تتدفّق من سواد هذا اللّيل المكابر، تسيل كالمداد، تملأ المحابر والأقلام، تكتبها النّاشئة والكبار في كتبهم الخفيّة والمعلنة، فتشيع... تشيع وتعظم الكارثة!

قرّر أن يرجئ هذا الأسئلة، وأن يعيرها إلى الماضي، لكي يرتّب فصوله وأزمنته. تنشّق ارتجاج هذه اللحظة، ليترك خواطره تتقاتل مع الوهم وما تبقّى من مجازات التذكّر أو النسيان.

طلعت صورة زوجته راحيل من غيمة تسبح في صمت الظّلام، في جمالها أخالها رصاصة تسير ببطء، تتمدّد في عربة الملائكة، عارية محفوفة بستائر بيضاء شفافة، يداعبها هواء خلاسيّ لم يفاجئه طلوعها الخرافيّ أو نزولها من السماء، لأنّه آمن بالمطلق أنّ راحيل لم تغب أبداً.

ظنّ أنّها تقترب منه؛ تراجع خطوات إلى الوراء يتعكّز خوفاً يشبه الانبهار. شعر أن السحر يلفّه أمام مهابة جسد قدسيّ يتهدّل بثمار مضيئة! كل تفاصيله تنفتّح كانفتاح النّور، تغريه بالاقتراب.

فرك عينيه، ليتأكّد من صحة نظره؛ ثبت لديه أنه أمام نجمة عارية تخبّ في دفء الإغواء، تعبّ رغبته من الدّاخل! داخل جسده الذي ألفاه الآن يتحوّل إلى هيكل شمعيّ، هو بصدد الذّوبان.

أهي أجراس التذكّر ترنّ في لجّة هواجسه؟ أم هي إشارات التوهّم تسدل الحجب السّميكة، لكي تجعله لا يرى العالم؟

جرّته الرغبة جرّاً، فقرّر الدّنوّ منها؛ لكنه تردّد كثيراً، ليعقد العزم على التسمّر في مكانه أو التّراجع خطوات... خطوات، لأنّه جرّب الاقتراب من العمر كلّه، فما جنى غير الصّقيع القاسي على عتبات الوصال.

أحسّ أن نغم ناي من محاجر عينيها يجيء، يوقّع على دمه نداء العناق والقبل، يؤجّج فيه المجامر النّائمة منذ سنين تترى.

نظر، تخيّلاً، إليها نظرة شوق ضارعة أو توسّل، لعلّها تغيب أو

تتبخّر من أمامه. لكنّه وجدها تصرّ على الحضور، رافعة ستائرها المشفّة، ماثلة في تمام عريها، باسمة بتخابث الحسان. ولمّا لفّه النّسيان اضطرب وتراجع وراء، وقد غامت الأشياء في عينيه منخطفاً إلى إغراء الاقتراب. أحسّ وهو يخطو الخطوة الأولى، أن ميلاداً جديداً ينبت من مفارق رأسه، يمحو جسده القديم، ويهبه هيكل غزال برّي قادر على الخوض في كل الفضاءات الرحيبة. اقترب خطوة أخرى، نظر إليها ذاهل العينين، فمدّ أطراف أصابعه يبغي لمْسها في هالة مهيبة. لكنّه لم ينجح في لمسها، إذ ظلّ الفراغ يلتهم بعطش أصابعه، يجرّها بقوة إلى حالة التّلمّس وهوس الاحتواء.

ضاق صدره من جديد، وتخطّفه القلق والخوف الرهيب. ألقى بنظره في كلّ الاتجاهات، لعلّه يرى ثانية ذلك الضّوء البعيد الذي أبهره قبل قليل... لكنّه لم يجد غير حجب من سحائب تعمر الفضاء والمكان.

شكّك في كل شيء رآه هذه اللّيلة؛ رؤيته لليمام، لهذه الأشياء المحيطة به. شكّك في وجوده، في أحاسيسه، في إدراكه، في ماهيته ومعناه... شكّك في الحياة ذاتها، في الشكّ ذاته، في الجمود والحركة، في الموت والحياة...

أهو الجنون يمخر في عروقه ودماغه؟ يحدث خريطة الآتي؟!

شكّ في الجنون نفسه، لأنّه ليس له هويّة، ليس له يدان ولا قدمان.

هذه اللحظة الآن، تنسج من حوله فراغاً له أجنحة، وقد تراءى

له أن هذا الفراغ يطير في داخله، يرفرف من فوقه، من تحته ومن حواليه.

هو الآن أسير، يرافق الصّور والتهيّؤات في عربة الغموض، وفمه فاغر يتدلّى منه اللّعاب ويحيطه البعوض.

إنه يبحث عن أيّ ثقب ينظر منه، ليتعرّف على أيّ شيء يطمئن إليه، يثق فيه ويقنعه بأن هذا الشيء ذاته لا غيره، ليس بالنّظير ولا بالشّبيه ولا بالقريب.

أصبحت كلّ التّماثلات مثار قلقه وألمه العميق، لأن القبول بالشّبيه سبب في تهذيب الرّداءة وسلب الإرادة. الشّبيه ينبت الرضا في دم الإنسان، يفسد في ذاكرته ويسمّم أحلامه، يسلمه إلى فتنة الجاهز ووهم النّظير.

كم أطلنا الجهد والسّعي المميت إلى حفاظنا على الصّور ورعاية تناسلها والتّبريك بنسلها وتقديسها.

ظنّ أن هذا اليوم ليس بيوم الثلاثاء، إنه يوم يشبه الثلاثاء فقط، وأن هذا اللّيل ليس بليل، وإنما يشبهه فقط، ظن أنه ليس هو، وإنما يشبه رجلاً فقط!

أين تهرب أيّها الرّجل؟

ممّ تهرب؟

وهل تقدر على الهروب؟

كيف تقدر أن تخلع جلدك ووجهك ويديك ورجليك وقلبك وعقلك وتهرب؟ هل التبرّؤ من هويتك كفيل بأن يمنحك تأشيرة الهروب؟

أكيد أنّني أسأل وأفكر، فأنا موجود إذاً! لكن هل هذه الأشياء القابعة من حولي موجودة، لأني أراها فقط، وألمسها وأحسّها؟!

يكفي أن أحسّ بأني أتربّع على كفّ القلق والتردّد، بأني كائن متسائل يغسل أحشاءه من صدأ اليقين!

لكنه وبالرّغم من ذلك، ومع كل هذه الأحاسيس والأسئلة، فهو يشكُّ أنه يفكّر، أنه موجود، أو أنه متسائل.

صرخ أخيراً، ليعلن أن اللّاشيء، وليس العبث هو الحقيقة الوحيدة التي ترعانا في سوق القطعان. هكذا قرّر أن يهرب من نافذة اللّامبالاة، ألّا يرضى أن يكون من نوع الأعشاب التي تنمو في اليد المصدّرة للعطر... أن يدور في معصمه سوار يحمل رقماً من الأرقام.

اخترق الظّلام، وهو يردّد أغنية قديمة عن غرابة الزّمن:

يلوّح في السّماء سرب يمام
يلمحه الرجل المدجّج بالظلام
يدعوه:
تعال والعبْ معي أيّها اليمام
ما زال في خاطري ما يقال
قد طلّقت الخطى والكلام.
التفت إليه السّرب في دلال
وقد أزرق على رأسه بابتسام!

* * *

لم تدر أبداً سرّ تلك الرّجفة التي ألمّت بها، حين كانت تتأمّل لوحة فنية مائلة ومصلوبة على حائط مهترئ داخل مخبزة شعبية في الحيّ القديم.

تفصلها عنها طاولة مضعضعة، وراءها رجل مسنّ جالس فوق كرسيّ شائخ يكسوه جلد ماعز أو ثور. في يده اليمنى سيجارة 'ماركيز' وأمامه فنجان قهوة تنبعث منه رائحة مخلوطة بالبنّ والقرفة.

كان الرّجل شارداً مأخوذاً بأنغام الشيخ 'العنقا' وبحّة صوته الرخيّ، وهو يهزّ رأسه ذات اليمين وذات الشّمال.

لم تكترث لوجوده أو لصوت الضّجيج وفوضى الكلام المجلجل في الطرقات. فضّلت أن تغيب في رحاب اللّوحة التي أسرّت أحاسيسها ونظرها... أن تنخرط في جذبة ألوانها وفضائها وشخوصها.

أحسّت أن هذه اللّوحة تصبّ في عينيها نوراً خرافياً وتملأ قلبها بفراشات الحياة الأبدية.

أضحت شبه متأكّدة أن فينوس قد استقدمت روحها من زمن الإغريق، لتحيطها بمركب البهاء وهجمة الالتذاذ. هو الجمال يمضي نحوها، يذوب في دمها، أو تذوب في معناه، لتحطّ بأحاسيسها فوق الرّوعة أو السكر من دنان الانخطاف.

في تلعثم المريد جاوزت لسانها العيّ، وهي تنطق بخفوت: أعرفك أيتها الشخوص المشكّلة! يا بنات الظلّ والألوان: جوعى يشتمّون رائحة شواء في إحدى اللّيالي الأميرية، لمّا انتصر آشيل على هومير، وسقطت طروادة.

انكفأ آشيل فوق عمود القصر المنهار، وقد حزن كثيراً لمرأى هؤلاء الجوعى، وهم يستنجدون زعماء مدينته الذين لم يصنعوا نصراً أبداً.

هو الإحساس نفسه يعيش في دواخلها، كلّما وقفت أمام لوحة فنيّة معلّقة في بيتها، تحكي عن فلّاحة تغسل أثواب أولادها على شفة نهر الربيع. تطلب غفران ربّها، وقد خانت زوجها في زورق منهك لمّا غرّر بها صيّاد ملعون، مقابل بقايا أسماك....

لم تدر أبداً ما وجه الشّبه بينهما؛ ولكنّها تعلم أن الرّجفة ذاتها، واللّذة عينها، تتسلّلان إلى روحها، تسبح في عروقها، تتملّى شخوصاً مختلفة معانيها وألوانها.. تذوّب ألفة الأشياء في حواسّها ونبضها على نحو مشتبه تماماً.

نقر صاحب المخبزة بالأصبع فوق الطّاولة، فانتبهت إليه مبتسمة، بعد أن غفت بضع دقائق. سألته مباشرة عن تاريخ هذه اللّوحة وقصة حصوله عليها!

تحاشى الجواب، وقد استفسرها على نحو مغاير عمّا إذا كانت قد طربت لغناء الشّيخ العنقا!

أجابته، وقد حجب رنّة صوتها شيء من الاضطراب، بأنّها قد زارت قبره ذات شتاء، وحطّت عليه بباقة آس ووردتين.

أحسّ بالغبطة والشّجا يختلطان، ظنّ أنها قريبته أو بنت عشيقته. لذلك، قام من كرسيّه واستأذنها بأن يقبّل رأسها.

عجبت المرأة من موقف الرّجل، فرفضت طلبه، ثم نظرت إليه بعينين دافئتين تبرقان بوميض من الأسئلة الحائرة.

- أنت قريبة من الشّيخ العنقا، إذاً؟

أجابته: أكاد أن أكون في صوته هواء حفيفاً منغّماً!

ردّ عليها: تحبّين قصيدته 'لحمام' بالتأكيد؟

قالت: لم أحفل بالكلمات، يهزّني صوته فقط... يشعرني بزمن غريب له روائح ممتعة انقطعت عن كل شيء، إلا ممّا تبقى من عباءات الأولين المقيمين في دمي كالأشجار الخالدة.

كان بائع الخبز يستمع بإعجاب إلى زبونته؛ تحكي عن الصوت الذي لا علاقة له بالكلمات... هو صوت هكذا! ولكنّه شلّال حياة متدفّق لا يتوقّف أبداً. يطمس الأفول والموت، ليقيم للذين نعتقد أنهم ميّتون وجوداً معنويّاً من خلال الصّورة أو الرّائحة...

لمّا نستحضر الصّورة والرّائحة، ونحن نرهف السّمع إلى الصّوت أو نَحُثُّ الحاسّة الشّامة على شم الرّائحة، فإنّنا لا نستدعي شيئاً اسمه الماضي من عمق زمان قد انتهى. ولكنّنا نفيق شيئاً غريباً من أحاسيسنا كان غافياً في زاوية من دمنا... في درب السّهو الكبير الذي يخترقنا. هذا الشّيء الغريب، هو الذي يقيم في أحشائنا كالعلامة، يمدّنا بكل معاني الحياة.

انتبهت إلى حركاته، وهو مستغرق في الشّرح والتّفسير، فاكتشفت أن الرّجل الذي أمامها لا يشبه الرّجل الذي رأته قبل قليل.

هي الآن ليست أمام بائع الخبز، وإنّما قبالة متفلسف منشغل بأفكاره وتأمّلاته حول الإنسان والعالم...

تصفّحت بإمعان أصابع يده، وهو يحرّكها برشاقة، وقد ازدردت الزّمن، بالرّغم من تمدّد الشّيخوخة فوق تضاريسها. تصوّرت وكأنها أصابع عازف البيانو أو الأوراغون، أو أصابع من حرير يضمّخها ماء الخبز والعجين.

أحسّت أنها في حضرة لغز يثير الفضول ويناطح المستحيل، لحظة سرّية تدور في فلك الاكتشاف، ترنّ في سمع القلب الباطن كأنها جرس يصكّ آذان العالم... جاءت إلى المخبزة مسرعة لتقتني خبزتين فقط، فوجدت نفسها محاصرة بأرخبيل من عجيب الغرابات... أيّة مفاجأة أقوى من أن تجد لوحة فنّية هاربة منها، كانت سبباً في طلاقها من زوجها، أو أيّة غرابة أشدّ من أن تقابل فيلسوفاً مندسّاً في جلد بائع الخبز...

اكتشفت أنها أمام موعد آخر، لا وقت له. أمام غيم له هويّة الغيب يهتف للغموض وللمنغلق.

هذا النّهار، هو أيضاً، إبهام له يد لتشريح الضّوء الذي به حدثت الرؤية الآن، وما يُعتقد أنه وضوح؛ أيّ وضوح أو أية رؤية صحيحة، ونحن نلمس الأشياء ونحسّها على غير ما هي عليه في جوهرها. صوّبت نظرها إلى اللّوحة من جديد، تدقّق في أبسط تفاصيلها، فما وجدت إلّا ما يذكّر بقوافل الضّباب المتدافعة والغيوم الكثيفة!

كلّ الألوان العائدة إلى ذاكرتها، تتفرّس ما هو ممتد منها في

فضاء هذه اللّوحة، يشعرها بأنها في حاجة إلى الصّعود إلى السّماء نفسها، تُفتّش في كل ثنية منها، تعبث بظلالها وأشكالها، ثم تحصي الأسرار التي لم تفصح عنها أبداً... هي الآن تنتبه إلى أن أسرارها كثيرة، كثيرة كحبّات الرمل المتناسلة.

هل عليها أن تدفع ضريبة أخرى، لأنها وقفت أمام هذه اللّوحة اللّعينة ؟

حاولت أن تقنع نفسها بأنها أمام شيء ما، ليس باللوحة ولا بالألوان، هو شيء مصاب بالعُصاب، جالس على أبواب الأشياء ينتظر نصيبه من الانتحار.

تعذّر عليها أن تندسّ وراء هلوستها المباغتة، فتخلّت عن عنادها، وسألت بائع الخبز مجدّداً عن سرّ حصوله على اللّوحة التي بدت لها بائسة، وكأنها في حداد دائم على نفسها. ارتبك الرّجل أمام إصرارها، أمام مدّها وجزرها وفوضى حضورها الأنيق، لينتهي منهاراً في حضرتها، مستسلماً لألق سؤالها، وقد اصفرّ وجهه وارتعدت فرائسه، ردّد بصوت متفتّق من حنجرة محترقة، أن اللّوحة من رسم امرأة قد عشقها دوماً، لكنها هجرت الدنيا وهجر معها المعنى والحقيقة!

استسمحته بأن تلج عمق المخبزة، حتّى تقترب من اللّوحة أكثر وتتبيّن توقيع الرّسّامة. اخترقت الممرّ المفضي إلى الدّاخل، وبخطوات مترددة، مُدَوْزَنَة على ضربات قلبها المتسارعة، وقفت متلهّفة إلى اللّوحة تدقّق في أسفلها، حتّى تتعرّف على التوقيع الذي تحمله. وبعد محاولة يائسة، أخرجت نظّارتها من جيب معطفها الأيمن، كي تعيد

النظر فيها. لكنّها لم تفلح في فكّ بعض الحروف الشاحبة، لأنّها لم تعد مجرّد بقايا من توقيع أو آثار أصابع هربت من الزمن لتشيّد الغموض، وتقيم جرح الرغبة في التعرّف. التفتت وراءها لتجد بائع الخبز قد أدار ظهره دون أن يكترث بها، يتأمل الخارج المؤثّث بالعابرين محمولاً على أنغام الشّيخ العنقا وأشياء أخرى يخفيها شروده العميق.

سألته بعفوية، وكأنها تخاطب أحد أقاربها، عن سرّ تلف التوقيع أو إتلافه، أدار وجهه في اتّجاهها يحضن ابتسامة صامتة لها لون الزّعفران وقسمات مرتبكة خالطها البياض وقليل من النّمش، ليتلعثم عبر كلمات محصورة، وهو يقول لها:

إنّ وجود تواقيع من عدمها لا يسلب اللّوحة جوهرها وهويّتها، لا يحجب عنها الحياة أبداً!

ألحّت في السّؤال عن سرّ اغتيال التّوقيع، عن مصادرة الحبّ المتدفق في شرايينه، ألمحت إلى أن الحياة في اللّوحة، دون توقيع تكون بطيئة لا تكاد أن تتحرك؛ كأنّها ضوء فشل في الحوار مع وهجه، أو كأنها حورية بحر مقطوعة الثّديين. ليس عبثاً أن يكون خالق الأشكال والألوان في كون اللّوحة مفتوناً بختم ما خلقه باسمه، أو بأثر مكتمل يأخذ دلالة التوقيع.

التّوقيع استضافة أبدية للمعرفة أو للتعرّف، هو إرادة لازمة لصلب التّجاهل أو لتعليق النّكرة من ثدييها بمسامير الأثر. إننا جميعاً تواقيع ختامية في أسفل لوائح الوجود لندل على الوجود نفسه، على

العالم والتاريخ. لو لم تكن التواقيع، لما استطعنا أن ندرك أن هناك خالقاً، أننا خلاصات لتاريخنا النّوعي، أن لدينا عقلاً وقلباً وهيكلاً، وأن لنا استمراراً.

في غمرة حديثها وحماستها، بذلت كل الجهد في تبيّن توقيع الرّسامة الذي لم يبق منه إلا أثر ضئيل، قام بائع الخبز من كرسيه متباطئاً وبكثير من الهدوء، وهو يخبرها بأن أثر صاحبة اللّوحة في الأسفل كان كالأفق العريض يضمّ كل قسماتها، يضيء بالحياة وتفاصيل الكمال. كلما تفحّصه أحسّ بإيقاع دبكة يتردّد في داخله، يُرقص الرّوح والملائكة ويبهج الحزن نفسه... كان ملجأه وسريره وسكينته...!

سألها إن كانت قد جرّبت علاقتها بالآثار، أو بالأشياء التي يتركها الحبيب بعد رحيله أو غيابه. هو لا يترك شيئاً، من حيث هو كذلك، لا يترك ذكرى تؤجّجها الرّغبة في الماضي. لا يترك رائحة دمه أو صدى نبضات عروقه، بل هو يترك قدسية الحواس وأصوات الروح التي تتّصل في حوار مع الغيب والسرّ، تحضر ملتقى الامتزاج والتوحّد في الرّوح الواحدة، في الأبدية المشتركة!

غطّى وجهه بيدين مرتجفتين، وكأنه قد ألبسه معطفاً من الانهزام، يخبّئ وراءه تنهيدة محترقة بين الشّفتين.

تقدّمت نحوه رويداً رويداً، بعد أن طوّقت معصميه بيدين رخوتين، أحسّ بأن أصابعه الشّاردة على وجهه تذوب ذوباناً، ويدا هذه المرأة تطوقهما، وكأنها لمس قدسيّ يغشى روحه الباطنة.

نظرت إلى عينيه، فوجدتهما مرسييْن مهجورين يحلم فيهما بحّار وحيد، لا يشبه إلّا مركبه فقط. لم يجد مفراً من التأمّل في عمق عينيها، حاول تنقيح أحاسيسه من شوائب تداخلات الماضي، لأنّه شعر توّاً، بأن المعنى القابع في هذه المرأة ليس بغريب عنه.

وفيما يشبه الخوف، شعرت بدورها بشيء من التعرّف، يجلس على عتبة حواسّها ولاوعيها، وكأن بائع الخبز واحد من الخيول الشّريدة في حقول ماضيها الذي تجهله.

سألت عن اسمه، فأجابها بأنه فقد كثيراً من أسمائه، ولم يبق منها إلا اسم واحد هو عبد الله. ودون أن يسألها، أخبرته بأنّها تحمل من الأسماء ما انطبق على مصيرها، سمّيت راحيل، فكان قدرها رحيل داخليّ، أو سفر، أو بِعاد عن منبتها، عن النّطفة التي خلقت منها.

أحسّت بنبض يديه كتدفّق هلاميّ يصب في شرايينها دخان السّكينة وهمس العودة إلى ما يشبه البداية والأصول، تمنّت لو أنها ترتمي في حضنه تغسل بلمح صدره وعنقه ووجهه صدأ السّنين المتكوّم في عروقها وأحاسيسها. كادت، وهي شاردة في لغزه، أن تهتف باسم من الأسماء الدّفينة في حقائب لاوعيها... حاولت لكنها لم تجد أيّ اسم يسعفها، يطلع من لسانها، من كلامها، فتوشّحت العيّ، وهي تهوي إلى لجّ الصّمت وراء انخطاف مسكر...

أفاقت من غفوتها لمّا ألقى بائع الخبز بيده اليمنى على كتفها، مُذكّراً إياها بأنها جاءت مخبزته لتقتني خبزاً أو طحيناً أو قطع

حلوى... تنبّهت أخيراً إلى أنّها قدمت المخبزة فعلاً، لتبتاع خبزتين فقط. لكنّها وجدت نفسها مخمورة بالرجوع إلى منبع المنطلقات، إلى رائحة لحاف شهد أوّل خروجها إلى العالم.

جرّبت أن تجعل من جوابها ممحاة لكلامها الذي مرّ قبل قليل، أن توقظ من رأس أحاسيسها إكليل الرّغبة في معرفة الأشياء؛ لكنّها لم تسلم من نشوة الإلحاح المفزع على معرفة اسم صاحبة اللّوحة.

هيهات أن نحرّر النَّفَس المزفور المشحون بأسماء امرأة زائغة الخطى في أروقة العمر الذي مرّ، وفي مسار العمر الذي تبقّى!

امتنع عبد الله عن الكشف عن اسم الرّسّامة. اكتفى بابتسامة شفيفة، وهو يقول بأنه قد كلّ من تتبع الاعتراف، من التذكّر والحلم، من الوقوف والمسير، من الحديث والصّمت نفسه.

قاس هو العمر، يسلّمنا دائماً للطريق المسدود طريق مسدود!

لم يعد هناك من دليل أو من يدلّنا، مكتظ هو عمرنا، مزدحم بالكلام المتآكل بالحروف المحشوّة بالفراغ.

هكذا توارى عبد الله إلى عمق دكّانه بخطوات مفكّكة، بعد أن رفض أن يستلم من راحيل ثمن الخبزتين، أحنت رأسها، والتقطتهما بكلمات شكر كامنة في شرفات المحبّة الغافية.

اخترقت الزّقاق، وهي تفتّش في دواخلها عن سبيل لفكّ اللّغز، لكن لم تجد في ذاكرتها سوى صدى بقايا صور غائمة وأشلاء أصوات مبهمة. أحسّت بأنّها بدأت تتذوّق مذاق ألم مختلف.

قرّرت أن تقطع تيارات هذه الأحاسيس التي باتت تكبّلها،

زفرت وشمّرت، ثم ضغطت على نفسها لكي تنسى. أوهمت نفسها بأنها الآن، تفكّر في ترتيب برنامجها اليومي، في إتمام قراءة مقالة مطولة حول زواج الممثلة الأمريكية 'كرايس باتريسيا كلي' بأمير موناكو 'ريني كريمالدي الثالث'.

وبقدر ما أعجبت بفستان زفافها الخرافي الذي سحر ثلاثين مليون متفرّج عبر العالم، تألّمت لنهايتها المفجعة عبر حادثة سير في منعطف طريق مجهول، شرب دمها وأطفأ وهجها...

فرّت من عينيها دمعتان، وكلام استطاعت أن تحبسه في فمها بكثير من المرارة. لم تكن تعرف باتريسيا بأنها ودّعت في قرارة وجدانها زينة الوجود، لمّا هجرت السينما وضاعت في ألفة الأشياء، ثم ماتت في طريق آثم، تافه يحتضن القبح والتنكّر.

ظنّت راحيل أن هروبها من قوة لسعات عبد الله إلى تذكّر قصة الأميرة باتريسيا سيذهب عنها توزّعها القاسي وقلقها الممضّ، لكنّها لم تكن تتوقّع بأنّ هروبها هذا سيورطها في الاكتئاب المضاعف، لقد فطنت متأخّرة إلى أنّ باتريسيا تشبه بخفاء تلك المرأة التي انمحت حروف اسمها في أسفل اللّوحة، وقد امتنع بائع الخبز عن كشف هويتها.

هيهات أن تطرد الآن من مخيّلتها أن باتريسيا، التي انفرط منها عقد المعنى المتلاشي في الفراغ، هي نفسها الرسّامة التي انفرط عقد هويّتها في المجهول...

باتريسيا الممثلة تحضر، الآن، في وجدان راحيل بنصف تلك

المرأة الرسّامة العابرة، تراهما الآن تمشيان بجوارها كظلّها أو مثل نفسها المتفتّت في قبضة الوقت المنتكس.

امرأتان من طينة الوجود الأولى، تهاجران في الفقدان تاركتان وراءهما شيئاً من بياض الثّلج فوق خريطة الحبّ العجيب...

اجتهدت راحيل في أن تقنع نفسها من جديد، بأنّ ما تشعر به مجرّد هذيان لا علاقة له بين مخاوفها الغريبة وبين باتريسيا؛ لكنها لم تنس أبداً أن اللّوحة التي انخطفت إليها، تشبه اللّوحة التي كانت سبباً في طلاقها من زوجها خالد. إنها مقتنعة حتّى العظم أن وراء ألوان وشخوص وفضاء ومنظور لوحة بائع الخبز، سرّاً عجيباً أو سحراً مستطيراً أو لعنة ثابتة.

هي الآن، تجهل كيف تتغلّب على أحاسيسها الملدوغة بعقرب القلق والتّيه. بذلت جهداً طويلاً لكي تلطّف قلبها ودمها، لتسكن امرأة مغايرة ليست بالقديمة ولا بالجديدة، امرأة في صورة الفراشة وبهويّة الماء.

أقسمت قبل أيام بأنها ستقتفي خطوات الهواء الذي لا أثر له، لكي تصبح المستحيل الذي يقتل الزّمن فوق رؤوس من احترف السياسة والفن والكتابة والتّجارة ولعبة النّرد... تذكّرت بأنّ قسمها قد ألزمها التخلّي عن اللذة والوجود، بأن تكون خارج القطيع الذي يشيّد في كل لحظة بحوافر الإصرار خرائط مبهمة لوطن لم تتغيّر أبداً أرضه وحجارته وهواؤه وإنسانه...

هدّأت من روعة داخلها المضطرب، لتتأمل خلقاً كثيراً يتنهّد

وتخرج أنفاسه سائلة في ساحات الحي القديم وزقاقه.

استأنست لمرأى هذا الخلق العجيب الغريب، وتأمّلت الباعة المتجوّلين يتنافسون عبر صياح هائج بمختلف الإيقاعات لجلب المشترين. تساءلت: لماذا اختار هذا الرّجل بيع البطّيخ، بينما اختار آخر بيع الخوخ، والآخر بيع 'الخوردة'.

استغرقت في تأمّل رجل يدخل المسجد وآخر يخرج منه، في امرأة تحمل سلّة وتسحب طفلها من يده، في امرأة تخطو متبخترة تلبس سروالاً قد دخل في جلدها، ورجال يراقبونها بنهم الجياع، في رجل بيده جريدة، وفي آخر يسرق حافظة نقود من جيب عابر، في طفل جائع يسرق فخذ دجاجة من فم كلب هارب قد التقطها من آنية على طاولة أمامية في مطعم لشواء الدّجاج.

هراء هذا الوجود! أو جنون هذه الحياة!

أيّ معنى في أن نكون، أن نوجد، لنعبر عمرنا بخطوات تقتفي النّسيان المختلف الذي يغلب الموت.

النّسيان أقسى من الموت! لأنّه يجعلنا لا نستمع إلّا إلى صوت الحاضر وإلى ذاته، فيشلّنا في العدم، بالرغم من اعتقادنا أنّنا نحيا بالتذكّر ونتذكّر، ونعبر الطّريق والزّمن.

حدّثت نفسها كيف لها أن تقاوم النّسيان، أن تبدّد ظلمة الدهاليز، أن تنصب المناوير في عقلها وقلبها، في كفّيها ورجليها، حتّى تخطو مثل ضوء متدفّق من الأصول يستبيح دم العتمات.

اقتنعت بأن هذا الخلق العجيب الذي ورث لذّة النّسيان أو

استطابة التنكّر، له وجه تشرب ملامحه أرضة الغموض التي تتناسل ما بين تعاظم الصّخر العنيد، والماء المثلّج في العيون.

الحركة معطّلة، هكذا بدا لها، ومع ذلك فالعنف يثمر في كل شيء، في الأبدان، في الطّرقات، في الهواء، في البيوت، في العلاقات الحميمية، في الأحلام... في فنجان قهوة مُشتهاة.

استدارت برأسها يميناً، بعد أن قطعت حبل تأمّلها سعلات غريبة لرجل في أواسط العمر، كان يجلس على عتبة بيت قديم مهجور وفوق كتفه الأيسر حمامة تحمل لون المداد، تنقر كفّه المبسوط، وما بين أصابعه المرتجفة باحتشام يسيل فتات خبز مبلّل بالماء، أو بما يشبهه!

توقّفت أمامه لحظة، لتتأمّل حضوره الذي يستقطب من حواليه معنى ثقيلاً، لا يخفي الضّياع الذي تمسرحه العادة أو التكرار. ولكنه المعنى الذي يحيلنا على السّؤال الأسير ما بين الإلحاح في المعرفة والفناء في مضايقها، وما بين الإعراض عنها بتشهي ماء التجاهل المضلّل...

محفوف هذا التوقف بأطباق الوساوس، لأن هذا الرّجل المتخفّي في قسمات وجهه الشّاحب، يخبئ شموخاً منكّساً في عينيه الدائرتين في كل الاتجاهات... يخطو وحده في مرافئ الغيبوبة حتّى يكون قريباً من التذكّر، من صورته التي أرّقها التنكّر والنّسيان، من الوعد الموثوق بالإيمان الذي سفّهه وطن ملعون...

تقدّمت راحيل نحوه بضع خطوات لكي تمنحه خبزة وتحية تعاطف، ولمّا اقتربت منه تسارعت دقّات قلبها، وكاد أن يغشى عليها. اقتربت منه أكثر، فاكتشفت أن هذا الرجل قد خفق له قلبها،

حين كانت تلميذة في سلك الثانوي. وبسرعة البرق، لاحت في ذاكرتها يوم أهداها عقداً من فضّة وقنّينة عطر إسباني. كانت تلتقي به خفية في كل استراحات المساء خلف شجرة سرو ضخمة معزولة في ساحة الثّانوية، يلمس يديها ووجهها وشفتيها فقط. كلما زاد إلحاحه على الاقتراب منها أكثر، دارت في عروقها رعشة دافئة، لم تكن قادرة على صدّها إلا بهروبها إلى حنفيات الساحة تروي عطشها المباغت، وتطفئ حمرة وجهها بالماء الهادر... كانت تنتابها حالة اكتئاب شديد، اعتقاداً منها أنّها ارتكبت فاحشة أو وقعت في الحرام.

ارتفعت دقّات قلبها أكثر، لمّا تفرّست تفاصيل وجهه التي نهشتها دورة الزمن المقيت. لم يبق منها إلا خالٌ يعلو حاجبه الأيمن؛ حتّى الخال فقد سواده الناصع الجميل، غشاه الذّبول وكأنه ينذر بأفول آخر ملمح أصليّ فيه.

نادته باسمه مرّتين، يحيى يحيى!؟

لكنه لم يعبأ بها؛ في المرة الثانية صوّب عينيه إلى وجهها، ثم شرع يحدق بإمعان في قسماته، وكأنه يقرأ شيئاً ملغّزاً أو صورة مضبّبة، تغير لون محيّاه وكأن أمراً مريعاً قصف داخله، كزّ أسنانه ثم مسك شعر رأسه بيده اليسرى، وهو يرسل زفيراً بإيقاعات عاصفة. تراجعت راحيل خطوة إلى الوراء، كي تلتقط بألم كلمات متدافعة من فمه مردّداً:

- أنت لا شيء! أنت فتنة مدمّرة فحسب!

عبر حركة سريعة أخرج من جيب معطفه الممزّق قطعة من

طبشور أزرق، ثم اندفع يرسم على الحائط الذي وراءه رأس امرأة متوج بعضو ذكريّ مقطوع.

نظر إلى الطّبشور بغرابة، وكأنه يريد أن يقول له شيئاً. بعد تأمّل مركّز أطبق عليه بقبضة قويّة، حتّى احمرّت يده وانتفخت؛ لكنه لم يفتأ أن بسطها باسترخاء منفجراً بقهقهات مدوية، تحولت فجأة إلى نوبة هستيرية أخرج على إثرها كلّ الأشياء وقطع الطبشور المركونة في جيوبه الكثيرة، ثم بصق عليها لاعناً المداد والملوّنات، شاتماً الكتابة والقراءة والرّسم والخطوط والأشكال.

لم يهدأ إلا برمي ما كانت تحتويه يداه بين رجلي راحيل، مُدندناً:

تدفّ بأنفاسك السّوداء واصمت!

لا تستهويك رخاوة الكلمات، فتنطق

يا لعنة الكلام! كلّه فخاخ كالسّراب الأنيق

يسلمك للكلام الفارغ كلام فارغ

وبقايا هذيان

لا تنبش عن أوتار وجهي القديم

عن رنّة صوتي الذي غفا

لن أعود لخطّ السّطور

لمراودة النّور وعشق الغناء!

اكتشفت أنّها قد أصبحت محطة استغراب العابرين وأصحاب

الدّكاكين، لأنّها انشدّت إلى رجل يعمّر هذه الزّاوية منذ سنين تترى.

انتابتها دوخة تشبه السّكر، وعلى إيقاع خطوها الشّارد وضجيج النّاس ونظراتهم المستفسرة، خاطبت نفسها في خفوت:

لا تنبش على أوتار وجهي

عن رنّة صوتي الذي غفا

لن أعود لخطّ السّطور

لمراودة النّور وعشق الغناء.

* * *

تهيّأ قبل نزوله من غرفته، وبينما هو يرتّب أوراقه المشتّتة، ليتحدّث عن المستقبل السياسي للبلاد في برنامج تلفزي يبثّ مباشرة عند السّاعة العاشرة ليلاً، والذي يحظى بنسبة مشاهدة عالية، تذكّر أنه من الأسماء المرشّحة لرئاسة الحكومة، لذلك اجتهد في أن تكون صورته على نحو مختلف، أن يكون أرحب من الشّاشة وأكثر انتشاراً من شعاعها...

طلب إلى زوجته 'نورة' أن تختار له من الدّولاب بدلة أنيقة وقميصاً جديداً، وحذاء مستورداً. تخيّرت له ما تشتهي أن تُلبسه امرأة عاشقة لزوجها. أحضرت له العطر الذي كانت تلتذّ باشتمامه في عنقه وصدره وراحتيه، حين يداعب شعرها وشفتيها...

لكنّه سرعان ما تنبّه إلى أن عشيقته التي كان يلقّبها بـــ: 'كارلا' نظراً لشبهها الغريب بزوجة الرّئيس الفرنسي الأسبق ساركوزي، قد ألحّت على أن يظهر في سهرة اللّيلة بالبدلة الإيطالية الأرجوانيّة

والقميص الأسود ودون ياقة... أشياء قد أهدتها له في عيد ميلاده الأخير خلال الأسبوع الماضي.

أمر نورة وبشيء من الاستعلاء بالتخلّي عن خدمته لمباشرة أغراضه بنفسه، تخيّر ما رغبت فيه عشيقته، ثم ضمّخ وجهه ويديه بعطر إنجليزي اشتراه من المعطرة الشهيرة للعطور بإحدى ضواحي لندن الشمالية.

اندفع عبر السّلالم الرّخامية الداخلية للفيلا، وهو يدندن في اتّجاه المرآب الذي يأوي سيّارته الخاصة. نظر إلى ساعته اليدويّة، فاكتشف أن موعد اللّقاء قد اقترب.

ولج القاعة المخصّصة بتسجيل البرنامج محفوفاً بزعماء أحزاب سياسية متناقضة المذاهب والمشارب، يهتزّون داخل بدل مختلفة ألوانها، مدجّجين بحركات وإشارات مصطنعة تفوح منها كل روائح المتناقضات العجيبة.

ظلّ رؤوف واقفاً مزهواً بنفسه وبين رفاقه وزملائه في مهنة السّياسة، منشرحاً يتأمّل القاعة التي غصّت بجمهور من صفوة السّياسيين والمثقّفين والفنّانين ورجال الأعمال.

لم يقتعد المكان المخصص له إلا بعد جلوس منشط البرنامج، وثلاثة من المحسوبين على الإعلام والصحافة، واحد منهم أستاذ جامعي.

لما أُعطيت الكلمة لرؤوف، شرع يتفنّن في عرض منجزات حزبه ودوره الحاسم في بناء المستقبل وضمان الاستقرار، وأن حزبه متعدّد يحضن مختلف فصائل اليسار والوسط في وحدة منسجمة،

هدفه إقرار الحداثة والدّيمقراطية، وصدّ كل التحدّيات التي تهدّد وحدة البلاد وثوابتها. أطنب كثيراً، وهو يكرّر دون مناسبة أن فوزه في الانتخابات البرلمانية الأخيرة مؤشّر على بلوغ البلاد درجات عليا من الدّيمقراطية والنّزاهة. وفي محاولة ردّه على الصحفيين الذين انطلت عليهم الحيلة، أو انضبطوا إلى توجيه يشبه الخدمة بمقابل، صدرت همهمة وسط القاعة تصاّعدت احتجاجاً من طرف شابة من المدعوين تدعى جيهان؛ تشتغل صحافية وكاتبة منذ زمن يسير. اتهمت رؤوفاً في جملة واحدة بأنه مراوغ يزوّر الحقائق ويبرع في حياكة الأضاليل. حاول المنشط إيقافها بنبرة حادّة، لكنها استرسلت في حديثها، لتقرر بأن هذا الرجل هو لحظة البلاد التي تتعثر فيها خطوات التغيير، تسقط فيها الأحلام تراباً ورماداً.

صرخ المنشّط، مجدّداً، وسط جلبة انفجرت أصواتاً وكلاماً، طالباً إليها الصّمت أو مغادرة القاعة. ألحّت على إتمام حديثها صارخة بصوت أكثر ارتفاعاً، وهي تقول بثبات:

- منحتمونا الدّهشة الأولى، فسرقتم أحلامنا وهمّتنا بخدع الدّيمقراطية والتّغيير.

وقف المنشّط، مزبداً ومرعداً، يطلب إلى المخرج والتقني بقطع البرنامج وإيقافه.

توقّف التصوير وبقي المدعوون حيارى مندهشين، فيما احتج بعض الجالسين في الصفّ الأمامي، وهم يلحّون على استقدام الشرطة لاعتقال جيهان، بينما ظل رؤوف متسمّراً في مقعده واضعاً رأسه بين يديه لابداً مستكيناً.

تحرّكت جيهان بعد أن وقف الجميع متسائلاً عن مصير البرنامج وموقف المواطنين الذين انتظروا بثّه طيلة شهر. شقّت طريقها وسطهم تدفع بيديها كلّ من حاول اعتراض سبيلها أو من رغب في استفسارها.

كان خالد من بين المدعوّين لم يتململ من مكانه، اكتفى بالتأمّل في رعونة هذه الشابّة التي تصنع مصيراً مغايراً لما تغيّاه رؤوف من ظهوره على الشّاشة، حتّى إذا غادرت القاعة لحق بها مقتفياً آثارها للتّعرّف عليها فقط، هذا ما تبادر إلى ذهنه أو هذا ما اشتهاه.

كان الخارج مأسور ظلمة تنفث كثيراً من الاكتئاب وقليلاً من الطمأنينة. بدت الإضاءة الطالعة من قاعة التّسجيل خيطاً ناحلاً يميس باضطراب وخفوت متدرّج.... حتّى أصوات المدعوّين قد ابتلعها غبش الخارج. كلّما توغل خالد مسرعاً في عمق الحديقة، ران الصمت حسّاً وظلّاً، وسادت الوحشة. توقّف عن المشي، يتتبّع منصتاً وقع خطوات أو طقطقة حذاء نسائي فوق الممرّ المسفلت... لا نأمة تسمع عدا صرصرة بعض الحشرات وخرير ماء النّافورة التي تتوسط الحديقة. أطلق ساقيه إلى الباب الخارجي. وخطوة فخطوة، لمح جيهان بقدّها الفارع تهتزّ ماشية كحصان طليق. تقدّم نحوها، وقد أحاطت خطاه هالة مهيبة غشّاها القلق والتردّد، لكنّه غلب المدّ والجز اللّذين اعترياه، فحسم في أمر استئذانها بسؤال واحد فقط:

- هل تأذنين لي سيّدتي بسؤال؟

التفتت وراءها، وقد انقشع شعاع الاستغراب في عينيها، رفعت يدها إلى وجهها تلمس بأطراف بنانها شفتها السفلى المرتجفة. راحت تتأمّله وكأنّها تريد أن تحل في عينيه، وفي لحظة تبدّدت فيها صلابتها، بسطت

كفّها الصغيرة المنعّمة مصافحة، وهي تردّ عليه بصوت خافت متحنّن:

- الأستاذ خالد؟! خالد بن سليمان؟!

أحسّ بنشوة تملأ عروقه، لما اكتشف أن جيهان تعرفه، هبّ منشدّاً إليها متعجّباً وعيناه تحملق في كلّ أبعاد حضورها البهيّ.

عاجلته بسؤال أفاقه من غفوته المتسلّطة عليه اضطراراً:

- هل كنت من المدعوّين لبرنامج اللّيلة ؟

أجابها بتلعثم: لا، حضرت مجاملة لبعض الأصدقاء القدامى!

أردف بلهجة متوتّرة طالباً إليها أن تشاركه جلوسه في صالون الأوطيل، تتنسّم برفقته فنجان شاي.

أحسّت برعشة كهرباء ترجفها، فأومضت في عينيها وشفتيها برقة قبول اجتلت بابتسامة عاصفة.

استسمحها بأن تتفضّل أولاً؛ مشى وراءها مثقل الخطى موهن القوى. وحول طاولة قصدتها دون وعيٍ منها، جلست قبالته لا تنتظر منه سؤالاً ولا قولاً، وإنما لقاء حقيقياً تستضيء به ذاكرتها ورغبتها القديمة في لقياه واحتساء حضوره الذي طالما اعتبرته حلماً.

أحسّت، بنظره إليها، أنّ لها أجنحة خرافية تعلو بها لنهاية السّماء. ودون أن تشعر ساحت في طلعته، مودّعة في قرارة نفسها سرّ الغياب أو سجن الحرمان.

في دقائق معدودة رفع عن جلوسهما الكلام، لتسود كل لغات الصّمت الخصيب، لا شيء يسمع حولهما أو بينهما، سوى صوت النّظرات والأنفاس.

بادر إلى الكلام يسألها محوطاً بمسحة رقيقة من القلق:

- هل تعرفينني، أنا الذي اعتقدت أن النّسيان قد أكل هويتي وملامحي؟!

أجابته دون أن تردّ مباشرة عن سؤاله: ما الذي جرى يا خالد؟ أصبحت سماء البلاد مكسوّة بالصّخر.

وكل جوانبها زجاج سميك مضبّب.

ضاقت شوارعها الفساح، واختفت سواقيها النّديات. عظم فيها الأسفلت والتهب.

صمت الماء والشّجر والطّين والطّير، ونطق القبح والحجر. انتحرت الظّلال وارتفع الغبش والضّباب.

اهتزّت فوق الرّؤوس أفكار تلد الموت، تلهو بخطواتها المرتدّة إلى العبث.

حتى الإنسان، ذلك الإنسان الذي كنته أنت ورفاقك، قايض ذات آذار دمه وماء وجهه بكأس شامبانيا وطبق حلوى وعلبة سيكار.

استبدل بتاريخه حاضراً مزيّفاً، فحكى... مزكوماً عن الاستقرار، ثم استهوى أن يكون الوزير والسفير، فدمّر السّير وعطّل السفر.

انتهى كلّ شيء!

انتهى كلّ شيء!

بعد لحظة تأمّل عميق، أخرج خالد من جيبه الأمامي سيكاراً كوبياً من نوع 'كوهيبا'. لم يستطع أن يتحكم في أصابعه، وهو يضغط على زرّ ولّاعته، حيث كادت نارها أن تحرق شاربه الأشيب.

انشدّت جيهان إلى النمش الذي تعرَّم في يديه. خالته كالحكاية أو الكتابة المدوّنة لتاريخ الإشارة أو لسرّ اللّمسات والمداعبات الخفيّة.

انتبهت إلى أنّ الزّمن قد أردى الرّجل متهالكاً في طواف ماراطوني في السّياسة. كلّ إشارة فيه أو كلمة صادرة عنه أو حركة، تنطق بمساره الملغّم والملغّز... وفيما هي تتأمّل بدقة سكناته وحركاته، حاول أن يداورها، فسألها من تكون! أرجعها إلى سؤاله الأول، ملحّاً على معرفة كيف عرفته سائلاً إيّاها: أيّة صورة لي تتحرّك في ذهنك سيدتي ؟

خفت صوتها ناعماً دافئاً، حين أخبرته أولاً بأنّ اسمها جيهان، أو هكذا سمّيت! تعرّفت عليه عن طريق الرّوايات التي كان يحكيها النّاس عنه. عن صوره، وهو يحمل مكبّر صوت صدئ متآكل. اعترفت أمامه بأنها كانت تلاحق أخباره وحكاياه، قصص حبّه، وتطلّعاته وهزائمه المثيرة.

استدركت وبحماسة ملتهبة، أنّها سمعت عن حكايات مشيه البادخ في دروب الدّار البيضاء خلال أحداث مايو 1965م، عن ضربات العصيّ التي تسلّطت على أطرافه ورصاصة الكاتيوشا التي سكنت عضده الأيسر. تصورته يمشي كأنّه ينسج بدمه المهدور ميناء للعشاق ونوراً لبلاد غير البلاد. أردفت وبكثير من الخجل والاندفاع، أنها غنّت حكايته على المسرح، لما كانت في عمر الزهور، بدمع مدرار ونفس مرّ.

حزنت كثيراً لمّا خانه السير في أحداث 'الكوميرا' سنة 1981م،

فسقط في كل المدن، يحمل في ساقيه مهارة العدّاء.

سألت عن شارعه ومقهاه، عن بيته وعاداته. يا لعنة الشّوارع والبيوت، كلّها حطّمت عشّه الأنيق، نصبت محلّه أبواقاً لا تكفّ عن ترديد الكلمات اللّعينة، عن الجهر بالأحداث الكاذبة، بالصور المشوّهة.

وفيما هي تسترسل في كلامها، كان خالد يترقّبها بشغف وألم. وضع يده على صدره ليستردّ أنفاسه، ناظراً إليها بعنين زائغتين ساحت منهما دمعتان صغيرتان.

توقّفت عن الكلام الذي راود خفايا السّنين، يجتليها، كما أدركت بأنّها قد هيّجت من الشّوق والتذكّر ما كان راسياً في قرار قلبه الذي ضاق. سألته عمّا إذا كانت قد أثقلت عليه، أو عمّا إذا كان يرغب في انصرافها؟!

وبينما هي تلتقط حافظتها من فوق الطاولة تتهيّأ للرّحيل، ألحّ على بقائها واستمرارها في الحكاية والحديث. أردف قائلاً، إنّ المكان دونها الآن، يضيق. يموت الهواء وتخنق الرّوح.

- إيه يا جيهان! إنّك تقرعين بيد قلبك الصّافي جرساً أكله النّسيان.

ساد التنكّر وأيّ تنكّر؟!

إنّك تطئين طرقاً لم يعد يعرفها أحد.

- ما أروعك يا خالد، وأنت تستردّ وهج نظراتك التي هجرتها منذ زمن!

إنّي الآن أعثر عليه في اتّساع بريق عينيك الزائغتين. أشعر به

يسبح هادئاً. يحزز تجاعيد وجهك المنطفئ، وشعرك الأشيب الطّليق أوتاراً، يواري النّغم القتيل.

لا تنطق إلا بالجليد المدبّج بالصمت الرّهيب والاحتراز.

- أنت الآن تنبشين أوراق دفاتري القديمة، تتعقّبين في آخر الصّفحة هجمة الحبّ، لتخطفي آخر السّطور أو لتدندني آخر الحروف.

استعادت جيهان صرامتها، لتقرر بكثير من الحزم أن خالداً ورفاقه قد أبرموا كل الاتفاقات بأشكال سرّية عبر ما أسموه بالتناوب التوافقي، معتقدين بأنهم وحدهم يمتلكون شرعية الإنقاذ والاستمرارية. التوافق في رأيها، استفتاء للناس، للأذرع المعروقة التي ظلت مرتفعة تحمي الفكرة والبيت الذي تزيّن بضوء الهلال. خاطبته بأنه ورفاقه شتّتوا الأحلام الطويلة، قطعوا، وهم زمرة مندفعة الحجرة المعتمة دون مشي أو مرافقة، في عربة منكّسة يلفها صراخ الوحدة ولازمة 'الوطن' الناشزة.

زفرت بنفس مرتجف:

- آه آذار، ضيّع الأفق المضيء، أحرق المخازن والذخيرة، أوقف الفتن والهوى المبرّر، فكفر النّاس بالطّريق... كل الطّريق.

قاطعها خالد مؤكّداً أن الذي حدث كان له سياقه، وكانت له تقديراته. لكنّه اعترف بأنه تعلّم الدّرس، وكانت النّتيجة قاسية. لذلك، اعتزل السّياسة، اكتشف أن ما بشّر به التّناوب كان لغواً أو حكاية، اعترف بأنه لم يعد يفهم شيئاً. فبعد مشي طويل، لم يجد الباب أو لم يلمح المخرج؛ وجد أمامه وجهه فقط مشوّهاً في مرايا مكسرّة.

وبينما هو يتحدّث إليها، كان محيّاه يخلو من لونه الطّبيعي شيئاً فشيئاً، يشحب بالتدرج، وهو يعبّ سيكاره بنهم المدمن. بادرت إلى مقاطعته، لتخبره بأنه لم يكن لائقاً به أن يحضر هذا البرنامج أو مناسبة تشبه هذا اللقاء، أن يقبل بأن يكون قطعة تاريخية للتّزيين والتّوهيم أو للتّضليل المغرض.

ألم يسحبوا منه رجليه ويديه مرة، فمكث فاقداً للحركة وسط الطّريق؟

لماذا يلبس وراء السّياسة التي هجرها حاضراً متذبذباً؟ لماذا يتنازل عن رجليه لرؤوف، فيتودّد أن يقف وراءه برجلين مستعارتين، لاهثاً وراء تقلّب الجوّ أو أخبار الحكومات المنصّبة والمعزولة.

أهي الآن ساعة التبدّل والعدوى تدقّ في ما تبقّى من الجيل الذي ينهض، وهم كلّهم يسيرون على غير الطريق الصّحيح بعيون بيضاء مفتوحة نحو شيء اسمه 'أنا وحدي ولست إلا وحدي'.

لم يمهلها خالد حتّى تفرغ كلّ ما في زوّادتها، حاول إقناعها بأنّ كلامها على حقّ، ولكنّه ينطوي على كثير من التّهافت واندفاع الشباب. فحضوره برنامج هذه الليلة لا يعني أنه شريك، وإنما هو إرضاء لعلاقة إنسانية قديمة ليس غير.

بنبرة هادئة، حاول أن يفهمها بأنه رغم موافقته لكثير من كلامها، ورغم موقفه من الدولة نفسها ومن الساسة والسياسة والنّخب المخرّبة، فإن الموضوعية تقتضي الاعتراف بأن مغرب اليوم ليس هو مغرب الأمس، هناك بقع بيضاء وسط الظلمة السائدة.

وبينما هو يستعدّ لتعميق شروحه وبيان حجته، تركت جيهان مقعدها مضطربة، وهي تلتقط حقيبتها من فوق الطاولة في اتجاه النّادل لدفع حساب الفاتورة: لحق بها خالد مسرعاً لاستبيان تقلّبها المفاجئ. أجابته محمرّة الوجه متّقدة العينين، منفعلة:

- كنت أعتقد بأنّك آخر الجدار أو آخر الخيول الصّاهلة.

لكنّي أكتشف الآن بأنّي كنت مخطئة.

لم يتبقّ من المعاني إلّا الأسماء

من الرّجال إلا الذّكرى.

قالت بأنها اللّيلة ترفع نصب النهايات، تمضغ هزيمتها وأفول الأحلام. صرخت في وجهه:

- من يكتب تاريخ المغرب الذي تعبث به جوقة أياد شوهاء؟

ما تبقّى لنا إلا أن نسبّح ونكبّر لصور على جدران الهواء، لنياشين تعلّق على صدور الجثث وأكتاف الفئران ؟

يا خيبتك يا خالد! أنت الآخر قد أرضعك ثدي التوقّف المنتكس أو التطلّع المندسّ...

اندفعت جيهان إلى الخارج تحث الخطى بشيء من التمايل، بينما بقي خالد مترنّحاً في مكانه. أحسّ بأنها قد صعقته بعبارات ناسفة لم يعتد على سماعها. لكن ما زاد في إرباكه حقّاً حضورها المدمّر الذي ترصّد كلّ رجولة خفيّة فيه بقدّها البري ونظرتها الوحشيّة، وكأنّها من غجر الإسبان أو من صبوة الأتراك... أومضت كالنّجم وغابت.

تردّدت خطاه دون أيّة رغبة منه في المكوث، اقتعد كرسيّه وطلب إلى النّادل إحضار كأس ويسكي آخر، أخرج من جيبه ثانية، سيكاراً. وفي لحظة تأمّل مشتّت، حسب أن الزّمن من حوله كمثل أوراق ميتة تذروها رياح صفراء في كل الاتّجاهات.

ليس في هذا الفضاء المقفر ما يجول دون أن يصرخ، دون أن يضرب يده على صدره وفخذيه. هكذا هو يشعر الآن، كلّ الدّقائق من حوله أصابع مصوّبة في اتّجاهه.

الفراغ سيّد المكان إلا من نادل على عتبة صالون المقهى يتأمّل ظلمة الخارج، وهو يدير ظهره لخالد أو لكل الدّاخل... لا يهمّه، الآن، الدّاخل، أيّ داخل.

قرّر خالد أن ينسى ما حدث اللّيلة، أن ينفصل عن اللّحظة التي جمعته بجيهان، أن يواسي نفسه بأنه رجل يفوق السّتّين، وفي تمام النّضج واكتمال تجاربه العاطفية والسّياسية. حاول أن يقنع نفسه بأنه قد استنفد كل هذه التجارب... فماذا يعنيه من هذه الشابة التي حلّت عليه كالزلزال، أو من كلامها الذي ليس له أيّ معنى، والذي لا يعنيه.

احتسى كأسه برشفات مسموعة، وبدفعة واحدة، طلب إلى النادل كأساً ثانية. وبعد الثالثة والرابعة تذكّر طليقته راحيل لمّا كانت في سنّ العشرين بيضاء ناضرة، وكأنها قد شقّت عنها ثلوج الشمال. كانت عازفة بيانو، تهوى الكتابة والتّشكيل والسياسة. كتبت عن جان دارك وروزا لوكسمبورغ وجميلة بوحيرد وسهى بشارة...

كانت تلبس في كل اللّقاءات والتّجمعات كلمات من نار ورصاص.

وفي المساء، تخلع عنها كلّ الحروف والعبارات، تطرد عنها الظّل، وهي تمثُل في تمام عريّها الفتّان، تطوّع الضوء في عينيها وشفتيها وعنقها وسرّتها وفخذيها وساقيها، حتّى تكون أقوى من الشّعاع، من النّار.

كانت في غرفة النّوم، تهيّئ السّرير وطاولة منضّدة فوقها سلّة فواكه يعلوها الكرز والتوت والعنب، وقنّينة شامبانيا وسرب ورود يتسكّع بعض منه فوق زربية حمراء، كانت لها بها علاقة خاصة... كانت تجرّ وراءها بقدمين شهيتين رائحة الليل والبحر، وهي تقصد الدّولاب، لتهزأ تفاخراً بكل أثوابها في تحدّ سافر لهندستها وجمال خياطتها وألوانها، كانت تحسّ بأنها أجمل من الأشياء والأشكال، لذلك غالباً ما تكتفي بالتزيّن بالكحل والعطر، وهي تتّجه برقصة خفيفة إلى 'الفونو' لكي تشغّل أسطوانة للشّيخ العنقا أو عبد الرحمن شعّو أو حسين السلاوي...

كلّما سمعت غناء العنقا انكفأت، وهي تجلس القرفصاء، عارية إلّا من وهج نهديها وسحر فخذيها، تقلّد بحّات صوته دامعة العينين، والرّغبة رعد في كأسها الطافح بالشامبانيا...

تذكّر جلستها، وهي مستغرقة في قراءة كتب غرامشي وألتوسير، تعانق الأفكار والقيم وأحلامها مركبة تجهل يوم الإياب أو ساعة الرسوّ...

كلما فاجأها من الخلف محاصراً خاصرتها المكوّرة بيدين راعشتين وفمه في عنقها، واقفة تتمرّن على الغناء والعزف على الكمان، كان يحسّ بأنها تلهج بكل الأسماء المنسية، بكل الحروف

المصلوبة في أعناق الرّغبة. كم مرّة أوقفها، وهو يلتهم بدفء أناملها المتحركة على الأوتار المؤثّلة باللّذة المستطابة.

قالت له مرّة، ولم يصدّقها: أنت اليوم تعيّد يوم ميلادك الثلاثين.

وأنا قد انهمرت في عشقك حتّى التّلاشي...

لأنّك علّمتني كيف أقرأ الجمال في صمت الأكواخ البنّية الجرداء، كيف أقرأ أصوات الأنفاس وموسيقى الرّوح.

ولغة العذاب والأوجاع.

قالت له وشفتاها تذوبان في شفتيه، إنّه كالنّداء الدّاخلي الذي يحثّها على الحياة عبر الموسيقى والكتابة. وكلّما بَحَّ النداء أو كلّ الصوت هجرتها الحياة وهجرته!

لم يعرف الآن وهو يتذكّرها، والكأس الخامسة في يده اليمنى، لماذا قالت له يوماً إنه كالهواء يحضن العالم كلّه ولا يحضنه أحد؟

لم يتذكّر كيف أجابها، ولكنّه تذكّر لمّا قال لها ذات ليل:

إن التّاريخ الحقيقي مرتبط بمعنى الأحاسيس والمحبّة، ولا تاريخ دون أحاسيس، دون محبّة!

أجابته: إنّ التاريخ امرأة ورغبة، وكل أحداثه عينان وعنق ونهد وبطن وخصر وعجيزة وفخذان وساقان وقدمان.

أجابها بأنّها تتحدّث لغة السّرير، وليس لغة النّاس الذين تحيا من أجل خدمتهم.

عقّبت عليه متذاكية، أنها تتحدّث لغة الحواسّ، لغة الجسد والتّشكيل!

أليس التاريخ جسداً؟ كلّ شيء في الكون جسد وتشكيل. حتّى السّياسة نفسها جسد؛ الدولة نفسها جسد، لأنها مرتبطة بالحكم، والحكم رغبة ولذة مبتدؤها وخبرها، منطق الجسد نفسه وأحكامه...!

تنهّد خالد عميقاً، وقد انقطع عنه تيّار التذكّر، آسفاً على فراقها الذي شتّت عمره، وجعله خراباً. قال في نفسه كما هي عادته، بعد أن خطف الويسكي وعيه:

فهمت لماذا يلبس فراشي اليوم الجحيم، وكان من قبل قطعة قمر تسوّرها ستائر من اللّؤلؤ المذاب.

لم تمض لحظات على وحدته التي كان يحدّث فيها نفسه، حتّى سمع جلبة خفيفة في الخارج. رفع رأسه في اتجاه نافذة كبيرة تجاوره، وزجاجها مقفل. لمح رؤوفاً راجلاً، وهو محاط بنفر من الوجوه التي تربّعت على عرش الإعلام والإشهار.

وبينما هو غارق في تأمّل هيئاتهم وحركاتهم، نطّت إلى خياله صور شوهاء، وكأنها العمق الخفيّ لهويتهم الأصلية، تصورهم قطيعاً من الكائنات التي تدبّ زاحفة تلتهم الأشياء الجميلة بأفواه ذات أسنان من حديد.

استحضر ما نعتته به جيهان، قبل قليل، وهي تصف حضوره في البرنامج بما يشبه رجلاً يُرمّم القبح، أو ما يشبه شبحاً يخفي الجيف المفزعة في غرف الأطفال وممرّات الزقاق الآمنة...

وجد نفسه، ومخيّلته تعجّ بالصور المقيتة، هيكلاً منخوراً يلبس ستائر ممزّقة، يجرّ الخطى متعثّراً بين النّفايات وأسانة الوحل.

أقسم أن يترك كرسيه، أن يلعن قعوده، وألّا يستسلم إلى ما استفحل من أمر واعتاص؛ فما كان منه إلّا أن يقف على عتبة مقهى الأوطيل، وهو ينادي رؤوفاً وحده لا غير.

لما سمع رؤوف نداداته، بادر إلى الدنوّ منه بخطى جافّة دون أن يلتفت خلفاً، كانت علامات التوتّر والانفعال تغزو محيّاه. ولمّا حاول الكلام تنبّه إلى أن خالداً سكران، وفي عينيه خفوت صادم بلون السّقوط.

اعتقد رؤوف أن خالداً حزين لما حدث، فعمد إلى طمأنته، وهو يخبره بأنه سيعاد بثّ برنامج التّصوير في القادم من الأيام.

قوّس خالد حاجبيه وقال خانقاً:

- أريدك لبعض الوقت لأحدّثك في أمر مهم!

أطرق رؤوف مفكّراً، يحدجه بنظرة حائرة، ثم طلب إليه اللّحاق ببيته الشاطئيّ الخاص بجلسات العشاء والسّهر.

كان خالد راغباً في الانفراد برؤوف والاجتماع به وجهاً لوجه، بل كان مصرّاً على أن يحدثه بكل صراحة. لكنه في لحظة مباغتة غشّاه شيء من التنازل، خشي أن تعلم تلك الثلّة التي تسود السياسة، وهي ترافقه الليلة، إصراره على اللّقاء المغلق به، فتزيد من الحجز عليه ومحاصرته بالكامل.

كراهته لهؤلاء عميقة وثابتة، غير أنّه يحاول أن يدبّر مكرهم بالابتعاد عن مخالطتهم، ولو عن طريق المجاملة.

ألجم التّعبير عن رفضه مجالستهم بالتريّث والاكتفاء بهشّ رأسه إعلاناً عن تلبية الطلب مطاوعة.

بعد انصراف رؤوف، توجّه خالد إلى النادل يسأله الحساب مضطرباً متلطّفاً، طالباً إليه كأساً سادسة ارتأى شربها واقفاً، وفي نيّته أنّ هذه الكأس الأخيرة ستحشد قريحته وتنشّط حماسته وتحرّر لسانه لبلوغ الجرأة على الأخذ والردّ في الكلام والمجاملة.

ترجّل بعض خطوات، وهو يتنفّس الصّعداء متسائلاً:

- ما أقسى السّير نحو الكلام المعلول في الدواخل.

يتدلّى المعنى المعمّق فيه وراء شرفات النّفس المكبّلة بالحذر!

وقتها لن يسود إلّا الكلام الشّبيه، أو الكلام المزوّر، فنعمد إلى تنقيح حضورنا بأصباغ بهلوان، ليست مطلية على وجوهنا فقط، وإنّما مركوزة في دمنا أيضاً، في سرّيتنا وعلنيّتنا بالتأكيد.

يمكن أن تدعّم حضورك بالمكر؛ تلبس التنكّر من مواجهة المرآة، حتّى لا تصدمك الإشاعات المجمّلة أو المزيّنة بتراتيل الوصلة أو الوصول!

إن أجنحة التوهّم التي تطير بك هي الآن تبتلع صوتك؛ تستبدل بحنجرتك مدينة من الخرسى المقعدين، يستقرون في صديد الوقت. يتوهّمون أنهم ينعمون في أفرشة من ريش الزمن المتبدّل.

العجب أنك ترى النّطفة التي خلقت منها تهجرك، كي تفرّ من النوافذ ومن كل المخارج. تصرخ متبرّئة من هيئتك وأفعالك، لكنك لست آبها بوجع الانفصال وفجيعة الهجران.

تظنّ أن فؤادك لا يفرح إلا بالحياة، ووردة فخذ تتنشّقها بحاستك الممنوعة. غير أنّك لا زلت تجهل أن داخلك عماء... عماء...!

ما أشد الحاجة الآن إلى أن تجرؤ على التّصريح بأنك كنت في السّفر الأخير شخصاً لسواك. خانتك المرآة واعتقدت أنك شبيه بنرسيس!

وجد خالد نفسه خارج الأوطيل تستقبله زخّات مطر تتلاحق بغنج، وأضواء مصابيح الزّقاق الغائمة بتردد، كل الأشياء ارتسمت خائبة في عينيه، النّاس والمدينة والأشكال والضّجيج. كلّ الأشياء تبدو أمامه متداخلة يكسوها لون واحد.

تذكّر أن آخر رسالة بعثتها إليه راحيل، بعد طلاقهما، تؤنّبه فيها:

- ما الطريق الذي سيأخذك إليه تحوّلك وأنت تتهافت إلى أن تصبح عضواً في الحكومة، ضربت رؤوس السّرب الذي أرهق السماء، وهو يحلّق في كبدها. لكنك صنعت من فمها عطراً، ومن جلدها حزاماً، وحذاء حتّى يكون لصرير خطوك إيقاع رجل الدولة. أنت الآن تأمر بحفر خندق لدفن الماضي، وتتشهى تابلاً من الحكم والخطابة والدّم.

تحتضن مرحلة يئنّ في أرجائها الطين والهواء، وتوهم الشهود بأنك تطهّر الأرض من شرّ الخليقة والتاريخ.

لهذا كلّه، فأنا سعيدة لطلاقي منك، ومصرّة على ملاحقتك بالكلمات والمعاني التي كانت مصدر رباطي المقدّس بك، والتي خنت أسماءها وماءها وأفقها الرّحيب.

طرد خالد صورة راحيل التي اقتحمت تأمّله عنوة، وبينما هو يتّجه إلى سيارته، شعر بوهن قوي يتخلّل ساقيه، وبصداع بالغ الحدّة يطوقه. حاول أن يخطو، لكن دوراناً مفاجئاً لفّ دماغه. غشيه ارتجاف

مزلزل ألبس وجهه وكل أطراف جسده عرقاً بارداً كثيفاً تصبّب منه بغزارة....

قاوم هذه الحالة لبلوغ سيارته، لكنه فجأة وجد نفسه فريسة دوخة قاهرة، خرَّت كل قواه وانطفأ العالم أمامه، وأخيراً سقط على الأرض مُغمى عليه مستسلماً للمجهول.

في صباح الغد، فتح عينيه ببطء ولكنه وجدهما مسبلتين ثقيلتين. انقاد إلى إغلاق جفنيه، ظانّاً أنه يسبح في النوم حبيس تلاطم الصّور المزعجة وأبخرة ضبابية مسكرة. أحسّ أن سمعه قد غفا أو قد اختنق، ولولا إحساسه ببعض الأصوات الخافتة الآتية من قعر بعيد لتأكد له أن سمعه قد تعطّل تماماً.

عطش شديد يسكن أحشاءه. رفع يديه إلى شفتيه فوجدهما جافّتين ذابلتين، نطق بصعوبة وحنجرته متيبّسة: ماء! ماء!...

غطّت وجهه لمسة يدٍ ناعمةٍ رحيمة، انسربت بحنو إلى قفاه، لتساعده على شيء من الاستواء، حتّى يتمكّن من تجرع قليل من الماء. فتح شفتيه بتثاقل، وبعد جرعات متقطعة شعر أن هناك شفتين رخوتين تحطّان على جبينه، وهي تغذّيه بأنسام رخيّات ألهبت فيه رعدة الرجوع إلى اليقظة.

تحركت عيناه ببطء، وهو يقاوم ثقل جفنيه اللذين توسّعا قليلاً، انسربت إليهما خيوط ضوء شحيح ومرتجف. فتح عينيه قليلاً، فتبيّن من الظلّ القريب من وجهه، أن جيهان بجانبه ووراءها رجل بوزرة بيضاء.

ألقى بنظره المتعب إلى جنبات القاعة وتفاصيلها، فاكتشف أنّه

راقد في إحدى غرف المشفى. اكتفى ناطقاً باسم جيهان مديراً رأسه إلى الخلف، لكي يستند على وسادة السّرير، وهو يصارع التّعب والمرض.

تبادر إلى ذهنه من الخواطر المشتّتة والمبهمة، ما الموت؟ أو ما معناه؟ لماذا نرتبك أو نكتئب لحضوره؟ ألأنه الأفق المغلق الذي يسلب الجسد الرّغبة واللّذة ؟

ليس الموت هو كما نظنّه؛ لأن معناه ليس مفارقة الروح للجسد ومواراة هيكلنا التّراب؟

هو ليس نهاية وفجيعة. الموت هو الزّمن المتحرّك الذي تتعطّل فيه الأحاسيس الخامدة.

هو عمق السّيرورة ومنطق التاريخ، هو الخراب السرّي للقلب الذي لا يعرف إلّا أن ينبض، لدمه الذي لا يعرف كيف ينفلت من أصابع الوقت المزيّف.

هل يكفي أن نؤمن بالتاريخ والأحاسيس فقط، لنفهم حقيقة الموت والحياة؟ لنبدأ السّير من جديد؟ هذا أمر مشكوك فيه، لأننا... أو لأنهم... لا أدري ماذا أقول؟

هل علينا أن نصدّق الآن، أننا نودّع زمناً يموت ونستقبل آخر يحيا؟

فبأيّ أحاسيس نحضنه وهو أصمّ أبكم، وقد اغتلنا الموسيقى وطمسنا إنّية الألوان. ليس في هذا العالم ما يحول دون أن نصرّح أننا صنعنا موتاً حقيقياً لأبنائنا، ونحن نترصّد صيداً على أعتاب موج العصر.

لهذا لم يعد خالد مرتبكاً أو خائفاً من أن يسلب الحركة، أو يوارى التراب مثل باقي النّفايات، لأنّه اكتشف أنه مات منذ زمان، بالرغم من أنه كان يتحرك وهو ينشقّ، من حيث لا يدري، إلى نصفين أو أكثر من وجهين. لما كان ينافس السّاسة والنّاس. ينافس عشيقاته وأصدقاءه، ينافس ذاته نفسها.

ما أحبّ إليه الآن الانتهاء في كلمات التّكوين الأولى، وهو يرسم اعتذاره لبلده بكل الأشكال والألوان. قال آسفاً: يا ليته يقدر على قول هذا كله إلى راحيل!

استفاق في منتصف النهار متمرّداً على قسوة المرض، وقد انتبه إلى أن يده قد تحرّرت من صلف تلك الأنابيب المزروعة فيها قهراً، أحسّ بأنه استعاد عافيته وكأنه لم يحدث له شيء.

سأل جيهان وقد أحاطته بابتسامة طليقة، منذ متى يرقد في المشفى؟

أجابته بأنه قضى فيه ثلاثة أيّام. شعشع اللّغز العصيّ في عينيه يتحسّس إيقاع كلامها الذي تدفّق كالرّخاء السخيّ يخصب الروح ويشفي السّقم.

استرخى أمام تلألئها هانئاً، كأنّما قد شفّ عنها بهاء الوجود.

وبينما هو لاهٍ، عن كل ما يحيط به، بالتأمّل المتودّد إليها، لم ينتبه إلى أن الطبيب كان حاضراً يتحيّن الفرصة لفك التّماس الموصول بينهما.

تردّد الطّبيب قليلاً، ثم هبّ متقدماً نحو خالد، ليتفحّص ضغط

دمه بعد أن حيّاه بإشارة مجاملة. وبعد أن طمأنه على حالته الصحيّة التي استقرت منذ ليلة البارحة، نعى إليه خبر إصابته بداء السكّري وضغط الدم، وأن عليه الإقلاع عن شرب الخمر، واتّباع حمية صارمة تجنّباً لأية مضاعفات طارئة ومرتقبة.

لبد خالد في سريره مستكيناً مصعوقاً، وكأن أمراً جللاً قد ألمّ به، بينما تظاهرت جيهان بالمرح، ترتدي قناع الانبساط واستعمال النكتة للتّخفيف عنه من وقع الصّدمة. سحبت يده التي فوق رأسه دون أيّ وعي منه، كي تهرشها هرشاً بدعابة مصطنعة، آملة أن تسرق منه ابتسامة ترجعه إلى وضعه الطبيعي.

قالت له، إن السكّري وضغط الدم هما داءان اشتهر بها النّجباء والأخيار من النّاس ذوي القلوب الهشّة.

ارتفع صوتها ممازحاً، تحكي بأن مرضه قد سوّاه وعدّله، ونفخ فيه جمالاً وصفات مائزة عن الرّجال البكم والصّم الذين لا يفقهون.

كانت علامات الانهزام والانهيار تغزو نظراته التي ظلّت شاردة تقرع أبواب الغياب. وفيما هو عليه ابتهلت جيهان الفرصة لكي تلتقط يده ثانية، وتشابك بأصابع يدها اليمنى يده اليسرى. شعرت بأنها الآن، تلتقط بقايا حلم أو آثار رغبة معصوبة العينين.

تنهّد خالد سائلاً بصوت خفيض، من تكون هذه المرأة التي تتعكّزُ على أنفاسه المتبقّية وتأخذه من يد وجوده المنتكس لتقوم بنزهة على ضفاف تحوله المرتد. هي دورة الوقت الذي ضاع، أو دورة الوقت الذي يحبل بالمعجزات.

من تكون هذه المرأة التي جاءت تقتفي خطوات قدميه المظلمة. تجرّه إلى مرسى البدايات، وهي تعلم أن كلّ المنائر قد أطفئت، أحرقت، أو أعدمت...

لا ترياق له الآن ضد ضياعه إلا التملّي في عينيها اللتين يتفصّد منهما ضوء يمحو بعضه بعضاً.

تعجّب كيف أن زبد الانسلاخ جرف مراكبه، حرّف كلمات الحقّ والنبوّة، أثمر العبث في ارتخائه الذي طال، ومع ذلك تجيء وبين كفّيها طاقة للمساندة والدّفع.

تململت في جلستها، وهي تربّت على يديه راخية نظرها إلى الأسفل.

لم تنبس بكلمة كأنّما تجمّد لسانها في فمها. اكتفت بالنّظر المتوغّل في عمق روحه بقلب زائغ مضطرب، تلهو ساهية بذؤابة وشاحها الذي تحبّ لفّه حول عنقها في الأيّام الشّاتية فقط.

في لحظة صمت استطارت من خلالها كلّ الرّموز، أخرجت من حقيبتها قلماً ونصف ورقة، كتبت عليها رقم هاتفها وعنوانها الإلكتروني. وقفت بهدوء ثم اتّجهت نحو الطّاولة الصغيرة التي كانت في الجهة اليسرى من السّرير، تاركة الورقة فوقها استعداداً لمغادرة القاعة، آملة أن يكلّمها بعد خروجه من المشفى زوال هذا اليوم. لم يقدر خالد على أن يستبقيها أو أن يودّعها، مفوضاً أمره إلى المجهول المقيّد أو المقدّر، وإنما اكتفى بالقول وفي يده باقة ورد وضعها أحد الزّوار قرب رأسه زافراً:

هذا الورد لك يا جيهان

السّماء الآن، تهطل زهراً ووردا

قلباً يستقطر ودّاً

ووداع يتحول ندّاً

للقاء معقود بلقاء

يجر وراءه نهراً أو مهراً

إلى اللقاء يا جيهان!

بادلته التحيّة بإشارة من يدها دون أن تتفوّه بكلمة، وقد غزت وجهها حمرة ناطقة بأكثر من معنى.

في الممرّ العلويّ الذي يتوسّط غرف المشفى، التقت جيهان برؤوف، وفي يده كيسٌ من ورق تعلوه قنّينة ماء. فوجئ بخروجها من غرفة خالد، وهي تسطّر في الممرّ بخطوها خريطة التحدّي والانتشاء. ولما اقتربت منه حدجها بنظرة شزراء مبدياً إشارات عدائية، ينفخ صدره ويمدّد عنقه. لكنها مرّت بمحاذاته دون أن تعبأ به، مضطربة الخطى منكّسة الرأس. وبينما هي تتابع مسيرها سمعته يستفسرها بما يشبه الأمر عن علاقتها بخالد.

لم تهتم به، واصلت خطوها مسرعة في اتجاه الخارج؛ بينما كان رؤوف يرقبها ساخراً هازئاً منها:

- أهو رقم جديد يا جيهان؟

لا عليك إن خالداً أضحى هيكلاً ليس إلّا!

هكذا فقد السّيطرة على نفسه، ولم ينتبه إلى حالته، إلا بعدما ألفى صوته يعرّي عبقريّته، يقهقه عالياً. وضع فجأة يده على فمه، وهو يحملق ذات اليمين وذات اليسار مخافة أن يرمقه شخص زائر أو صحفي متربّص.

قاومت كلامه الذي وقع عليها كالجمر الحارق منطلقة كالسّهم عبر أدراج السلّم السّفلي الموصول بالباب الخارجي. وحينما وطأت رجلاها عتبة الخارج، أحسّت بدقّات قلبها تتسارع، تتفصّد عرقاً غزيراً، مبهورة الأنفاس مكسورة الخاطر.

شعرت أن كرامتها قد سقطت أمام رجليها دامية، وأن كبرياءها الذي كان يرصّع جبينها ويوثّق خطاها بثبات قد تبخّر بلمح البصر.

استندت إلى الحائط الذي يحاذيها، وهي تتكئ عليه بيدين راجفتين، جاهشة ببكاء عميق متألم، ترجمت دموعه الملتهبة تمزّقاً رهيباً ضرب أحشاءها.

أرعدت صور الماضي في ذاكرتها، كي تواجهها بخطيئتها الكبرى. خجلت من نفسها أن تتذكّر تلك الصّور؛ ولكنها لم تستطع مغالبتها بالنسيان. وفي ظلام هذه الأحاسيس استنفدت قوتها، لتقع أخيراً في قبضة الذّكرى سجينة دونما سجّان.

هي الآن تغور راعشة في التذكّر مرتجفة الأضلاع. صرخت بملء صوتها الذي لم يسمع لمّا باغتتها أول صورة لأول لقاء برؤوف، وهو محاط برفاق الأمس من فصيل اليسار. كان وقتها فقيراً، لا يملك من الدنيا إلا الحسرة وراية قيم رثّة مغبرّة وبستاناً من أفكار الثّوار.

التقت به مصادفة في حفل إحدى الجمعيات الحقوقية، احتفاء بحرّية الرأي والتعبير. تودّد إليها بطريقة ماكرة، لكي تقبل دعوته حضور عرض شريط وثائقي يحكي الفصل الأخير من حياة غيفارا. راقتها الفكرة كثيراً، وهي عطشى إلى رؤية مشهد قتله عاري الصّدر متوهّج الجبين.

أطلعته على أن فرقتها المسرحية مثّلت حياة تشي غيفارا، وقد لعبت دور عاشقته السرّية... استحوذت على الكلام، وهي تروي تفاصيل مشاهدها الدرامية، ثم تساءلت لماذا تماهت بالوجه المشترك ما بين هافانا وموسكو؟

لماذا كانت جبال كوبا وأشجارها تسكن أعماقها لمّا وقفت على الرّكح تحكي عن الحصار والجراح والمرايا؟

كلما كانت تقترب بالممثل الذي كان يمثل دور تشي، اهتزّت ودقّت في عروقها المنائر وتقافزت منها وجوه العشّاق، لأنها كانت ترى في غيفارا المستعار في جسد الممثل بوابة بستان وسواقي الخلاص والحبّ والحرّية.

لما رأت الشريط تألّمت حتّى العظم وغيفارا يقتل غدراً وخيانة.. بكت بدموع حارقة، وقد اسودّت الدنيا في عينيها، لاعنة أمريكا والعسس والرّعاع والمتملّقين والوسطاء..

بعض انتهاء الشّريط، أخذ رؤوف الكلمة وسط حضور من أطر الحزب وشبّانه، ليشرح السّياق الذي جاء فيه عرض الفيلم. تحدّث بإسهاب وباندفاع عن أوضاع اليسار في العالم والمغرب؛ لكنه سرعان ما انقلب حديثه إلى موضوع آخر، يتفلسف فيه عن معاني مشاركة

حزبه في الحكومة أو كلّ الحكومات، منبّهاً إلى خطورة ترك الكراسي فارغة. تحدّث عن دلالة التحالفات وقيمتها في صناعة الفرق السّياسية؛ لكنه أقسم بأغلظ الأيمان والبصاق يتطاير من فمه، ألا يكون تحالف حزبه إلا مع قوى اليسار والديمقراطية.

رفع أحد الشّباب يده ليسأله، ولكن رؤوفاً لم يعبأ به، لأنّه كان محموماً بحماسة الخطاب. ولما ألحّ الشابّ على السّؤال، منحه الكلمة مُكرهاً، محذّراً إيّاه بألا يتجاوز نصف دقيقة.

أشار الشابّ إلى أن كلام رؤوف مثقل بالتناقض والأغاليط؛ لأن أحاديثه الماضية زمن الانتخابات ما قبل الأخيرة، كانت كلّها قسم ووعد ووعيد بألّا تكون تحالفات حزبه مع قوى اليمين والأحزاب الإدارية أبداً.

أردف الشابّ أن قيادات حزبه قطعت على نفسها هذا الالتزام أمام الملايين من الشّعب في أكثر من برنامج تليفزيوني وإذاعي وندوات صحفية؛ بل شنعوا وعرضوا بتلك الأحزاب أمام ممثليها المحاورين لهم.

صرخ الشاب: تبخّرت المواعيد وألغيت المواثيق في لمح البصر، واليمين واليسار يعبّان نخب الانتصار من كأس واحدة، مباشرة بعد الإعلان عن نتائج الانتخابات البرلمانية الأخيرة. فكان التحالف بينهما على وزيعة الكراسي، ولم يكن أبداً على مشروع مشترك.

ضجّت القاعة بالضحك، بينما ضرب رؤوف بقبضة يده على طاولة المنصّة، ليلطّف الأجواء معقباً على كلام المتدخّل، متهماً إيّاه بالعدمية وسوء التقدير، وأن المرحلة التي تجتازها البلاد تقتضي

التّحالف مع الشّيطان لو كان ذلك ضرورياً، من أجل المصلحة العامة.

قاطعه الشابّ هائجاً:

ألا يحقّ لي أن أعبّر عن رأيي، وأن أقول لكم إنكم تزرعون في خلايانا بذور الرياء والأضاليل. أفسدتم الولد والبلد وأسقطتم أحلام أجيال بأكملها..

هي الآن، تعيد الموقف نفسه، لمّا واجهت رؤوفاً قبل أيام. ترجّلت بضع خطوات نحو سيارتها، ثم فتحت بابها وجلست ماسكة المقود باضطراب. لم تقو على تشغيل محركها، اكتفت بتأمل وجهها في المرآة الأمامية، وقد راعها تلبّده وقسماته المتلاطمة. ألفته كعصفور مقطوع الجناح، مكسور العنق. استسلمت مجدّداً إلى التألّم وهجمة التذكّر.

غابت مبحرة في الماضي، وهي تستعيد صورة رؤوف يحط يده فوق كتفها، يلحّ على مجاملتها في أن تتقدمه بدخول أوطيل هيلتون وهو وراءها، لم تستطب رائحة العطر التي ضمخ بها وجهه وثيابه. لم تستحسن ألوان لباسه وشكلها، ماعدا حذاء مصنوعاً من جلد التماسيح، وقد بدا على رجليه نشازاً، حتّى أن سيوره امتنع عن الربط تمرداً على رجليه الغليظتين، تدلّى بطنه فوق ركبتيه. جلس أمامها، منتشياً بطلب جعّة من النّادل، وهو يشعل سيجارة فارهة بزهو مبالغ فيه.

استغربت إلى حد الدّهشة، حين رأت معصمه تسوّره سلسلة ذهبية، يلوّح بيده في كل الاتّجاهات استعراضاً لشيء يعتقد أنه يميّزه عن الآخرين.

تعمّق ذهولها لما قارنت بين هيئته في مقر الحزب والتجمعات، يخطب في النّاس ويلهب حماستهم باسم الطبقة العاملة، وبين هيئته الآن، وهو يرافقها في مكان غير المكان، في وضع يشبه الاختلاء...

استفحشت حضورها معه، واعتبرته شبيهاً بالخطيئة أو بالحطّ من كرامتها؛ لكنّها استدركت هذا الشعور لما أقنعت نفسها بأن رؤوفاً لا يمكنه أن يفكّر فيها خطأ، لأنّه يكبرها بأكثر من خمس وعشرين عاماً...

سألها عن سبب شرودها، فأجابته بأنها شاردة في الشّرود نفسه، تفكّر في أشياء لا معنى لها. كل حواسّها الآن منفرطة الحلقات والإيقاعات، تنافس ذبذبات الغياب الملغّز والفراغ الغامض. أردفت أنها تحسّ بالزمن يفرّ من بين أصابعها، من تحت أهدابها من نبض عروقها، ليستكين في أيّ زمن آخر، ليس بالزمن ذاته، لا تشتت فيه للكيان، ولا كتائب غازية من المهادنات....

تبسّم رؤوف مخاطباً إياها برزانة مصطنعة، وهو يستحسن خطراتها الفلسفية في كلامها عن الزّمن، وفي توقّد فكرها. سألها إن كانت طالبة في شعبة الفلسفة أو في الآداب. أجابته بأن الألم هو الذي جعلها تفكّر على هذا النحو. هذا الألم الذي كفّن غبطة داخلها، أقام فيه خيم الظلام وأطفأ المصابيح والقناديل القديمة.

ضحك رؤوف معقّباً على كلامها، بكثير من اللطف والمزاح، كيف لهذا الجمال المستطير أن يأسر وهجه في مقصورة التشاؤم والسّواد. عاجلته مقاطعة بأنها سئمت النظر بعيون مزيّفة... اشتبهت الأسماء والوجوه والألوان، ولا زلنا نهتف بالأرض الرّطبة النيئة والمنائر ورذاذ المطر... هكذا زفرت، وتمنّت من ربّها أن يذهب عنها البصر.

حاول رؤوف الترويح عنها، بنبرة جافّة، بأن الغيوم ستنجاب عن سماء البلاد قريباً، تسبح المراكب في الأنهار الجليدية، وتتحرر الدموع من محاجرها والأصوات من معاقلها. يومها سنحضن بسواعد الكادحين حدائقنا وسماءنا وعصافيرنا وأهلينا الطيبين.

اجتهدت في هذه اللحظة من التذّكر، لكي تقفز على لقطة قصيرة من مسلسل الصور المركوزة في حافظة مخيلتها، وهي تعضّ أصابعها ندماً؛ لأن اللقطة كانت مدخلاً للسقوط والخطيئة. فلم تقدر على النّسيان لما سمحت لرؤوف بأن يضع يده فوق يدها، وهو يتحسّسها لثوان، قبل أن تفطن لذلك وتقوم بسحبها بسرعة الصّوت.

استحضرت انفعالها وتأنيبها له قبل انهمامها بالانصراف؛لكنها هزمها كلامه لمّا أقنعها بالجلوس، معتبراً لمس يدها مجرّد حركة لا إرادية مصدرها اندفاع عاطفي لا شعوريّ، تفرزه الأنا وهي تمارس الكلام والخطاب، تماماً كما تمارس الحبّ أو الكره على حدّ سواء.

أطرق على نحو مباغت دون أيّ انسجام مع موضوع حديثها السابق، يشرح تعقّدات الرغبة واللّذة وعلاقتها بالإرادة، سواء أكانت سياسية أم ثقافية أم جنسية، معقّباً بين الحين والآخر على كلامه بأن الأنا السياسي يتماهى بالمباشر مع الأنا الجنسي، لأن ضغط اللاوعي على الأنا هو دوماً ضغط جنسي. وفيما هو يفلسف جراءته بوضع يده فوق يدها، نقضت حديثه بقوة، معتبرة إياه مجرد سفسطة مرتكبة لا تقوم على أيّ سند علمي أو أخلاقي، خاصة لما اشتمّت من كلامه إباحة التعدد الجنسي والتوزّع بين الذوات إشباعاً للرغبة...

سعت إلى ختم هذا الحديث بقولها، إن الإخلاص له لون

واحد، ولا اكتمال ولا بهاء إلّا بالتوحّد بمن نحب. لا يمكن أن يكون الذي نحبّ متعدّداً، لأن الأصل في الحبّ هو التوحّد الرّوحي بالواحد. ومتى فسدت هذه القاعدة، فسدت معاني الصدق والوفاء، وأصبحت الخيانة جواز مرور شرعي إلى البشاعة والحيوانية، في السياسية أو في الإنسانية ذاتها.

تحرّج رؤوف، فأطرق يبحث عن مسوّغات طروحاته. استوى في قعدته، وهو يستدلّ بكارل ماركس، مردّداً أسماء أعماله 'الرأسمال' و'البيان الشّيوعي'، ودفاعه الجسور عن كرامة الإنسان. ذكّرها بكل هذه الأشياء، ليحكي لها عن عشقه الملتهب لامرأة أخرى، بالرغم من حبّه الأسطوري لزوجته جيني الجميلة، التي تنكّرت لأصولها الطبقية، ووهبته روحها، ترفل برفقته متهالكة في الفقر المذلّ. ومع ذلك، لم يستطع أن يبقى ماركس حبيس قيود جسدها فقط، بل تحرر متوزّعاً ما بين زوجته وعشيقته. يمارس تعدّده وإشباعه. كانت جيني تعلم ذلك علم اليقين، لكنها لم تبادر إلى هجره أو نبذ حياته البوهيميّة. هذا يعني أن العشق المتعدد أو رغبة الانسياب الجنسي في الجسد المتعدّد، صفة إنسانية جبلت عليها النّخبة المبدعة أو المفكرة؛ أيْ النخبة المختلفة، ومنها صفوة الفاعلين السياسيين؛ أي نحن!

أحسّت وهي في غمرة التذكّر وتداعي الصور والواردات التي تشبه الكوابيس، بأن تنفسها يضيق. حركت سيارتها بعصبية، وانطلقت في الطريق الممتد دون أن تعرف وجهتها. اعتقدت أن استبدالها هذا المكان بمكان آخر، أمر مستحبّ قد يقطع حبل توارد هذه الصور المقيتة...

انطلقت بسرعة مرتجلة، لكنها سرعان ما استدركت تهوّرها بضبط مقود سيارتها والسّير باعتدال. ومع ذلك، استسلمت مرة أخرى لزحف التذكّر الذي كان عنيفاً، لأنّه بالرغم من انزياح مخيلتها إلى خالد، الذي يرقد في المشفى، استبدّ بها تذكّر لقائها برؤوف، وهي تسأله متحاشية استمرار حديثه عن التشدّد والتوزّع والإشباع، عن خالد الذي ظلّ متنقلاً من سجن إلى سجن كالوعل الجريح، عن زوجته راحيل التي غنّت وسمت إلى رحاب الإنسانية الصافية، تعزف أجمل الألحان، وتتنشق رائحته وأنفاسه، تعيد نسج صورته وظلاله في كتاباتها الصّارخة والمدويّة...

هي الآن تستحضر وجه رؤوف ينكمش، تتساقط ملامحه من مواقعها كالثّمار الفاسدة.... وبتأتأة ضربت لسانه، قرّر وبكثير من التردّد بأن خالداً صديق ورفيق الدّرب، فضّل الانكفاء وهجر السياسة والنّاس. لكن راحيل ما فتئت، خطأ، تمثّله في غنائها وفي أشعارها كالعلم الجنائزي، تشنع به وتلغي بطولات رفاق آخرين. غفلت الأخذ بالحسبان بأن ليس هناك بطولة فردية، وأن التاريخ لم يكن أبداً من صنع الواحد، هو صناعة بالتعدّد والجمع أو هو مسار بروح مشتركة بإرادة الجماعة.

ما إن لمست في حديثه نوعاً من الحسيفة أو الشّماتة، وهو يتحدّث عن خالد وراحيل، حتّى انبرت له لكي تنقض كل تلميحاته وإشاراته، متعجّبة من سعيه إلى المساس بحضورهما الرّمزي المائز. طفقت تنعت كثيراً من رفاقه بالتخاذل والتغوّل بحماسة الكلام وبرودة القناعات والارتقاء في الرداءة. كانت في حديثها عن خالد وراحيل تشفي بعض غليلها في الدّفاع عن قداسة الالتزام ووفاء المحبين.

قالت إن خالداً كان الأفق الذي تنقدح من خلاله الحقيقة، كانت تشتهيه النّساء، ولم تلبس راحيل وحدها نبضه وخطوه، بل لبسهما جيل من العاشقين والثوّار.

اعترفت بأنها كانت تربطها به جسور ناعمة متخيلة؛ ترى نفسها تقتفي خطوه، تتفحّص أنفاسه وتجسّ نبضه... صرّحت بأنها كانت تتخيّل ما يكتب وما يفكّر فيه، في كلّ حركاته بتفاصيلها ودقائقها. كانت تجد نفسها دوماً تنقّب في دولابه، تخرج ملابسه... كل ملابسه لتلمسها وتشمّها فقط، ترى بعين الغيب أدق ما يجري بينه وبين راحيل. كان مثلها المطلق، لأنّه يخلص إليها إخلاصاً إنسانياً رحيباً فتح قلوب جيل بأكمله على أسطورة الشّغف والعشق للآخر ولبلاد هي الآن في عنق الزجاجة.

لم تكن راحيل تعدّد قسماته وهويته بالألوان على قماش مصنوع للتأمل والتملّي استدراراً للشوق والحنين، وإنّما كانت تؤرخ لأحاسيس رجل قاوم انهيار العالم وانزياح تاريخ دخل مرحلة التأرجح بين أنصاف العبث وأشتاته، تتنافس فيه أصوات الريح والهواء...

لم تعد لنا الآن، الحاجة إلى عالم معدّل بهيئات ملمّعة كالظّاهر المتخفّي في الأصباغ والمساحيق، لأن هذا العالم يؤثث بنا أدراجه كالجيف وكأعضاء معطلة منضّدة. يومئذ سنكون كالعدم... ما أشدّ حاجتنا إلى عالم تكون عماداته أحاسيسنا الطّافية من جوهرنا الوجودي، لأن وجودنا ليس غير أحاسيس تتضارع أبداً لمنحنا معنى إنسانياً دقيقاً وليس أيّ معنى!

هذا ما كان يردده خالد، وهذا ما سعت راحيل إلى توثيقه في موسيقاها وأشعارها... وهذا ما كان يصنع اكتمالهما ووفاءهما وبهاء منقطع النظير..

تظاهر رؤوف بأنه يبدي استغراباً من مضمون حديث جيهان، وفيما هو يحاول إخفاء شعوره بالتقزّز والإنكار وراء ابتسامة مستعلية، أطرق معقّباً على كلامها ناعتاً إياها بالمثالية والوقوع في أحبولة النّزعة الحسّية التي ترجع إنّية الإنسان إلى الحواس،.. وفيما هو يسرد أسبقية العقل على الحواس مشدّداً على دور العقل في بناء الحلم الاشتراكي، انفلت منه زمام الأمر، وإيقاع صوته يعلو كالمفرقعات المشمئزّة، متحدثاً عن خالد فيما يشبه الغضب، ولعابه يتطاير من فمه المتيبّس.

أعرض عليها كل ما ذكرته، ليقرّر في النهاية أن خالداً تتبعه ضوضاء فارغة وجلبة موهومة. غفل عن ركوب الحداثة وعجز عن إدراك منطق التحوّل وتغيرات العالم. وأنه قد أتعبهم كثيراً في استدراك التاريخ الذي ضيّعوه. فضّل يتبارى وحده في بناء سماء غير السماء التي يريدون... يتنافس مع أوهامه لعبور الممرّات الملغومة والقناطر المفخخة. أفهمه مرات بأنه ليس بأكثر من دون كيشوت يحارب الطواحين الهوائية، ولكنه ظل يكتم حقيقة أوهامه في تأفّفه المستمر ودخان تبغه المحترق.

توقّف رؤوف قليلاً يستردّ أنفاسه، ويرقبها فيما يشبه الاستعطاف، حتّى تقتنع بوجهة نظره وتستفيق من غفوة تمسكها بالمثال الخاص. سألها أن ترى الحياة بعين حية وألا تستكثر على نفسها الانتشاء بمباهجها ألقها، أن تعيش شبابها وتنتصر للأفكار التي تمجّد العالم المتحرّك، وتستجمل انفتاحه المستمر.

لم تتبيّن جيهان، لما كانت غارقة في سيل الاستنكار، كيف انتقل حديثهما من عوالم خالد إلى الانهماك في مناقشة العمل الخيري والإحساني، حيث زعم بأنه منشغل هذه الأيام عن السياسة بإعادة الحياة إلى البيوت التي شرب العوز ماءها وهواءها، بطرد روائح الأسى النابت في جدرانها وسقوفها عن طريق حشد همم المحسنين والأخيار لإيقاد البهجة مثل الفوانيس في البيوت المنسيّة كالسّفائن المهجورة.

تفتّحت عيناها الواسعتان، وهي تحملق في وجهه راضية، تسأل عن أطفال الشّوارع والدّواوير الدابقة بالصبايا الخادمات وبالبغايا، عن الشّيوخ المنطفئين فوق رواصف المدينة، عن الموت الطّويل الذي يكفّن الكرامة، في الزوايا المهملة!

غضّ الطرف غضّاً مكابراً، وهو يلمح بتصنّع إلى أن صنيعه هذا، جاء لنسف دائرة المثال في السّياسة، وتحطيم صنم المناضل السّياسي الذي لا يجيد إلا الحلم والكلام في انقطاع تامّ عن الناس.

انبسط وجهها وكأن زوبعة طائشة ماجت في ذهنها وعروقها تحملها على الاعتراف بهيامها بالعمل الخيري. حين تقترب من هموم الناس، توقد دواخل الدراويش بالمحبّة وتهادي دُرر الوجدان.

أعربت عن تشوّقها إلى التوحّد بنبض النّاس المعذّبين، وهم يلتقطون في كل مساء قلوبهم المنفطرة، المشروخة بين تصدّعات النّهار...

هكذا أرادت أن يكون لها حضور بين النّاس، هؤلاء المنكسرون الذين ورثوا ضياعهم كالقدر. خاطبت رؤوفاً مبتهجة، منتشية بكلامها،

تطنب في حديثها أن الشك الذي راود داخلها قد انحسر، وتبددت كل التوجّسات حياله لمّا كان يحيطها بعناية خاصة قد أثارت استغرابها. لم تعد تخفي رغبتها في الخطو مسرعة وراء رؤوف، وهي تحرث كما تحلم الأرض العنيدة بصخرها وشوكها.

استعجمت في وسط حديثها الخراب الذي ضرب الأحزاب ورموزها، متسائلة عن معنى وجودها ووعيها بدرجة إفلاسها، ما الذي تقدّمه إلى الناس، وهم حيارى في ردهات اليومي، منجذبين إلى أوهام الفزّاعات وسراب البيضات المقيتة...

اعتبرت البلاد بيتاً فارغاً ليست فيه غير الآرائك التي يشغلها الأشباح. نهاره ضوء في كفّ عفريت وليله تواطؤ على إيقاع نقر كؤوس مدوّدة، وامرأة محتالة تبحث أبداً عن الرجل الفحل. هكذا اشتعلت أمام رؤوف، تطلب إليه باندفاع إشراكها نزوله إلى النّاس في المداشر والأحياء والقرى، بأن تكون اليد العاملة في بناء جدار من صرح الإنسانية...

وهي تذوب في تذكّرها، استعذبت أن يكون كيانها الداخلي متشبّعاً بكل قيم الخير والحق والعدل والجمال، لكنها سرعان ما تلبّد وجهها وانقبضت أنفاسها، لمّا تذكرت بأنها كانت تسعى سعياً وراء الشيطان، استهواها ملازمته لها، وهو يرتدي جبة الإحسان يطرق أبواب المنظمات الدولية ورجال الأعمال بوساطة سياسية، يستدرّ أموالاً بملايين الدولارات، لا ينفق منها إلا النزر القليل، ويكنز الباقي في أرصدته المعلومة والمجهولة...

مهر في المتاجرة في نفوس البشر، وهو يروّج لصورة حضوره

كنصف سياسي وكنصف فاعل خير. كيف لم ينتبه النّاس إلى أن هذا الرّجل وحده الشّيطان!

أبدع في صناعة الشرّ على شاكلة موج مسمّم، خدع الزّبد وضوء الشّفق وبراءة الفجر.

هي الآن وقد انقطع حبل تذكرها، تتمزق بألم عميق، لأنها لم تدرك السرّ إلّا بعد فوات الأوان. جمّدت عواطفها، قتلت وعيها بذاتها وبالعالم الذي حولها، لأنّه سرقها من نفسها ومن همّتها، وهو يغمس جذورها في بركة آسنة. أحاطها بكل الأكاذيب والأضاليل، حين طاف بها بين عواصم العالم. أهداها أجود العطور، شيئاً من المجوهرات النّفيسة وأبهى الأثواب، خدعها لما انتحل صفة العاشق للخير والجمال، محبّاً للإنسان في ذاته لا لغيره...

ذات ليلة وهما في حفل عشاء بفندق خمس نجوم في مدينة بون الألمانية، باعتبارهما ضيفين لدى منظّمة دولية داعمة للأعمال الاجتماعية في العالم، ذابت في صخب الألمان، وهم يقرعون كؤوس الوجدان حول مائدة الطعام... انشدّت إلى ألق اللحظة وفورانها المتوهّج. وفي دفْء الثّرثرة وسيل موسيقى أفاض إحساسها بأن الحياة جميلة جداً، ينبغي أن تعاش حتّى آخر دقيقة منها، استسلمت لطلب رؤوف، وهو يدعوها إلى الرّقص استجابة لرغبة الراقصين من المدعوّين والمستضيفين.

نهضت كالحوريّة الطّالعة من سطح البحر، وهي تلبس تنّورة بيضاء موشّاة برسم زهور زعفرانية، كانت تشدّ شعرها الكستاني إلى مؤخرة رأسها لامعاً كخيوط الشّمس.

تقدّمت مبتسمةً راغبة، وهي تستسلم إلى حضن رؤوف الذي

لفّ ذراعه حول كتفيها المكتنزين. وقتئذ شعر باختراق مزلزل يقصف كيانه، أو بشيء يشبه الصّعقة اللذّية الجارفة.

سالت الموسيقى برخاء في جداول الرّغبة، وامتزجت روائحِ اللاوعي بروائح الطلب، فغدا الجسد يرتقي درج الرّعد الشهيّ نشوانَ بالتفافه بالنظير أو بالجسد المقابل. وجدت عينيه، وهو يصوّبهما في وجهها ترشحان بوميض من القبح وتضخّان من المعاني ما يناقض جلال الحواس الرّاقية وبهاء الألفة الدفيئة.. لكنها لا تقدر على أن تتبرّأ من التفاف ذراعيه لها وصدره ملتصق بصدرها، يراقصها، ويهمس في أذنيها بأنها اللّيلة سيّدة المكان... أميرة الحسان...

طأطأت رأسها بتدلّل، وقد أغراها ثناؤه، فاستسلمت إليه بالكامل، وقد حطّ بشفتيه على عنقها يشتمّه بتلذذ، يشتمّ شعرها ووجهها، حتّى انقاد إلى رغبة تحسّس خاصرتها. وبالرغم من إبدائها مقاومة خفيفة، أقنعت نفسها بأن الأمر مجرّد لحظة عابرة، لا غير، تستوجبها طبيعة الرّقص والسّياق...

في ختام السّهرة، وكان رؤوف قد شرب أجود الخمور، طلب إلى مضيفيه أن يتكرّموا بمنحه شرف إلقاء كلمة الختام. افتتح كلامه بشكر السّاهرين على الدّعوة وحفاوتهم وعلى توقيع اتفاقية شراكة، سيكون لها وقع طيب على العلاقة ما بين البلدين. لكنه كان ينوي من وراء هذه الكلمة استرضاء جيهان بذكر اسمها أمام الملأ، مذكّرا أنها كانت وراء ميلاد فعلي لهذه الشراكة، وبأنّها غذته بسموّ روحها وإيمانها الراسخ بقضايا الإنسان في كل العالم، أردف أنه قد استلهم من جمال غمّازتيها وبريق عينيها كل معاني المحبّة ونكران الذات والتوحّد بإصرار في الأكمل والأبهى....

نظر إليها ويده معقودة في يده الأخرى، وهو يوجّه إليها الحديث بكثير من الهدوء:

- أعترف أمام الملأ بأنّك تتسلّقين جدار دمي.

تجعلينني ألهج بأسمائك التي لا يعرفها غيري، لأنّي تعلّمت منك أبجدية الحياة في سماء رحيبة اسمها الشّغف. ألا تنقشين سيدتي في أحد أصابعك كلمة الشّغف أو العشق؟

تعالت تصفيقات الألمان في جوّ من المتعة والضحك، بينما كان البعض يلقي بزهور الطاولات من فوق جيهان، وهم يهتفون باسمها بلكنة ألمانية لطيفة. وقتها شعرت بقشعريرة الحبور تملأ جسدها، وقد احمرّت وجنتاها خجلاً مضيئتان بغمّازتيها المنفرجتين.

في غمرة الهرج والهتاف، أحسّت بأنها وسط كرنفال احتفالي ينظم من أجلها. كل وردة سقطت عليها أنبتت فيها إحساساً بأنها أصبحت سيّدة أخرى، وأن الفضل كلّه لرؤوف الذي ابتنى لها هذه الهمّة التي تشعر بها الآن، أو هذه الفراهة التي تستنشقها بسعادة حتّى النّخاع...

أقنعت نفسها بأن رؤوفاً ليس بالرجل السيئ كما اعتقدت. صحيح أنه يكبرها سنّاً، وليس بجذّاب، ولكنه رجل يستطيع أن ينساب إلى الدّواخل ببطء، يُشغّل فيها مناور الغبطة، مبدّداً الصّخر والرّتابة المقيتة.

ولما حان وقت الانصراف، طلب رؤوف من جيهان أن تحيّي الجميع، ماسكاً يدها في اتجاه الأسنسور المفضي إلى غرف النوم. بعد ثوان فتح الأسنسور، وكان فارغاً إلا منهما، أحسّ بضربات قلبه

تتسارع بجنون مخلوطة بحمّى مرتفعة. مدّ يده إلى وجهها، وفجأة ضمّها بقوة وفمه مرتجفاً في فمها. لم تستطع مقاومته أو لم تبد أية حركة رافضة. بقيت مشدوهة مرتمية في حضنه متأرجحة ما بين رغبتها وامتناعها...

ولما وضع يديه على خصرها، ثم رفع تنّورتها ليجسّ فخذيها استلذّت دفء يده، وهي تحرّك ببطء شفتيها الذائبتين في شفتيه.

توقّف الأسنسور، وهو يقطع هذه اللحظة الفريدة. لكن رؤوفاً عَمَدَ كالثّور الهائج إلى حملها بين ذراعيه، عنوة، متّجهاً إلى غرفته. كان تمنّعها شديداً، وهي تحرّك ساقيها شمالاً وجنوباً.

تحت هجمة الرّغائب المدفونة، وهي تخطف منها وعيها وإدراكها للأشياء، تشابكت الأنفاس وامتزجت التنهّدات على إيقاع نقرات المطر فوق الزجاج الخارجي لنوافذ الغرفة.

مزّق تنّورتها وكل ملابسها الدّاخلية، وكادت أن تنحبس أنفاسه، ويتوقّف قلبه أمام سحر جسد مشعّ يأسر بين ثناياه روحاً متعالية. غام العالم في الأعين وتضبّب الإدراك. وما بين الرّعد والمطر أو الماء، استرخت جيهان عبر شرود عميق وصمت غريب، كأنه صمت الأموات.

حاول رؤوف أن يكلّمها، أن يداعبها... ولكنها أضربت عن الكلام، وهي تلفّ جسدها بإيزار أبيض كما لو أنه كفن لها.

نهضت من حينها متّجهة إلى الحمام تبغي اغتسالاً طويلاً طويلاً... أغلقت من ورائها الباب، حتّى تتمكّن من وهب جسدها إلى الماء تحت رشاشة باكية تنعي نفسها المحترقة....

تشتّت أفكارها وبقيت في ذهول مستمر محاطة بما يشبه النّواح الغريب، أخالته يطلع من كل نتوءات جسدها وثقوبه ومساماته.

شيء يشبه الصّراخ ظلّ بدواخلها، تفرّست كل نقطة في صدرها وبطنها وفخذيها، وفي الشّيء الذي بينهما. تمنّت لو أنه بمقدورها إحراق هذا الجسد وتبديد رماده. رأت وجهها في المرآة التي قبالتها، فصدمت لمرآه لما وجدته خليطاً من العلائم المبعثرة والمشوّهة.

ظلت على هذا الحال يوماً واحداً، لا تكلّم رؤوفاً ولا تشاركه الجلوس أو التنقل. ولما عادت إلى البلاد، انزوت في حجرتها أسبوعاً كاملاً منقطعة عن الناس، رافضة الحديث إلا مع ذاتها في خلوتها المظلمة.

هي الآن تشاهد في الظلّ الذي يقابلها جسدين يخرجان منها، واحد يقتل الآخر، والذي سقط مقتولاً تنهّد وابتسم، وقد خرجت منه كل الذّكريات الجميلة والأحلام المرجوّة... دوداً وتراباً...

هي الآن ترى الجسد القاتل يدرّ شهوات وغرائز يجرّ وراءه التاريخ الخصيب، وحروفاً لقصيدة حول الطين والمطر...

تساءلت عن المسافات، أو كيف تخلق المسافة المتعددة في الذات الواحدة المفتونة بالزيغ... لماذا لا تنجب دواخلنا غير التناقضات والأصوات المتطاحنة؟

تفرّخ خطواتنا دليل الرغبة المغلقة فقط، دون أن نقتنع أن الطريق خطو الآخر أيضاً، ولكنه خطو ملتو وماكر....

أوشكت أن تضرب برأسها على مقود سيارتها، حين تذكّرت أن

رؤوفاً قد حوّلها شطآً لرغبتين فقط؛ رغبة الوصال ورغبة استعمالها جسراً للمرور إلى حلبة الاختلاس المقنّع باسم المجتمع.

تعطّلت كلّ حواسّها، فأوقفت سيارتها. انحبس الهواء في صدرها وأُعتم العالم في عينيها، زفرت عميقاً باحثة عن جرعة تنفس، لكنها لم تجد غير انسداد مقرف يطبق على أنفاسها.

تركت سيارتها غاضبة مهرولة في كل الاتجاهات؛ لكنها لم تجد غير الصّمت يحيط بها والخوف الرّهيب. تهيأ لها أن هناك علامات شيطانية تبرق في الهواء دون لمع أو ضياء...

هي الآن تمسك شعرها بعنف وتجذبه إلى الأعلى بجنون، ترغب في اقتلاعه من عروقه وحرقه. ولما عجزت عن ذلك، لطمت وجهها وصرخت بملء صوتها، ثم التقطت بعض الحجارة لترمي بها في الخواء بعشوائية، لاعنة رؤوفاً والسّاسة وكل الشّعارات والهيئات المنظّمة وغير المنظّمة...

هكذا اشتعلت ذاكرتها أو هكذا صرخت الخطيئة في أدغال خطوها المبعثر، والأفق الملتبس يشرّح أسراب المفاجآت...

* * *

مضى أكثر من أسبوع وصورة راحيل لم تبرح مخيّلة عبد الله، كان يرى نفسه في كل دقيقة يتملّى وجهها، يتحسّس حكاياته، يطبطب بيده المتعبة على كتفيها وصدرها المثقل بالأسرار الدّفينة...

لم يستطع أن يطرد عنه صدى صوتها الذي سكن رأسه وشرايينه، تلمّس في رنّاته وتدفّقه خليط أصوات أخرى، ألفها في

زمن ما، أو كانت صدى لصوته في مرحلة من عمره الذي مضى.

استغرب لهذه المرأة التي انخطفت أمام اللّوحة المعلقة في مخبزته، وهي تلحّ على معرفة صاحبتها. هو الآن يجتهد في مغالبة هجمات هيئتها وصدّ نفاذ شعاع قلبها وانسياب صوتها في دواخله... هي امرأة منحدرة من عمق مجهول. كل شيء حولها يحوّطه الغموض أو الإبهام الذي يحسن الاختفاء والظّهور معاً.

هكذا اعتبر ظهورها المقدّر أمامه امتحاناً طارئاً يؤجّج رغبته في الاكتشاف واختراق دوائر ومسافات، هي جالبة له بالتأكيد الطاقة المحفّزة على مواصلة السّير في درب وحدته المقفر وبرودة لياليه القاتلة...

يجول بيته، مبعثر الخطى في اتجاه مطبخه الصغير لكي يحضّر شاياً، ويملأ آنية بزيت خالصة من عصير الزّيتون، دأب على هذا الحال مستمرئاً عشاءه منذ سنين خلت، منذ أن قدر له أن يعيش وحيداً...رجع موهن القوى إلى غرفة نومه يستمع كما هي عادته إلى غناء الشّيخ العنقا. ضغط على المسجّلة بانخطاف إلى رنّات الأوتار وحكمة الأشعار... تساءل ومسحة ثقيلة من الهمّ تلبس محيّاه:

- هل خلقت يا عبد الله، لتعيش وحيداً تركب التأمّل والشّرود؟

بالله أيّها الشّيخ، هل أنت حقاً في حاجة إلى سير آخر يكون بمذاق ملح الهواء الفاسد؟

كل آت هو تبدّد في هواء فاسد... لا يزكم الأنوف أو ينكر الحواسّ، لا يسمّم الأبدان ويتملّكها، وإنما يبدع أرواحاً مخنثة في أبدان خلاسية تسبح لريح من تراب...!

هو يرى هذا العمر لا يكفّ عن السّير، يسير بقدمين تكتبان بمداد العرق لغة النّهار المختبئ في ضوء الشّمس. لذلك، فالقدمان يخونان وهما يكتبان، لأنهما يخطّان الوهم ويسطّران صوراً من سراب...

أيّ معنى في أن يتوقّف السّير في اللّيل؟ ألأن القدمين قد أتعبهما سير النهار، أم لأنهما قد خشيا انفضاحها تحت ضوء اللّيل الحاجب للقمر!

ليت اللّيل يخرج من غبشه، لكي يفضح ضوء القمر وخداع شمس النّهار!

النّاس لا يسيرون على أقدامهم، وإنما يخطّون بأوهامهم أو بعماهم... وذلك هو شأن التّاريخ.

هناك اعتقاد بأنّ حلقات تسير وتتطور إما أماماً أو خلفاً؛ ولكن الأمر ليس كذلك، لأنّه لا وجود للتاريخ حتّى يخطو أو يتحرك، باعتباره ليس برجل أو بامرأة، ولا يطير، ولم يكن وفيّاً لأحد، إنّه وهم أبدعه المعنى الذي به وجدنا... لا غير. توهّمنا بأننا نتطوّر عبر الحياة والفناء، كما الماضي والحضارات أو كأيّ عبور متلاش في النسيان...

وقفت اللّقمة في حلقه ضاحكاً على نفسه، إذ ظنّ أنه وقع صيد الوسواس. رشف آخر جرعة من كأس الشّاي وقد تبادر إلى ذهنه أن يفتح محفظة قديمة راكم فيها صوراً ووثائق تعود إلى سنين بعيدة... كان يخالها في غاية الأهمية، مثل الكنز المكنون...

وفيما هو يستعرض محتويات حافظته، نطّت من بين الوثائق

صورة لزوجته، وهي تحضنه في المقهى الداخلي لمحطة قطار شمال باريس...

بسطها فوق كفّيه، واتقاء لألم التذكّر أعادها بسرعة إلى مكانها، وهو يعرضِ عن رؤيتها، اكتفى بتفحّص مجلة باريسية من زمن الستينيات، كتب فيها مقالة لما كان طالباً في السّوربون.

كتب عن باميلا بكدي تشرشل، تلك المرأة التي أصبحت أكثر النّساء إثارة للرّجال في القرن العشرين. لم يهمه نهمها المتعطّش إلى المال، وهو يوزّع عليها دون انقطاع من طرف أثرياء العالم، وهم يعلمون أنها تتحيّن أقرباءهم تتحيّن الفرص لإسقاط الأقوياء؛ ولكن شغله أن يكتب عن هؤلاء الرجال الذين يعرفون سلفاً مصير ارتباطهم بها، ومع ذلك يطلّقون زوجاتهم أو يهجروهن، وهم راكعون في محراب غنجها مستسلمين إلى إغرائها المدمّر.

تساءل عن الرجال الأقوياء في الدول العظمى، في إنجلترا وأمريكا وأوروبا، أيّة صورة لهم أو أيّ وضع يغري بالتفرّج، وهم يتداولون على لعق فخذي باميلا. جرّبت أن تضع العالم في سرّتها، وكاد أن ينفجر لولا حسن تخلصها منهم واحداً بعض الآخر. جرّبت أن تحوّل سريرها قبلة لساسة هذه الدّول، وتفتّش بزرقة عينيها في كتل المنع المصطنع، وفي رغبة التاريخ الموقوفة على تمدّد حلمتيها المتورّدتين.

ليس العالم أقل من رغبة، وليس استمراره أقل من لذّة مسافرة أو لذّة عابرة.

لكي نغيّر العالم، علينا أن نهدم الكيان المتوقّف على الرغبة

التي ترى بعمى اللذّة، أو الكيان الرابض على تذوّق العتاب دون إحساس أو دون أيّة معرفة بالعمق الذي لا يطال أبداً...

لم تكن باميلا تستميل الرجال، تشهر فتنتها وتعتقل الطّلب المشرئب من شرنقة التوقّف والوصال، إنما كانت تختبر وصفتها الأنثوية كمادة من خليط كيميائي بإمكانه نخر طلب المسلمات والبداهات... بإمكانه تطويع النتائج المنطقية لسيرورة ما بهدف قلب التاريخ على رأسه أو قفاه...

ضحك عبد الله، وهمّ يتمتم:

- قُلب القفا حقاً، وصار الرأس غير الرأس، لأن باميلا استطاعت أن تؤثر على كل أمريكا، لكي يصبح بيل كلينتون رئيساً، أن تنصّبه في مرقى من مراقي التاريخ الموهوم، وأن تصبح سفيرة لكل أمريكا في باريس...

ليس هناك إذاً أيّة مقارنة تستدعي العجب في أن تنجح باميلا في تطويع رغبة الجسد من اللذة الجنسية إلى رغبة الذات في السيادة السياسية؛ وكأن السياسة والجنس وجهان لعملة واحدة، أو كأنهما اسم على مسمّى...

يومئذ، كان ساسة العرب يتحوّلون بين لندن ونيويورك وواشنطن وباريس، يشتهون روائحها في بقايا الأخبار، يلاحقون مغامراتها، ويصنعون أجمل تماثيل الولاء، لعلها تلتفت إلى أحدهم تهديه ابتسامة فقط.

خُيّل إلى عبد الله اللّحظة، أن كلّ قصور العواصم العربية

وحصون زعمائها السياسيين كان فيها فخذ أو صدر وهمي لباميلا تشرشل، وأنّ مخيال هؤلاء كان مسكوناً بشفتيها المنفرجتين تعزف وشوشات الخلوة وعواصف الفراش...

أصبحت المرأة المتعدّدة المتجدّدة التي تعاضلت فيها الإرادة بالرمزية كالأصوات المتصاديّة ما بين الثابت والمتحول، تجرّ وراءها عربات من الصناديق السوداء والصناديق المكشوفة؛ هي الآن تلبس الزمن المتحوّل، ولا تريد أن تقبل موتها أو الركوب في زوايا النسيان التي تنسجها عناكب الزمن الفائت.

اعترف عبد الله في قرارة نفسه بأنها كانت تجيئه في المنام يوم كان يافعاً، تقبّله وتعرض مفاتن جسدها العاري، راقصة تحت أضواء كثيفة مختلطة الألوان. كان يردّد في حلمه، هل لي أن أمارس السيّاسة، حتّى ألمسها أو أحصل على بقايا ريقها ورحيقها؟

قال في نفسه لما عجز عن الكتابة، بأنه قد فرّ عنه توقّد التطلّع إلى الخوافي واستجلاء الأسرار، منذ أن رحلت عنه زوجته. انطفأ في وحدته، يذبّح بالصمت أغوار المعاني وأشكالها.

ليست الوحدة التي اختارها، هروباً من الآخر أو عزوفاً عن المثول. أرادها محطّة للتأمّل والتفرّج على العالم، لينسلخ بالتدرّج عن جلده التاريخي الذي له حجم الفراغ. فضّل أن يرتبط بالعجين يطوّعه كما يشاء كالتأملات التي يسكنها أو تسكنه...!

لكن الأمر في غاية الاستعصاء، لأن النّار سرقت من العجين طوعه كما الظّاهر الذي يسرق الباطن ويحوّله إلى شيء آخر..

الظّاهر كما الخبز قابل للاستهلاك، لأنّه ليس عجيناً كما الباطن!

كتبت زوجته لما كانت حاملاً بابنته، أن العالم الذي نعيشه فكرة فقط، تحيا بدواخلنا تنسج التّاريخ والأحداث والأعمار، نعتقد جازمين أننا نعيشها في زمان ومكان واقعيين..

العالم موضوع خارج ذاتنا، له حجم ووزن وأبعاد، كما هو حال الطّفلة التي في أحشائها... لكنه كالصّور والأنفاسِ التي تحضر ثم تغيب دون أوبة. قد تتكرر، ولكنها لا تنسخ إلا مروراً لها، تظنّ أنها نائمة ولكنّها ليست إلا لحظة في منام...

الشّيء الوحيد الذي يوثّق مناعتنا ضد الإصابة بوهم الوجود هو الحبّ والتّعايش بالأحاسيس. لهذا كان لحياة عبد الله رفقة زوجته معنى من هذا القبيل، ولما غابت احترقت أحاسيسه وتخطّفه التأمل القاسي الذي أغرقه في عتمات الغربة المكابرة..

رشف بملْء صدره كأس شَايه، وقد أخذه الشوق إلى يد راشيل تحطّ على خدّيه. كانت تلك عادتها، تسأله عن محطّات النّظر التي عبرها، عن أخبار الفلاسفة والكتّاب، وما تبقى من خطو نابليون وأصباغ فانكوك وأغاني فيروز والشّيخ العنقا.

اشتاق إلى راحيل التي كانت تحضّر له فنجان قهوة باريسي المذاق، تضعه فوق طاولة تسيّجها الكتب وتملؤها الأوراق. حنّ إلى سماع صوتها، وهي تقرأ قصائد عن العالم المنهار، عن الأفق المشيّد بالغبار..

آمنت أنّ العالم مكوّن من ألوان معدودة، ومن أشكال محدودة

هي أصل التّكوين الأول؛ لكن الوقت المحمول على الإفشاء والتّطاول والاعتداء أرهب الألوان، فجنّت وسالت من أصولها محلولة الهويّة، فطاشت لتسكن الاختلاط والهجنة والقبح؛ وذلك هو حال الأشكال التي تفجّرت أعصابها من تحت غشائها لتتمدد في الخواء، أو لتتدفق من قانون الوضوح إلى صخب العتمة ورياح الفوضى، فغدت كلّها الآن أنقاضاً نسيت أسماءها، وشكّلت أضلاعها وحركتها...

طلبت إلى عبد الله أن يجتهد في الكتابة حول هذا الموضوع، فكتب مقالة عنوانها 'ليس العالم سوى أنقاض'. ردّد متنهّداً، وهو يتخلّص من التذكّر 'حقّاً ليس العالم سوى أنقاض'.

نظر إلى الأعلى يُحدّث نفسه، يخيّل إلينا أننا نرى ألواناً وضوءاً، نرى أشكالاً ومقاسات، لكنّنا لا نعي أنّنا لا نرى غير الأنقاض، نلاحق الامتدادات المشوّهة، ونسعى إلى القبض على الأحلام المعطّلة.

نحن لا نشعر أننا نعذّب أنفسنا، ونحن نترنّح ما بين جحيمين؛ جحيم الطمأنينة المصابة بلوثة القلق، وجحيم الطموح المتوطّن في نخبة القطيع... في حديقة هذا الطّموح تقتتل الشرايين في الذات الواحدة، تخرج عن مواضعها لتنافس الحق... تبغي قتله؛ تنافس الخير تشقه إلى نصفين، الشيء ونقيضه. وفي ذلك، يفقد الإنسان سلالته ليصبح صوتاً أو شيئاً في مشتل الأنقاض المريعة وأوجاع العالم المنفرط في أفق الخراب...الخراب!

لهذا كله، أقسم أن يبحث عن تلك الأصول، أن يرتب الأشكال والألوان الأولى، أن يحارب الأنقاض ويقف متراساً ضد الخراب.

انتفضت راشيل ضد كلّ الدروس التي تعلّمتها في معهد الفنون

الجميلة في باريس وأمريكا. تنكّرت لشواهدها العليا في الرسم والنحت. اقتنعت بأن دماغها وأحاسيسها محشوان بالوهم وبأنها تتنفس إيديولوجيا اليقين الذي يصيب بالعمى.

لم تنطلق من الشكّ، وإنما انطلقت من القطع مع المعطى. لا تبحث عن اليقين، وإنما لتقف عند نقطة البداية حتّى تسلك الطّريق الذي تختاره هي، وليس الطريق الذي تختاره لها المصادفة... وضعت طفلتها التي لم تكن تتذكّر كيف حملتها وكيف وضعتها. أخرجتها إلى العالم ذات فجر صيفي، وقد ملأ الفرح كيان عبد الله، كان يتأمل زرقة عينيها، وهو يستشفّ فيهما شعاع البراءة المطلقة متناثراً على الأرض كالرذاذ اللامع.أخالها حبّة نور وسط مملكة الظلام المقفرة أو أصلاً من الأصول النقيّة الهاربة...

ألمح إلى راشيل أن البداية التي تبحث عنها هي الآن أمامها، بين يديها تهدهدها وتلاعبها. طلب إليها أن تستجلي الألوان من كل أبعاد جسدها، من عينيها وبشرتها من شعرها وسرّها المختبئ.

بعد امتناع طويل عن الرّسم والكتابة بالألوان والأحجام، قرّرت راشيل أن تعود إلى التشكيل لمّا اعتقدت بأنها عثرت على ألوان التكوين الأول، على الأشكال الأصلية في العالم والإنسان.

هجرت طفلتها وزوجها، وانحشرت في ورشتها منقطعة عن الخارج، تحاور الوجود والعدم معاً. تحارب شغف المعنى وافتتان الجاهز...

في البدء، خافت من يدها ومن أصابعها، من وجدانها المأسور ببقايا المعنى والأحاسيس المتخيّلة. خافت من أن تشكّل شيئاً، من أن

تفجّر ضوء الألوان، فتسمّم ما تبقى من الأفق المحتمي بانطوائه.

بدا لها أن العالم بلون الدم، أو بلون الفجيعة، وأن كل شيء من حواليها قد مات، حتّى طفلتها... حتّى زوجها. خيّل إليها أن المكان الذي تعمره مسكون بزمن مفتّت يتشرد فيه العبث. كل العالم أصبح عبثاً... امتنع الفلاسفة عن الخروج من أكواخهم، ليفلسفوا الإفلاس الوجودي. اكتفوا بالتفرّج من النوافذ والثلج الذي فقد بياضه يتساقط كثيفاً على زجاج الأكواخ.

حتى السّاسة جلسوا القرفصاء إلى الموائد المشرئبّة إلى فتات الطير يحصون كم فتّة يمكن تناهبها، وكم أخرى يجوز التصدّق بها. ضيّعوا كلّ شيء، إلا أختامهم وألسنتهم. سيّسوا العبث واعتبروه حقلاً له أفق جديد تتنافس فيه خيول الريح وعواصف الرغبة في الركوب والوصول. هكذا أحسّت راشيل، حين أقدمت على مناوشة ريشتها وبياض قماش الإطار...

تذكّر عبد الله أنه قد ألحّ عليها في اليوم الثاني على أن تفتح باب ورشتها، لترى شيئاً من النور وتأكل مضغة خبز وترضع ابنتها. ألفاها متعبة مصفرّة الوجه مبيضّة العينين. سقاها كوباً من الماء وألقمها قطعة جبن ونصف تفاحة؛ اندهش أمام لوحة قد انتهت من خلقها. ظنّ ألوانها هجمة أنوار تخترق عينيه لتلتصق بدمه وكينونته، ألوان كالأشكال وأشكال كالألوان. لم يتوقّف فضاؤها عن إحداث الدّوخة والسّكر، كأن فيها رفيف ملائكة يذيب الغشوات عن الوعي المغلوط والصحو المخادع.

وجد نفسه في حوار مع أصوات مرئية لا تتوقف عن عناق الأسئلة الصعبة حول لذاذته، وهي تحدث أمامه ثقوباً يطلّ من خلالها على عالم يهدر بالألغاز، يطلع من بطنه اكتشاف لم يتوصّل إليه إنسان بعد...

خلال سنة كاملة والأسئلة تغرز أنيابها في كل خطوة تخطوها، وفي كل وقفة تقفها للتأمل.

لم تنج إلا ثلاث لوحات. احتفظ بواحدة منها فقط، وجعلها معنى لحياته. رفض الاحتفاظ بها في بيته، لأنّها كانت تجهز عليه في وحدته تلتهم هدوءه وتذهب بعقله.

أما الثانية والثالثة، فقد أحرقتهما في ليلة انتابتها حالة هيستيرية رهيبة. لم يعرف عبد الله لحد الآن السّبب. كل ما تذكره أنه سمعها تصرخ ما بعد منتصف الليل، وكانت منعزلة في ورشتها ترسم... هرع إليها مفزوعاً، وقد وجدها وسط اللهيب الذي سفّ لوحتيها وريشاتها وأصباغها. ألفى الورشة خراباً آخر يلبس رؤية الآتي بألوان محروقة، وهواء ملدوغاً بذرات الحطام المستطيرة.

أخرجها من أحشاء اللّهيب، وقد أكلت النار رجليها ويديها وجزءاً من بطنها وظهرها. وبعد عدّة أشهر بعذابات نهاراتها ومرارة لياليها، كانت راشيل تنزف وتتمطى في ألمها، تفجر الأسئلة حول كينونتها ودلالة وجودها، تحاول أن تتعرّف على نفسها الهاربة دوماً من تحت مناوير الكشف والتحديد...

لم تصدّق بأن جلدها الذي احترق لم يكن إلا ثوباً أو تغطية لشيء من الحقيقة، لأنه احترق وماتت خلاياه. ومع ذلك، فهي تتعذّب وتعضّ على معاناتها بنواجذ الصبر.

تساءلت لو احترق هذا الجسد كلّه وتحول رماداً، هل كانت تشعر بالألم ذاته، أو بالألم مضاعفاً؟ هل ستتأذى الروح بالاحتراق الكامل للجسد؟

كان عبد الله ينتظر إجابتها بالنفي، لكنّه ألفاها تؤكد أن ألم الروح من ألم الجسد، لأن شعورها بالألم نفسه هو شعور بعذاب الروح العميقة...

حاولت أن تبرهن على ذلك، بأن الإحساس بالألم هو الإحساس نفسه بالعافية والسعادة. هو شيء لا يوصف، لأنّه ليست له أبعاد ولا هوية هو إحساس فقط، والأحاسيس من لواحق الروح تنتابنا وتتناوب على مغارات الجسد الذي نسكنه أو الذي يسكننا، لا ندري!

قرّر بأن التفكير والتّشكيل أو الكتابة أو الغناء، أشياء تنطلق من معرفة لحظة الخلوة التي يتعرّى فيها الجسد والرّوح معاً، وهما يمارسان رغبتهما في الوصال.

هي لحظة نادرة، دقيقة أنيقة، لا تلتقطها إلا القلّة القليلة التي تتقفّى آثار الحقيقة بتؤدة وعناية. فهمنا خطأ إشارات المعاني التي راكمتها الإنسانية، فبنينا العالم فوق أعمدة الأساطير، أساطير الانحراف، أو أساطير الخروج عن النّوع الذي ننتمي إليه. أردنا أن نشارك في بناء سافاته، ولكننا هدمنا الأصول وطريق الوصول...

اجتهد في إقناع راشيل بأن تكف عن هذه الأسئلة، عن كل التأمّلات التي تجهدها وتقض مضجعها، لما كانت طريحة الفراش. كان يضع رأسها فوق كتفيه باستمرار، يداعب شعرها الذهبي، ويحطّ

بشفتيه الجافّتين فوق رأسها المحموم، يدندن بخفوت في أذنها أغنية إديث بياف التي تحب:

Non rien de rien, non je ne regrette rien

Ni le bien qu' on m'a fait, ni le mal

Tout ça m'est bien égal.

Non, rien de rien, non, je ne regrette rien

سألته هل جرّب يوماً أن يخرج من ذاته فراراً من الاختناق الذي يسرق أنفاسنا الأولى، فراراً من إجبار الحوارات التي نقيمها عنوة في دواخلنا.

ألم نُفكّر يوماً في التمرّن ضد متاهات اليومي، في نبذ قداسة العرف والاحتفاء بألق النجوم المزورّة من فوق رؤوسنا؟

ألمحت إلى أنها الآن، تسعى إلى ثقب غشاء الكون، لترى أيّ فلك يسبح في العالم الذي هو ليس بعالمنا، أو أيّ سرّ يمتطي فلك العجب والاندهاش..

اجتهدت في الإلحاح على السؤال حول الممكن الذي يقدر على حماية طفلتها، على أن يسقط لبناً من ثدي السّماء التي لم تظلّلنا بعد، عن مكانها وماهيتها!

اعترفت لعبد الله بأنها تشعر بارتكاب خطيئة فادحة، لما أنجبت الطفلة منه. أغواها وهم الامتداد، وهم الأمومة وثمرة صلبها. لكنها نسيت بأنها لم تلد الصورة فقط، وإنما ولدت طعماً تتنافس من حول السيرورات الخاطئة وعشبة الفراغ المتحايلة على الإثمار الحقيقي دون ماء وهواء....

لهذا كلّه، اعترفت مرة أخرى بأنها لا ترغب في مثل هذه الحياة، وأن عليها أن تغيّر وجودها، أن تبتكر عالماً آخر، ليس بعالم الأرض ولا بعالم السماء. هي تسعى إلى العالم المفترض في خيالها وحواسها، تمنّت لو بإمكانها أن تغيّر وجهها ورأسها، يديها ورجليها. أن تغيّر كل شبر في هيئتها وهويتها، حتّى تكون كائناً بحواس الإنسان وقلبه، ولكن ليس بشكله وأحجامه. ردّدت أن هذا الشكل الذي تلبسه هو صورتنا الشوهاء أو علامة على الشرّ والوحشة المجمّلة!

تمنّت لو انتظرت زمناً حتّى تلد طفلتها في الهيئة التي تحلم بها. أمّا وأنها قد اقتفت خطوات العرف وأنجبت كائناً مكروراً وسط زغاريد الاستيهامات، فهذا شيء لن تغفره لنفسها أبداً.

بعد أسبوع من الأسئلة الغريبة،أعرضت راشيل عن الكلام وامتنعت عن الأكل؛ وبينما هي كذلك، اضطر عبد الله إلى الخروج من البيت لإحضار طبيب يفحصها ويساعدها على الخروج من آلام الاكتئاب.

اعتبرت راشيل أن الفرصة قد أصبحت سانحة لها لكسر طوق البيت المظلم الذي يأويها، والخروج بحرّية ودون إجبار أو استعطاف من زوجها الذي كان يثنيها على مغادرته. نهضت من حينها تجرجر حروقها المنهكة، ارتدت سروالاً ومعطفاً جلدياً فقط. وبعدما أخذت ما كان في حوزتها من أوراق نقدية ضئيلة، كانت موضوعة في دولابها، اتّجهت نحو الباب الخارجي متباطئة، لكي تتحاشى الالتفات إلى الخلف وتهزمها نظرات رضيعتها؛ لكنها بمجرد فتح الباب على إيقاع صرير يشبه النواح، حتّى انفجرت طفلتها بصراخ غريب وقع على قلبها

كنداء يتوسّلها بألا يكون خروجها وداعاً أو هجراناً.

وفي لجّة هذا الصراخ، عادت راشيل مندفعة في اتجاهها تحضنها باكية بدموع حرّى. لم تقدر على تركها وراءها، فلفّتها في إيزار كان بجانبها، وهي تحملها تاركة البيت، منجذبة إلى التّيه والمصير الغامض. تخطّت العتبة ملتصقة بطفلتها،وهي تترجل باضطراب. توقفت لحظة، لأنها أحسّت وكأنها تتنفس الرمل أو الحجر، ولا دليل غير هذا الانحباس الذي يجثم على رئتيها.

كيف يحدث أن تصاب بهذا الانهيار، لأنها لم تصغ إلى رنّات المعيش؟

أو لأنها أرهفت السّمع إلى جرح الحقيقة المتورّم في الأحشاء؟

كيف يحدث أن تضيق الأرض من تحتها والسماء من فوقها؟

أن يسرق الإنسان وجهه من حولها؟

إنه الألم الأكبر يخرج منها متمدّداً على وجه العالم، وهو يعود إليها بأكثر من رأس وبأكثر من يد وبأكثر من رجل. أهي لعنة السؤال؟ أم هي فتنة التطهّر من دوامة العادة والتكرار؟

لما رجع عبدالله رفقة الطبيب إلى بيته، ولم يجد زوجته وطفلته، طاش عقله وتضخّمت وساوسه. خرج إلى الشارع باحثاً عنها، تنقّل في كلّ مكان، تردّد على مراكز الشرطة والدّرك، لكن دون جدوى...! فتش الأمكنة المحتملة والمستحيلة لعله يجد وقع قدم لها أو رائحة سقطت من جلدها، فحص عناوين أصدقائها وذويها، سألهم عن رحيلها، عن طفلته.. عن سرّ اختفائها... ناشد أوراقها القديمة وبقاياها أن تركب

الهواء، أن تطير لتدلّه على المكان الذي يأويها عن السّماء التي تغطيها، عن مرقدها عن بكائها وألمها عن مراراتها المكلومة!

مرت سنة واحدة، فقد فيها عبد الله منصب عمله، وهو يستسلم إلى التشرّد المقيت، منتقلاً ما بين بارات باريس، متردّداً كل مساء على محطات القطار، رابضاً على أرصفتها، وهو يعتقد بأنه سيجدها ذات ليلة هائمة على وجهها في إحدى المحطات...

في منتصف يوم من أيام الأربعاء، رنّ الهاتف في بيته وبعد تردّد رفع السماعة، فوجد أخاه يكلمه من مدينة وجدة، ليخبره بأن زوجته الفرنسية قد جاءت رفقة طفلتها إلى بيت والده تسأل عنه...

بقي عبد الله متسمّراً في مكانه مندهشاً لما حدث... ولم يجد أمامه من تفسير، إلا أن راشيل قد أصيبت في عقلها فاقتادتها رغبتها المختلّة واستيهاماتها المرتبكة إلى بيت والديه في بلدته الأصلية التي زارها منذ أربع سنوات خلت.

نهض من حينه مسرعاً، متنقّلاً باضطراب ما بين غرف بيته... أراد أن يحضر حقيبته، لكنه سها عن ذلك، وجد نفسه يتحرك من جديد بين مختلف الزوايا يبحث عن شيء هو لا يعلمه. وبعد هنيهات تذكر أن عليه جمع بعض ملابسه ووضعها في حقيبته، كان وعيه بالكامل مأخوذاً بصورة راشيل وطفلته... أقسم أن يلازمها كالظلّ أبداً، أن يكون لصيقاً بها مدى العمر...

بعد ساعات، حطّت الطائرة بمطار وجدة أنكاد، وكانت الأرض مكسوّة ببياض الثلج الذي لوّن أفقه بنصاعته، بعدما اسودت الدنيا في عينيه منذ أن فقد زوجته وطفلته.

كان في انتظاره وراء ستار من زجاج المطار أخوه الذي هرع إلى استقباله، مرتمياً في حضنه باكياً، لأنّه وجده على غير هيئته التي رآه عليها آخر مرة. لمح الشيب الكثيف قد نبت في مفارق رأسه، ودبّت في كل تفاصيل وجهه وعنقه ويديه تجعّدات ومسحة حزن حوّلت شكله جملة وتفصيلاً.

لم يعبأ كثيراً بأخيه الذي حضنه برعيش المحبّة المطلقة، كانت عيناه مشدودتين إلى كل المنتظرين في جنبات الفضاء الخارجي للمطار، لأنّه اعتقد جازماً خلال رحلته الجوّية أن راشيل ستكون في استقباله. توهّم عناقها على رصيف الانتظار وإيقاع ضمّها له، توهّم عينيها متدفقتين بشرود في عينيه البئيستين. تصوّر دمعها المتدافع من حرّ الشوق يبلّل وجهه، ويحكي قصة جمر الهجران وآلام البعاد. تخيّل شفتيها حمراوتين تفيضان بسواقي الرغبات المتأجّجة. صورها أمامه تذوب كاملة في حضوره الملتهب بلوعة اللقاء...

لكنه لم يجد أمامه إلا قامات وأشكالاً، لا تهمه في شيء، توغل قليلاً وسط بهو المطار محموماً يفتّش في وجوه النّسوة العابرات والواقفات.

تحرك ما بين الفضاءات والأرائك المملوءة والفارغة، لكن راشيل ظلت غائبة. سأل عنها أخاه الذي طأطأ رأسه وامتنع عن الجواب.

ولما ألحّ على السؤال، أخبره بأنها قد اختفت قبل مجيئه بساعات. استمر قائلاً، كانت تفضّل، منذ مجيئها، الصّمت والانزواء في غرفة البيت القديمة. حتّى طفلتها لم تعرها إلّا قليلاً من الاهتمام، فيما كانت الطفلة تلتصق بها كثيراً، وكأنها خائفة من شيء ما، تمرّر

بيدها الصغيرة الحائرة على صدرها تعبيراً بالإشارة إلى حاجتها للرضاعة.

أضاف أخوه أنه قد اكتشف خلال الأيام الأخيرة، بأنها امرأة غير عادية. ليست بالمجنونة ولا بالسوية، وإنما هي امرأة غريبة الأطوار. سألت عن طفولة عبد الله والأماكن التي كان يرتادها، عن مرقده، عن ألعابه، عن أعياده وأحزانه. سألت عن كل آثاره، عن المعاني التي يفترض أن يترك بعض بقاياها هنا أو هناك. كانت تطلب إلى طفلتها ألّا تضحك، ألّا تبكي، ألّا تلعب، ألّا تأكل كثيراً. كانت تلحّ عليها أن تسأل وتقلّب الحروف وترسم.

لقد تغيّر كل شيء في راشيل، هكذا أخبره أخوه، وهو يقارن ما بين زمن لقائه بها منذ أربع سنوات، وما بين اليوم... فقدت قدّها الفارغ ونضارتها الأوروبية وألقها الجميل، فتكت بها نحالة مريعة وصفرة بارزة تحيل إلى لون الموتى.

وقف عبدالله كالنّصب الجامد بنظرات متيبّسة مشدودة إلى الأعلى، وكأنه قد فقد الحركة والحياة. وصل إلى بيت والديه، وقد تحول في عينيه إلى فضاء فاقد للرّوح. وجده مرصّعاً بألوان القتامة والبرودة، ويليق بأن يسكنه النسيان وتحتلّه الوطاويط. ظن أنه الآن، أمام رموز تدل على توقف الحياة، أمام صوت يردّد الماضي فقط، يردّد الصّور التي مرّت بين أسماء ووجوه لم يبق منها إلا الصّدى أو ظلال ناحلة.

خيّل إليه أنّ لا شيء يتكرر غير الغياب. هو البداية والنهاية دائماً، هو الأصل في الوجود وليس في الحضور، لأن الحضور مغالطة تغطي بؤبؤ العين حتّى لا ترى.

فضّل أن يلج غرفة والده؛ ألفاها مستكينة تصغي إلى ذاتها كأوراغون يدَوْزن نغمات التذكّر والحنين. انتابته حالة جذب وجداني تختلط فيها أذكار متصادية الأصوات، يمتزج فيها الخير والشرّ، الحزن والفرح، الصراخ والغناء. حالة جذب مزلزلة ومخيفة أرغمته على الخروج مسرعاً يبحث من جديد على زوجته وطفلته اللتين كانتا هنا قبل ساعات.

قضى اللّيل والنّهار يفتّش عنهما في كل مكان، في كل المواقع والمعابر التي يشتبه في أن تكونا فيها هناك. أخبرته شرطة المطار بأنهما لم يغادرا المدينة. فذهب به خياله إلى أنهما قد عبرتا الحدود مع الجزائر عبر محطة 'زوج أبغال' في اتجاه وهران أو تلمسان...

في كل خطوة كان يترجّلها، كان يرى ريشتها ترسم الضّياع، وتحكي بالأبيض والأسود عن معنى الخواء الذي يعمر الإنسان المتأمّل، أو الإنسان الذي أدرك جوهر الكينونة والماء الذي ليس بالماء! بعد أن أعياه البحث والسؤال، أقفل إلى بيت والديه منهاراً دون أية رغبة أو حماسة في الحياة.

أيّ وجه للكينونة؟ سأل نفسه، وهو يجلس على كرسيّ عتيق كان يقتعده والده باستمرار. لم يستطع أن ينعم بأيّة لحظة استقرار. تنقل ما بين كل غرف البيت وفنائه الهاري. استلقى على كل الفرش التي لم تتغير منذ طفولته.

حاول أن يداري قلقه بتحويل اكتئابه إلى فضاء أحلام وتفاؤلات. فتح نوافذ خواطره وأحاسيسه إلى رياح الماضي البهيّة، إلى تذكّر أزمات الرّجال العظام الذين استمروا في السّير، بالرغم من

جراحهم الغائرة بأقدام حافية على حدّ سيف الوقت القاطع. ومع ذلك، ألحّوا على السّير وقطعوا المشاوير والمسافات.

تمعّن في معنى الحياة نفسها، في أنّ لا أفق مسدود أو مفتوح أبداً، وإنّما هناك مرور خارج عنّا وعن إرادتنا، لأنّه لا يسألنا عن وجهتنا، عن خياراتنا ولا يصغي إلينا بتاتاً!

لم ننتبه يوماً إلى أننا نخطئ السير في طريقنا أكثر من مرة، فنسوّي خطأنا غير المستوعب بضجيج الكلام والحركة، ونحن نمخر عباب الطريق كيفما اتفق!

سِرْ، ولا تتوقف عن السّير. السّير أوّل علامة على الحركة!.

اكتشف أن راشيل كانت محقّة لمّا أعرضت عن الحركة، وطالبت بالتوقّف لمراجعة أقدامنا التّائهة وأيدينا البلهاء، ألهذا كلّما سألها عن الزّمن أجابته:

- أنه سيل رياح مسكوب في جرار مثقوبة!

وبينما هو يغطّ في النوم فجراً، وهو منهك، نعى إليه رجلان من الشرطة رفقة أخيه خبر العثور على زوجته منتحرة، كانت مستندة على ظهر شجرة مرتخية اليدين، بعد أن قطّعت شرياني معصميها، تركت رسالة إلى زوجها، تقول فيها:

'إلى العزيز الشّقي عبد الله

وأخيرا انتهيت من عدّ النجوم الخفيّة، واكتشفت أن الزمن هو الخوف ذاته. كلّما تكرر أو طال، طال الألم وتعمّق، وتقلّصت الحرّية وانحسرت شيئاً فشيئاً.

والآن حقّ لأحلامي أيها العزيز أن تنطلق حرّة تستأثر بالحياة الحقّة.

زوجتك المحبّة راشيل[1].

قرأ الرسالة مفجوعاً، ولما أخبروه بأنهم وجدوا زوجته المنتحرة دون طفلته، تأكد له أن الحزن العنيف قدره المحتوم، وأن سيراً جديداً ينتظره في أدغال الأيام المرّة. كل الآتي، القريب والبعيد، لن يكون إلا حزناً وألماً وفواجع مرصودة...

جهش بالبكاء الذي يفتّت الصّخر، وهو يردد أنّ المأساة هي التي تقود الحياة أو كأن العبودية لسلطة العالم ولاء مطلق للتّعب المذلّ للتمزّق الذي لا يبقي ولا يذر!

سأل المحيطين به من يقدر أن يرتل لراشيل نشيدها، من يقيم جنازتها ويعثر على طفلتها؟ لم يعد للألوان هويّة، لأنها تفجّرت فائضة كاسحة، فصار العالم كلّه ألواناً، ولكنها هجينة ومتسخة! وهيهات هيهات أن يكون لها ضوء أو نضارة!!

الغد يكدّ لبناء زمن يتلعثم، عندما يلهج بمسارات الطريق. لا معنى للّسان المرتدّ في الوقت المنسوخ بالإيقاع ذاته.

أحسّ بأن موت زوجته واختفاء طفلته، شيء على عكس كلّ الأحاسيس؛ هو إحساس استثنائي ليس بالمؤلم ولا بضدّه، ولا بما هو بينهما. هو إحساس بطعم غريب له مذاق السقوط البطيء من منارة منطفئة تعانق غيمة العمق المتلاشي في المدى البعيد...

منذ ذلك الحين، انقلب عبد الله إلى رجل يشبه من يلبس العدم.

أثار الانطواء على نفسه، لا يتحدث إلا قليلاً ولا يعاشر أحداً. يتنقل بين النّاس حاسر الرأس، وقد انطبعت على شفتيه ابتسامة دائمة ساخرة.

اختار أن يسكن بيت والديه. وبقرار مفاجئ، فتح مخبزة أبيه لكي يشتغل فيها خبّازا، وهو يطلّق كل الماضي والتزاماته بباريس، فضّل أن يغرق في تطويع العجين وطهيه، وأن يظل وحيدا لا رفيق له غير سيجارته وفنجان قهوة وقصائد الشيخ العنقا، ثم اللّوحة المتبقّية من لوحات زوجته التي أتى بها إليه أحد أصدقائه من بيته في باريس، بعد أن فسخ عقدة الإيجار...

ظن أنه عاش كل هذا الوقت، لأنّه ربّما يوجد في دواخله خيط استمرار سرّي يربطه بالحياة للعثور على طفلته ورؤيتها أو معرفة مآلها على الأقل.

قام مسرعاً خارج غرفته يضغط على رقبته مكنس الرأس، وكأنه ندم على تذكّر هذا الماضي الثقيل الذي سلب عمره، وزجّ به في ضباب المجهول متسكّعاً بين قوافل التأمل والأسئلة المرتدة إلى الغموض. تنبّه إلى أنه قد نسي معنى الفرح، لأن الخريف قد سكن عروقه. أو لأن عروقه قد جفّت وأصبحت حجراً.

شُبّه له أن ضوء عينيه يجدل في كل لحظة أفقاً تتقلّب فيه الأشياء في مهرجان جثث متحركة، تتدافع بأقدام ملوثة نحو شاطئ في عمر الرّضيع...! وأنه في تنافس مستمر مع السر. كلاهما يسعى إلى هدف مغاير؛ الواحد يسعى إلى إطمار الحقيقة وإخفائها، والآخر يجتهد في بلوغها.

الوجود غامض، لذلك لا يهمه أن يعيش وحيداً، أن يتربّع في

نسيان العالم الذي يتوهم أنه حقيقة بالفعل؛ هو الآن يحاول أن يسأل فقط، لماذا قد جنى التاريخ أوضاعاً مشينة، فنسي أن يمشي أماماً أو خلفاً!؟

كأن العالم أوركسترا أضاعت العزف في مساء طويل ممتد؛ طوراً تناشد أن تلقم ثدي الإلهام المنذر بالوقت الميّت بالتّاريخ المستباح، وطوراً تفتّش عن النّغم الجاهز في طيش النيازك وحكايات المشي نحو موكب السلطان بأقدام الأطفال المبتورة وعجائب الوطن الذي خبا.

ردّد في النهاية:

- ألم نكن تسأل: أيّ من المسلكين أقرب إلى الحقّ؟ أو أيّ من الأنغام والأشعار أقرب إلى الاكتمال؟

كنّا نسأل: أيّ السبل إلى الإنسان الذي نريد؟

كنت أقول: الفلسفة هي الطّريق.

وكانت راشيل تقول: العتمة هي الطريق، لأنها الدّليل إلى الضّوء، أو لأنها الممكن الذي تنزّ جهاته بأغرب المفاجآت. العتمة تحيا في صمت، تلقن سلوك التكتّم. لهذا نظن أنها تغطّي الرّؤية. تحجب القامات الغائمة في العمى.

ظننا هذا دائماً، لهذا فوّضنا أمرنا كالفراشات إلى أكذوبة النار....!

كلّما تعمّق الخلاف بينه وبينها، انقلب في لمح البصر إلى وشاح سحري يمزج دمه ودمها في قلب واحد، كثيراً ما كان ينعشه عبد الله بالحب المتدثر بعجائب التّكوين...

* * *

أخذ ضوء الشّمس ينزل بطيئاً هذا الصباح؛ لكنّ هواءه يتسلّل إلى رئتي راحيل كالغبار. لا مذاق للطّمأنينة، بالرّغم من أن الشمس قد اجتهدت هذا اليوم في أن تقطر دفئاً، وأن يسبح ألقها في عروق الخلائق...

امتنعت عن قراءة جرائد هذا الصباح، وفضلت احتساء مزيد من القهوة. نهضت تسير في كلّ جنبات بيتها عابثة بيديها، تشبكهما تارة خلفاً وتارة أماماً..

وجدت نفسها تردّد وراء الشاعر أدونيس 'بدأت الظلمة تطرد الشّمس، أخذت تتربع على حافة الأفق. على الجدران والأبواب والنوافذ، على أغصان الشّجر والمآذن، على رؤوس المارّة'.

تنبّهت إلى أنها قد نامت هذه الليلة على مخدّة القلق المفزع، هي شبه واثقة من أن ذاتها تنشطر على درج ما تبقى من عمرها، وأن كل منشطر منها يتهيأ لكي يلبس في كل مرة شخصية جديدة، لباساً مختلفاً وعطراً مغايراً...

تألّمت لانحرافها وراء مخيّلتها، وهي تعرضها على كل عتبة عارية إلا من بياضها، تبادل اللّذاذة مع رجال لم يسبق لها أن رأتهم من قبل.

استعصت عليها الكتابة هذا الصباح، وكانت تعتقد مساء البارحة أن اليوم ستتشهّى تحرير فصل من روايتها الجديدة. لم يعد يهمّها أن تكتب الآن، أو أن تنجز برنامجها اليومي الذي دأبت على الالتزام به بصرامة. هي الآن تسعى إلى الخروج من هواجسها، تمسح

عنها ملح الاضطراب الذي يسدّ كل بياضات جسدها... ارتدّت عيناها في تصديق الصورة التي رأت فيها يحيى البارحة، رأتها كالعقد أو السّوار الذي انفرطت حباته الجميلة واحترقت..

فركت عينيها، حين أحسّت أن بين خطواتها تتصاعد أفكار خرقاء تتمطّى على كتف الموج المجنون. تساءلت لماذا قذفت سيول الوصل بيحيى في دائرة الانتهاء المذلّ؟

أهي المدينة مرة أخرى، تأكل براعمها وتشرب ما تبقّى من الأضواء الرّافلة في تفرّدها؟

تحاول أن تصدّق ما ترى، لأنها ترى الزمن يخطو بقدمين ظالمتين!

قالت في نفسها، لماذا يرنّ صوت يحيى مجلجلاً في أذنيها.. يرنّ بأصوات الأمواج المتلاطمة بإيقاع الصعقة التي أردته كائناً مشوهاً...؟

قلّبت كل الافتراضات تقرّت الإمكانات والمستحيلات، كدّت في بحثها عن السّبب؟

كلّا، لا جواب يقنع! لا جواب يساوي ذرة وضوح في سوق الإبهام المنغلق...

كان حريّاً به أن يغادر قفص الحياة، أن يحيا في الموت المشرّف، عوض أن يكون ورقة نرد مدودة على ركح جوقة لا تحسن إلا فنّ الرّؤية العمياء...

في كلّ سؤال وسواس لا يقودك إلى الشكّ فقط، وإنّما يلقي بك إلى رياح الكوابيس لكي تثمر في رأسك شجرة الوجود التي

يتجاذبها الظل والضوء. كلاهما يسعى لأن يكون سيّد الشّجرة، أو كلاهما يمد يده من داخلك، ليمتلك الزمن ويطوع أنفاسه. وأنت في هذا كله تحترق بين أن تكون وبين تأجيل أن لا تكون.

لم يكن من المفيد لك أن تؤجل أن لا تكون، لأنك انهزمت قبلاً وبعت سلاح أجدادك في سوق الغجر الخلاسيين الذين أخافوك أو استفزّوك بروعة عيونهم القاتلة. لذلك، انجذبت توّاً إلى شعاعها لتضيع فيها وتنصهر عظامك، بالرغم من لباسك بزة فولاذية اعتقدت يوماً بأنها حقيقية..

كان عليك حتّى تؤجل أن تكون، أن تتمسك بسلاحك، أن تكرمه بروحك المختبئة في مكان ما من دمك المشتهى في مملكة النور... ألا تنجذب كالفراشة الحمقاء إلى الضوء المصطنع الذي أعتم العالم..

كان عليك أن ترفع من وسط داخلك منارة تتفوّه بالوضوح وتصونك من التسرّع في الانجذاب....

هكذا انخرطت متوترة في الحديث إلى نفسها جهاراً، وهي تنتقل بخفّة الطير ما بين ممرات بيتها الكئيب. لم تشعر بأنها قد انزاحت عن معنى تساؤلها الأول حول وضع يحيى الذي انقلبت حالته جملة وتفصيلاً... انزلقت في حمأة التّفكير الشقيّ والأسئلة الغريبة بكلام غريب. ومن حيث لا تحسّ صرخت:

- ما كان على خالد أن يستبدل وعيه الشقي بنشيد العمياء وكرنفال التهريج الذي تسابق فيه السّاسة والمثقفون والمتكلمون

بشراسة لاقتناء ألمع الأصباغ، والرقص بخصر عار على إيقاع هبة السيّد وزركشات النياشين وعواء الألقاب!

- ما كان على خالد أن يقتلع الوردة من منبتها ليغتال رائحتها وحلمها، ويقايض تاريخها بالجثث المفتونة بالسلطة، وهي تتنفّس برئة المستقبل الفردي!

غطّت وجهها بيدها وهي تبكي بحرقة، تمضغ كلمات مبهمة معجونة بدمعها السّخين، ولما اضطرب الرّيق في حلقها همست إلى نفسها في ودّ وفير، لتقرّ بأنها قد اشتاقت إلى خالد، وبأن صدرها يفيض بالحنين، وأن صدى روحه لازال يتردّد بين الشّغاف وزوايا قلبها المتعب...

فطنت إلى أنّ أحاسيسها الآن، تمزج ما بين صور يحيى المريعة وقد سكنه الجنون، بعدما كان شابّاً متوقّداً بالحياة والجمال، وما بين خالد الزوج الذي عشقته إلى حدّ القداسة والرغبة المطلقة في الحلول الأبديّ فيه.

طرق يحيى باب ذاكرتها، وهي تعتبر أن الماضي لبس معنى حقيقيا للحياة المستمرة، لأنّه ينتسب إلى العابر وينحدر من أصل الفوات.. كان في الماضي وليد صورة خاصة وزمناً قد انتهى. أمّا الآن، فهو وليد صورة مخالفة وزمن غير الزمن؛ فما هي الصورة الحقيقية؟ وما هو الزمن الموضوعي في كلتا الصورتين؟

أيّة هوية لخالد في الماضي الذي كان زوجها؟ وأيّة هوية لديه في وجدانها وخاطرها الآن؟

الماضي وجود من حيث هو ماض، ولكنه عدم من حيث هو حاضر، لأن الأمس ليس هو اليوم. واليوم نفسه تذبذب في الزّمن المستمرّ. الماضي وهم إذاً كما الآتي وهم أيضاً. أما الحياة في مجملها، فليست سوى هلوسة يلجم جموحها التّكرار أو العادة...

كلّ شيء يتكرّر عبر نفي ظاهري؛ فأقمنا فرقاً خاطئاً ما بين الأمس واليوم واعتقدنا أنّنا نتطوّر.

نحن نتسلّق جدار دائرة مغلقة، نتربّع فوق خطأ الحواس والرؤية. ونظن أننا ننساب مع الزمن، نحيا مع حركة الأشياء دون أن ننتبه إلى أننا ضحايا الشكل، أيتام المعنى القابع وراء أستار السرّ، يومئ إلينا الطريق دون أن نراه...

ثمّة قوة تطاردها تجثم على أنفاسها وترغمها على الخروج إلى المدينة القديمة، تتمشّى وتتنفّس هواء غير هواء بيتها، شعرت بأن الهواء في وحدتها يتعذّب، تغسله العتمة المرتخية فوق كفّي الوقت الذي تحياه...

اندفعت إلى الشارع تسير في أيّ اتجاه، تحمل رغبة في المشي الطويل أو السّفر الممتد، في اللامنتهى. شُبّه لها أن لكلّ اتجاه حنجرة يصعد فيها صوت الدليل الذي يروّح على الروح المرهقة... وبينما هي تعبر ممرات المدينة القديمة، استرعى شاب في مقتبل العمر انتباهها، يتعقب خطواتها وهو يتردّد في الحديث إليها. أدارت رأسها في اتجاهه، لتسأله عن سبب ملاحقتها. وجدته ينظر إليها، يتوقّد بكل علامات التطلّع والطموح. وبنبرة جريئة ناداها باسمها. اكتشفت

بسرعة بأنه لطيف ومهذّب، طلبت إليه أن يقترب منها، لتستفسره وتتعرّف عليه.

ولمّا دنا منها مدّ لها يده اليمنى، وهو يخبرها بأنه يعرف تاريخها وهويتها، وكان يأمل في لقائها والإنصات إليها.

تلعثم لأول وهلة، ولمّا تبيّن له بأنها استحسنت الإنصات إليه، انطلق لسانه ليعدد محطّات عمرها برفقة خالد، وبأنها عازفة البيانو الشّهيرة التي ألهبت ألحانها جيلاً غاضباً وخائباً. أخبرها بأنه لا يجازف إن قال لها بأنها ذلك الاستثناء السخيّ الذي يرشح من جلد التاريخ العصيّ، وأنه من الجالسين ببابها الكبير ينتظر انبعاثها مثل الشروق المفاجئ!

أحسّت، لما كانت تنصت إليه كأن الجيل الذي جاء بعدها يحثّها على الاستمرار في العزف لتأليف سيمفونية لعزاء أخير، أو لقطيعة جسورة؛ لكنها لم تستطع أن تخبره بأنها عاجزة، ضائعة تائهة كدخان الحرائق.

رأت نفسها كأنها اللغة المهملة في سراديب التعبير، وأن اللغة نفسها فيما يبدو اليوم، امرأة دون ذاكرة.

فأيّة لغة تستعملها، تعبّر بها وكل الرموز والمفردات والسياقات أضحت لها أشكال الجثث وأشلاء الموتى. لذلك، فهي لم تعزف على البيانو منذ سنين؛ منذ السنة الثانية من انفصالها عن خالد. خلال السنة الأولى عزفت كل الألحان، بكت خالداً بكل لغات البيانو وأسرار الأوتار، بينما كان الأفق يحتضر في حضنها، ينقش على ذراعيها عبارات الشحوب والانطفاء...

أخبرها بأنه تعلّم عزف البيانو وبرع فيه، عشق إلى حد الهيام معزوفتها المعنونة بـــ: 'الخليقة'، وقد عزفها على طريقتها في كل المحافل الموسيقية التي استدعي إليها.

ابتسمت وهي تربّت بيدها اليمنى على كتفه الأيسر، سائلة إياه عن كيفية حفظ هذه المعزوفة التي يتجاوز عمرها عشرين عاماً.

أجابها بأنه لا يدري، ثم سألها مجدّداً: هل القصيدة في هذه الرائعة هي نفسها القصيدة الدينية 'الخليقة' للموسيقار هايدن؟

فلئن كان النبلاء قد كرموه وأجلسوه مرتبة الشرف، عندما استمعوا إليه، فإن جيلاً من الحالمين أو من المحبطين قد خلعوا أحذيتهم، ومشوا حفاة على إيقاع ألحانها، وأنغام التحوّل والكرامة والمحبّة، تنتظم على إيقاعها الساحر.

همس إليها بمسحة حزن لماذا انطفأت 'خليقتها'؟

تنفّست عميقاً تشرح له بأن 'خليقة' هايدن لا تشبه خليقتها، لأن معنى الخليقة لديها هو إنّية الإنسان أو جبلّته؛ أيْ الإنسان بما هو موجود وكما هو موجود؛ لكنّه لا يعرف كيف يوجد أو يكون! الإنسان الذي يعادي إنسانيته، ويعتقد بأنه مكوّن من كيمياء القوة، فيفعل الشرّ ويبتكره، هو بذلك ينكر على الخليقة مهامها التي خلقت من أجلها، يلوّن هويتها وينذر أحلامها إلى العاصفة والطّوفان.

أما لماذا انطفأت 'خليقتها' أجابته حاسرة وبكثير من الانهزام، بأن الممكن قد تعفّن في وسط الطّريق، فالتهمت أعضاؤه بعضها بعضاً، حتّى الأوتار تحوّلت إلى حبال تلفّ عنق الألغام الحالمة.

فتبدّدت الألحان التي انعقدت في حوض التطلّع، سقطت كالطين الميّت الذي فقد لونه ورائحته. طلبت إليه أن يشاركها سيرها وكأنها تريد منه أن يدلّها على الطريق، لأن طرق المدينة كثيرة ومتشعّبة.

أيّ طريق تريد أن تسلكه هي التي كانت من قبل تبغي الاتجاه عبر أيّ زقاق يفضي بها إلى مكان يحيى. بدا لها، وهي تمشي رفقة هذا الشاب كأنها شجرة منهكة تحاذي شفا حفرة هارية.... أيّة امرأة هي الآن، وقد تعبت من أنوثتها وأحاسيسها، خرجت عن دورة الزّمن الذي غطى بغيماته جسد الحقيقة. هل حقاً أن الزمن يخطو فوق رأسه، وهو واثق من الوصول إلى هدفه؟ أو أن الذين قلّبوه قد اجتهدوا في أن تكون الإرادة لهم لا لغيرهم؟

لمحت أن يده اليسرى مقطوعة. وفي لحظة شرود، كانت خلالها منشدة إلى ما تبقّى من يده، أفاقها الشابّ عبر كلمات حادة وهادئة، بأنه قدّم يده قرباناً لمعنى الخليقة التي كانت تشرحه قبل قليل، ولو أنه لم يكن يعرف جيّداً مضمون قصيدتها الخالدة.

أومأ إلى يده المبتورة، ليقرر بأنها كسرت في أمريكا. وهناك قطعت حتّى يبطلوا مشاركته حفلاً تكريمياً لروح فردريك شوبان بفارسوفيا...

بلغة تقطر بالحسرة والألم وبزفرات مختنقة ومتقطعة قال لها؛ إنه أراد أن يجعل من ألحان شوبان حسّاً إنسانياً مشتركاً أو ضميراً كلّياً تنتفي فيه البشاعات، وتنتهي مآسي الإنسان. قال لها: بدا لي وأنا أبحر في عوالم شوبان، مستحضراً هايدن وبيتهوفن، أنّه من الممكن أن نجد فضاء انتساب مختلف إلى رابطة إنسانية جديدة. أن يولد عالم

جديد، عبر الجمال، نطمئن إليه.... عالم كالبيت الواسع الجميل الذي يأوي الضدّ والمختلف والنّقيض...

استمر في حديثه، تصيخ السّمع إليه بانجذاب، بأنه اجتهد في العثور على تلك اللّغة الموسيقية المفقودة أو المتمنعة. بدأ يتهجّى بعض رموزها، مستلهماً ألحانها في 'الخليقة'. لكن حلمه لم يكتمل لما اعتبره أعداء الإنسان صرخة كاشفة لصنائعهم في جنح الظلام. وذات ليل بينما كان الجو يمطر بغزارة باغته أربعة شبان، لما غادر القاعة الخاصة بالتمرين على الموسيقى؛ اثنان من الخلف واثنان من الوراء. أشبعوه ضرباً، وهم يدقّون يده بعصيّ من حديد. هكذا قطّعت يده في الغد على الفور في المشفى المركزي بحجة أنه لم يبق منها شيء حتى ترمّم أو يعاد زرعها.

ردّد وقد اصفرّ وجهه:

- هكذا سرقوا يدي، ولكنهم لم يستطيعوا سرقة وجداني وأحاسيسي تجاه العالم والإنسان!

بتأثر بالغ تعاطفت راحيل مع هذا الشاب الذي زعزع عواطفها، مندهشة لسماع الأحداث التي عايشها. طلبت إليه، بعفوية، أن يحوّلا طريقهما إلى الزّقاق الذي يوجد يسارها، كي تستضيفه ويشاركها شرب قهوتها بالمقهى الذي اعتادت ارتياده آخر كل أسبوع...

في مكان منزو داخل المقهى، جلست إليه حول مائدة مدوّرة ألفت الاختلاء إليها، تقرأ كتاباً أو تكتب شيئاً ما. هي المرة الأولى التي تجالس شخصاً في هذا المكان؛ لكن هويّة هذا الشاب الطالعة من المصادفة قادتها أن تشركه، ومن حيث لا تحتسب، مكاناً عمومياً أحسّت

به لوقت طويل مكاناً خاصّاً بها، أو فضاء حميمياً لا تبيح أن يشاركها فيه أحد إلا مع شخوص من الذاكرة أو شخوص متخيّلة ومفترضة!

كان لوقع حديثه واعترافاته في داخلها أثر المفاتيح التي فتحت أبوابها المغلقة، كي تستعيد شيئاً من الثّقة في أن هناك بصيص أمل في الجيل الصاعد الذي يقدر على عزف موسيقى الأصول في إدراك عمق المشترك الإنساني وابتذاره في حقول العطر العابرة للقارات.

قالت، وهي تبحث عن كلمات تبدأ بها حديثها:

- من تكون أيها العابر الذي مدّ لي يده المقطوعة حيّة، لتعزف على أوتار دمي، تلك الألحان المنطفئة!

ولمّا جاء النادل، نظر إليها بشيء من الاستغراب، وهو يحييها كما هي عادته. أحسّت بأن في نظراته شيئاً من الاستفسار، وكأنه يتطلّع إلى جواب. بادرت إلى القول وبهدوء تام، بأنها وجدت في هذا الشاب بستاناً من المرايا المتلألئة في الذاكرة، أو تحية من أيقونات المعاني الغابرة أو المهاجرة.

انفرجت أسارير وجهها، فطلعت منها ابتسامة متعبة لتقول له:

- لقد نسيت أن أسألك عن اسمك!

كان حديثك بمثابة الموج المتلاحق الذي لا يمهلك استنشاق جرعة هواء، وأنت تخوض غمار السّباحة في المعاني الجميلة!

ما اسمك؟

أجابها: اسمي وليد.

تدخل النادل: هل ترغب سيدي في شرب شيء ما؟

أجابه وليد: قهوة خفيفة.

ذهب النادل دون أن يسأل راحيل، لأنّه يعرف مسبقاً عادتها على شرب قهوة أمريكية في فنجان كبير.

قالت لوليد بأن لقاءها به عن طريق المصادفة، وهو عازف على البيانو، تعتبره فألاً حسناً هذا الصباح. سينير أمامها درباً من الدروب المعتمة. تمنّت لو كانت هذه اللحظة نظيرة لما حدث للفنانة الإيطالية 'أنجليكا كتلاني' لما أهدت بفارسوفيا ساعة ذهبية لشوبان، وهي مذهولة بألحانه. كان يومها في سنّ العاشرة من عمره، وقد نقشت عليها ما يشبه الاعتراف أو التحية بقولها: 'ذكرى وتقدير من السيدة كتلاني إلى فريدرك شوبان في سن العاشرة'. تمنّت أن تكون في موقع كتلاني، ليس لأنّه عازف ماهر على البيانو فقط، ولكن لأنّه يظهر العالم في ألحانه، وكأنه أصل حيّ قابل على الدوام للتكوّن والتجدّد حتّى تبقى قيم الإنسانية وحدها مركز الوجود. هي المعاني نفسها التي وهبت لها راحيل حياتها.

أردفت قائلة، أن تقطع يده من أجل ذلك، فهذا يعني أن وليداً يستحق أكثر مما وهبته أنجليكا لشوبان، لذلك رغبت في أن تجالسه وتحاوره.

بعد لحظة صمت، نظرت إليه بنظرات ثابتة، وبكثير من النضج والمعاناة، أخبرته بأنها ستهديه على طريقة أنجليكا، أغلى شيء تملكه. هذا الشيء الذي بقدر ما أحبته العمر، أصبحت تنفره إلى حدّ الخوف، لأنّه يحمل المتناقضين اللذين جعلا العالم فراغاً والإنسان رقماً من أرقام الخلائق لا غير.

أعلنت أنها ستهديه دمها الذي أصبح صخراً، ستهديه أنفاسها التي جعّدها التحوّل واندحار الأهل والأصحاب، ستهديه إذن البيانو الذي رافقها منذ أن تعلّمت تنفس الحياة الحقيقية. توقفت ثم أجهشت بالبكاء، متمتمة:

- سأهديك أفقاً انطفأ فوق كفّ خالد!

ظلّ وليد يرمقها مندهشاً حائراً، وقد تربّد وجهه بالكآبة والألم، يرى راحيل المرأة الأسطورة التي سمع عنها القصص والحكايات الكثار، التي تنافست مع النغم والأوتار، موجوعة كاليمامة الجريحة!

تملّك العيّ لسانه وخال الكون مرايا تتعرى أمامها كلّ أنواع السّقوط والفواجع. أيّة فاجعة أكثر من يرى عازفة الزمن تبكي، وهي تتخلى عن نبضها وأنفاسها، تهبه البيانو الذي ورثته من جوف العصيان، من قلاع الماء والهواء النّقي، من المطر والطّين الحالمين..

لم يكن يتوقّع أبداً، أن العالم بئيس إلى هذا الحدّ، وأن الإنسان أكذوبة خلف هيئة صمّاء! ليس لأن الوحشة خلفية صامتة لتمسّك هذا الإنسان بالحياة، ولكن لأن الفارغ هو الحضن الذي انعقد فيه، وهو جنين.

إنّه الفراغ المتوّج بالوحشية في مسارات الوجود، وليست خطواته الفائتة إلا كدساً من النّفايات التي سمّيت بالتاريخ.

لماذا الإنسان في وجدة أو في الرباط، في دمشق أو في القاهرة، في نيويورك أو في باريس، يخطو منتشياً فوق أحاسيسه يحضن فرديته ويضاجعها من الوراء. ولماذا لا يعلم بعد بأنها حبلت بالأوقات

الميّتة، وبأكياس بلاستيكية لها هوية الزّمن المزفّت نشربه في كل حين كفنجان قهوة في كل صباح.

تساءل مجدّداً:

- لماذا يبدو الفرد هنا وهناك، كالنّوتة النّشاز المكررة أمام أوركسترا ما ملكت يداه! ألأنّه خلق كذلك، لما كانت هناك موسيقى فقط؟ لمّا أبدع البيانو والقانون وتألقت الألحان!؟

لهذا فالفرد أحد اثنين: إنسان بالطبيعة وبالموسيقى، أو هيكل، ركام، ممّا تبقى من إنسانيّته!

ولما أصبح البيانو أثاثاً أو قطعة للتّزيين، تناسلت الهياكل، وبحّ الكناري، وانتحرت الأوتار!

عمّ الفراغ، وأصبح الخواء يقود الحياة ويحكم العالم.

هكذا اعتبر أن راحيل صدقت بما نطقت.

قاطعت تأمّلاته، وهي تسأله عن رأيه حول هديّتها. شعر من كلامها أن كائناً يرتدي بزّة عسكرية، يصوب نحوه من خلالها سهماً فاتحاً فمه، وهو يبتلع اللّحن المتخفّي في عمقها، أو سرّ استمرار الحياة التي وهبها يده وأنامله الحالمة.

لم يعبأ بإلحاحها على الجواب، وهو يغرق تحت سيل مجارير الأسئلة المشتعلة!

هل راحيل التي كان يظنّها آخر القلاع الحارسة للعالم، هي الآن تهوي وتتشظّى كالنّقع المثار؟ أم تراه قد أخطأ في الظنّ والتقدير!

من سيحرس ما تبقى من الأشياء الجميلة، يعجن الخير لتعود الآدمية إلى منبعها الصافي؟

ما هي الهيئة التي سيكون عليها العالم لو أخرس البيانو، وقطعت أيادي العازفين؟

تصاعد صوت وليد، في زفرات وتمتمات، حتّى أصبح واضحاً جهوراً.

خاطبها بنبرة الواثق:

- أرفض هديّتك سيدتي، لأنك تهبين لي جمراً لا سلطان لي عليه؟

فمن أين تجيئني القوة على حمل أو احتضان تاريخ نازف؟ سَينْتُنُ في زوايا بيتي وفي دمي وسأورق بالجثث. تتلبّس الشّوارع الجماجم الشامتة، ويتعكّز النشء عظام الموتى المنخورة. يومئذ، تتدحرج الحياة مقطوعة الرأس على منحيات القبح!

عجبت راحيل لكلام وليد الذي يصغرها بأكثر من جيلين، ليس لأنّه عازف مائز، ولكن لأنها اكتشفت فيه ذلك الضوء النّادر الذي أخالت أن بقاياه قد انعدمت مع سقوط خالد وطلاقها منه.

عجبت لكون هذا الجيل الذي عجن بخطواته المرتبكة هويته، وزيّن محياه بلون الليل، يدسّ بين جوانحه حبّة ضوء موقدة.

تساءلت كيف الحفر في عمق الرماد والنّبش في عمق طبقات التاريخ المحروقة؟ هل ننجح في القبض على جذوة راسية في الداخل تكافح وحدها ضد قهر الانطفاء المفروض؟

ماذا لو نجحنا في إنقاذ تلك الجذوة وبعثها من جديد؟ هل تتّقد وتتوهّج وارفة كالأشجار المثمرة؟

تذكرت أن الماضي لن يتكرر! ولكنها تذكرت أيضاً أن روحه متكررة حاضرة فينا كالتنفس...

إننا نتنفّس آباءنا وأجدادنا... نتنفّس أخطاءنا وخيباتنا...كما قد نتنفّس شيئاً من نجاحاتنا! أيّ سبيل لنوقف تنفسنا، لنحصيه ونعدّد ذبذباته ودقائقه، حتّى نميز بين إيقاعاته ونقبض على الشيء الجميل فيه، عن نجاحاتنا المطورة في ذاكرتنا وخلايانا المركزيّة.

لم تكن تلك النّجاحات إلا ذلك الإنسان الذي نما في الشّعر والفلسفة؛ أو ذلك الإنسان الذي صعد على سلّم التّاريخ فبلغ أعلى المراتب. هناك، حين عزف وشدا فانحنت الأحداث والنوايا نشوى وطروبة...

استفاقت من انغمارها في التأمّل، لتقرّ مصوّبة عينيها في اتجاه وليد:

- لا ثقة في الآتي، لأنّه لن يكون له إنسانه!

كنت قد رأيت الإنسان يتعانق فيه الشيء وضده، والضدّ وضدّه في نغمة واحدة، لا تفارق تكوّر الشمس والقمر ولا تبرح الحواس في تقلبها!

كنت قد رأيت الروح الواحدة تجدل من صلبها جسدين في ضفيرة موحّدة زاهية على كتفي الوجود. كنت أرى الحلم يتزلج دامي القدمين واثق الحركة فوق أيام تتنفس اللّهب والرّصاص. ومع ذلك،

كان يتزلّج ويترنح على أنغام منبعثة من الآتي:

كنت أرى، وقد رأيت ما يُرى وما لا يُرى!

أما الآن، فإني لا أرى...لا أرى...

أحياناً يبدو لها أن رأسها لم يعد قادراً على حمل عينيها، وأنهما يهاجران إلى أخمص قدميها تناوشهما، حتّى تضيّع الطريق نهائياً. ترى أن يديها لا تنقطعان عن الاحتجاج، لأنّه ليس عدلاً أن تصل عيناها إلى رجليها، فيما تمتنع أذناها عن الاستقرار في يدها حتّى لا يعود السمع إليهما، مادام رأسها قد لفظهما، وحتى لا تعود إليها مهارة العزف وصناعة القصيد.

غالباً ما تكون شبه متأكدة أنها ميّتة، تواجه في كل حين جسداً لها دون روح. لم تهجرها الرّوح وحدها، بل أنكرتها حواسّها التي كانت تذرف من خلالها دمعاً على صورة ضوء القناديل.

حتى الضّوء لم تعد تراه، بالرغم من أن عينيها سليمتان.الشّمس نفسها بدّلت شعاعها أو التهمته لتتقيأ ما يشبه الضوء فقط، حتّى تقنع العالم بأنها الشّمس ذاتها، وأن الكون سليم ينتشي لاستمراره.

تجزم أن العالم نذر خلوده إلى تمتمات اللّامعنى، وإلى زفرات الخواء الذي يؤاخي العبث. فطن وليد إلى أن عيني راحيل قد جحظتا فجأة، وأن صفرة غازية توطّنت في وجهها، لبست عنقها ويديها. حاولت أن تلتقط كوب ماء من فوق الطاولة. لكن رجفة خاطفة تخلّلت حركاتها، فأسقطت الكوب أرضاً، لما استسلمت لسعال متواتر أضاق تنفّسها.

قام وليد من مقعده يبغي إسعافها، وهو مرتبك مذهول يمسك بذراعيها، فيما كانت تحاول أن تستوي على كرسي، كي تطرد الوهن الذي ألمّ بها.

باندفاع نفس مزفور هزّ شفتيها، أخبرته بأنها مجرّد وعكة عابرة قد اعتادت على زيارتها، كلّما انشغلت عن أخذ دوائها بالتفكير أو تدبير أمورها اليومية.

قالت إنها على إثر كل وعكة تغمض عينيها لتمتدّ المتعة السرّية ما وراء العالم، ولترى نفسها تفتح ذراعيها مشرعتين للأحلام التي تعطلت، أو الكلام الذي تنازلت عن معناه، والذي لم يكن إلّا إطلاقة صفارة في الهواء. رددت أنها كلما أغمضت عينيها، أحسّت بأن الموت يغريها، يجرّها من يديها طالباً إليها تملّي طلعة وجود حقيقي لا تبصر فيه سوى سرب يمام يزيّن بمنقاره وجه العالم المشتهى. يتحرّك السّرب في اتجاهها، طالباً إليها أن تسمع دبيب موسيقى تتخلّلها دندنة أمواج غافية.

ما أحلى النوم العميق خلف أسوار العالم الذي ليس بعالمنا، في جوف الضّباب الذي يشبه التراب الغامض، فهناك تنبعث الأنغام الحقيقية والقصيد الصافي.

فهم وليد أن راحيل مريضة، فقفزت في عينيه بارقة حزن عميق.

وضع يده اليمنى تائهة فوق ما تبقى من يده المقطوعة، وكأنه يتحسّس ألماً يسري في دمه ويسكن العظم.

هناك لغة تتململ في داخله، تتمطّى في عروقه، ولكنها لم

تستطع أن تتحوّل كلاماً منطوقاً مفهوماً. كأن هذه اللغة تريد أن تنهض من إبهامها، أن تحارب خدعة التكتّم أو التستّر وراء العجز. لكن وليداً ظل متأكداً أن هذه اللغة ليست مجرد فضاء تتطاير فيه الفواجع التي لم تعبّر عنها بعد، أو التي لم تفضض أختام تجلّياتها المرتقبة.

عجز أن يصارح راحيل عن ماهية هذه اللغة التي تطارده، عن أحاسيسه التي تنافس متاهات حزن أكثر اتّساماً من كل دوائر التعبير التي رسمها الإنسان.

قال لها وفي صوته شيء من البكاء. إنه لا حقّ لها في التعب، لأنها خلقت للحياة كالنطفة التي تستطلع طريق الاستمرار المنفتح... لا يليق بها أن تلبس صفرة الخريف القاسي، وعليها أن تكون كمثل رجلين لم يرهقهما السّير الطّويل...

قاطعته يائسة، أن المرض يحفر في الروح حفرة النّفايات، يحتجز الحيوية ويطفئ الدّم المشتعل... يجعل إحساسك بالأشياء كأنه تجلٍّ لقتامة مطبقة بروائح رمادها النديّ الخانق للأنفاس.

ليس لأن المرض إشارة إلى الموت، ولكنه يسبّب الوحدة أو هي التي تسبّبه... لا تدري.

الوحدة هي المرض، أو المرض هو الوحدة؛ كلاهما سيان!

تذكّرت أنها قد خرجت هذا الصباح، لكي تحفر في التأمل طريقاً نحو الكشف عن بعض السرّ الذي يحتويه التحوّل وتقلّب الأحوال. أصبحت صورة يحيى الآن، تتمدّد داخل رأسها، تلح عليها للقيام... وتخطّي تخوم الحديث عن الموسيقى. قاطعت وليداً، وهو

يحدّثها عن زوايا العالم التي تحتضن الأنغام المكبلة والأشواق المكسورة..

طلبت إليه مرافقتها، ليقتسم معها التأمل المسقوف بالخوف والكوابيس في فضاء حضور ناطق اسمه يحيى..

لبّى وليد طلبها بشغف، وهو محمول على الفضول للتّعرف على سرّ هذه الشخصية الغامضة التي وقفت عليها راحيل، والتي ارتسمت ملامحها بسريالية عجيبة!

وبينما هما يسيران في اتجاه الباب الكبير الذي يفضي إلى المدينة القديمة، سألها وليد إن كان خالد يعرف شيئاً عن يحيى، فأجابته دون تردّد بأن يحيى قد انمحى من ذاكرتها منذ أن انتهت السنة الدّراسية التي كانت تجمعهما، ولم يترك فيها أيّ أثر يحملها على تذكره أو الحديث عنه. ولكنها استدركت لتقول: إن لكل لقاء أثراً. قد يكون الأثر إما عرضياً أو داخلياً، ولكنه يبقى حادثاً يتربع في الوعي واللاوعي، ينتظر في كل دقيقة أن يظهر، لأنّ له شفرته وسياقه يحكمان انفجاره!

ألقت بيدها اليمنى على جبهتها، وكأنّها تبحث عن فكرة ما، فاسترسلت في الحديث، وهي تؤكّد على أن يحيى قد قفز إلى وعيها هذه الأيام، بعدما التقت به عن طريق المصادفة.

لم تخف شعورها، حين أخبرته بأنّها ترى المدينة في هذه اللحظة، كبستان يسكنه الخراب، أو كشارع عربي جميل حلّ به الدّمار. سارعت إلى القول بأنه ليست لها أيّة نيّة في الشّغب وزرع النظرة القاتمة بتسويد الصور والهيئات. إنها تصف مساحات الجمال

التي تحرق دقيقة بعد دقيقة، تهجّر أتربتها وماءها إلى فضاء يحكمه رجل ذميم ينبت في يديه الشوك ويعلو وجهه الصّديد.

لم يعد للحرّية أيّ معنى، أيّ مذاق؛ لأننا لا نقدر على التذاذها ونحن مسكونون بالقول والاكتئاب حتّى النّخاع.

إمعاناً في كلّ الأشياء التي تتحوّل من حواليها، وما أقبحها وما أشقّ بشاعتها، أصبحت متأكدة أن العالم قد فقد وجهه، وغدا له قلب مشوّه لا يحيا إلا بالقبح!

أفهمته أن تأملها في تحوّل الأشياء واندحار الصّور والمعاني الجميلة، هو الذي قذف بيحيى في دواخلها ليخرجه من النسيان إلى التذكر، وكأنه شهقة طالعة من حسيس القلق والخوف اللذين لا ينتهيان.

ألحّت عليه أن يلح الخطى، لأنها أعدت ليلة البارحة طريقة لمحاورته واستمالته إلى البوح والتعرّف عليها. وبينما هما يمضيان، أخبرت وليداً بأنها لا تطمح إلى معرفة الحقيقة؛ ولكن إلى معرفة الطريق الموصل إليها، بالرغم من أنها اكتشفت طرقاً كثيرة. فقد تعبت من السّير، لأن كثرة السّير على الطريق نفسه أدمت قدميها وأضعفت قلبها الذي لم يعد قادراً على تحمل المزيد من الإرهاق والصبر.

لما بلغت المكان الذي كان فيه يحيى البارحة، وجدته فارغاً إلّا من بعض أشيائه كأكياس ورقية نتنة وقنّينة ماء بلاستيكية مهترئة ولحاف من الكارتون. سألت عنه بائع خضر متجوّل لم يكن بعيداً عن المكان، فأجابها بأن ذلك الرجل 'البوهالي' قد فارق الحياة البارحة ليلاً، ودفن اليوم بعد صلاة الظهر.

لقد أراح واستراح، هكذا خاطبها، وهو يصرف النظر عنها، صائحاً في النّاس بصوت مرتفع متعب لكي يبتاعوا منه فاكهته الشهية.

وقفت راحيل متسمّرة في مكانها داهشة شاردة، وقد ظنها وليد قد أصيبت بالسكتة الدماغية والانقطاع عن الوجود تماماً.

حاول أن يكلّمها، أن يوقظها وهو يهزّ كتفيها بلطف؛ ولكنها أصرّت على الغياب أو التّعالي عن كل محسوسات اللّحظة.

تأمّل دمعها المدرار المتدافع من عينين مشدودتين إلى الأفق بثبات، وكأنها قطعة من صنم جامد؛ فهم أن الخبر قد وقع على قلبها كالخنجر المسموم، وأنّ لاوعيها أصبح مغلولاً داخل صدفة الغيبوبة. وفيما هو يفكر في فك طوق غيبوبتها، وضعت يدها على صدرها، وكأنّها تبغي إخفاء ضيق قد أطبق عليها. تنهّدت بعمق لتضع فجأة وجهها بين يديها، وهي تستسلم لبكاء مخنوق وحسرة أليمة.

كأن الانسحاب يفرّخ معانيه فوق ما تبقّى من الصّور، وكأن العالم يصنع من أنقاضه المتعاظمة عكاكيز يتوكّأ عليها الشرّ والقبح والموت. أيّ قبح أكثر من تحوّل الوقت إلى مشتل إنكار لصوت هتف بالحياة والتظلّل تحت شجرة الطّمأنينة والكرامة.

هو القلق! هذا القلق يندفع كالخيول الهائمة يدوس بحوافر نارية الحناجر الشّادية والمبتهلة، يحرق كل أسماء الحياة، ويزرع الجراح التي لا تشفى.

جرّد يحيى من صوته ومعناه، وانتهى ميتاً في زاوية تشبه القمامة، وما من أحد يستطيع أن يحسّ به كمثل الوقت الذي فات أو التوتّر الذي مات.

حاول وليد أن يهدّئ من روعها وأن يخفف عنها ألم الصدمة، فذكّرها بأن العالم ليس له إلا معنى واحد: معنى النهايات التي تتجدّد في الحياة. كل حياة موت، وكل موت حياة، بينما نحن دلائل وإشارات تمثل هذا المعنى.

تعكّزت يده اليمنى، لتعود من حيث أتت متعبة، وهي تردد: ليس للمستقبل غير العناء، لذلك سأصفح عنك أيّها الوقت المعتدي.

* * *

عشية وصوله إلى بيته بعد غياب دام ثلاثة أيّام، انتابت خالد رغبة جارفة في الاغتسال بالماء السّاخن... ساخن جداً تقريباً... أحسّ بأنّه يرغب في الفرار من ملابسه، من جلده... من كلّ ما يكسو عظامه ولحمه... هو الآن يستنفر شطح الجذّابين، يواكب رغبته وحركاته، يتمتم نشوانَ في الاستسلام إلى البخار الحاجب للرؤية... إلى الماء السّاخن الذي يهدر من ينابيع التغييب والإبعاد... لم يبق أيّ معنى للحس المباشر أو اللّذة الحادثة في حالة الوعي... أحسّ بأنه بدأ يسخر من كلّ اللّذائذ الواعية، لأنّه سئم من اللهاث وراءها أو بمباشرتها... تذكّر أنه كان دائماً يقول بعد بلوغها، وبعد؟ لأنّه كلما تكررت، أو تكرر انقضاؤها تعمّقت حيرته وضحك من داخله السرّي... تذكّر أنه قد ظن يومها أنّ للذة وقتاً وتاريخاً ووطناً. شبهها بالكوكب العجيب الذي يتكون من الأجوبة السريعة أو من الإرادات التافهة، لأنّه خشي أن يشبهها بكوكب المعتوهين الذين قذفوا بأنفسهم في الدّمن اعتقاداً منهم بأنها خضرة وبساتين.

وفيما هو يتهيأ لولوج الحمام محاصراً بالأسئلة، استحضر أن راحيل قد تباحثت معه يوماً معاني المنفى والهروب، فاعتبرت أن الإنسان العام والعالم المتعاظم قد كبرا عبر التاريخ، أو شاخا في منفى سحيق لم يمكّنهما أبداً من إنماء الإنسانية التي يجب أن تكون.

لم يكن ذلك المنفى إلا الوقوع المتكرّر أو الانجذاب المستنسخ نحو أوهام اللذّة الحسيّة، لذلك كان الإنسان دوماً هارباً بأرجل متعددة كما كان العالم متضعضعاً متوتراً باستمرار.

مأساة الإنسان أنه يتطوّر في اتّجاه خاطئ، يصنع عالماً هشّاً، ثم يحاور المحبّة والخير بلسان مشوّه.

تذكّر راحيل، وبدت له الدنيا كالطّلسم الذي يحجب عن السائل أو المستفسر أيّ جواب أو معلومة. ولج الحمّام عارياً، وهو يخطو بحذر خشية الانزلاق فوق الأرض المندّاة من هواء البخار الذي يغشاه. قبل نصف ساعة شغّل آلة التّسخين، وفي غمرة البخار الذي يشبه الضّباب، عمد خالد إلى التأمل في جنبات المكان وثناياه. وجد الزلّيج الذي يفترش الأرض قد أُخفي لونه الأرجواني، فيما كان حوض الماء المزين برخام أسود فاتح، قد انحجب عن الرؤية تماماً، ولولا خرير الماء المتدفق من الحنفية التي تتوسطه لصعب تبيّنه وبلوغه.

انشغل أكثر بالمرآة التي تتصدّره، حاول الترجّل صوبها بصعوبة، فيما كانت تقبع في تخفّيها تحت ذرّات البخار وقد سفّتها سفّاً.

استطاع من خلال العادة أن يتبيّن مكانها وقد طبطب على الجدار في أكثر من جهة. همّ إلى مسحها بكفّيه من كل جوانبها، لكي تنكشف صورته أمامها عارياً كما ولدته أمّه. وفي لمحة البصر تبادر

إلى ذهنه أن التذكّر طريق إلى افتضاض بكارة النسيان، أو هو الأثر الذي يبثّ الحياة بقايا التاريخ...

تأمّل جسده في المرآة، فبدا له شخصاً غيره، أو شبحاً عجوزاً يسكنه الترهّل والانكماش. هل يحتاج المرء إلى أن يرى جسده عارياً في المرآة، حتّى يكتشف أنه عجوز حقّاً؟

لم يكن يعتقد قبل قليل بأنه على هذه الصّورة. كان يتحسّس ما بين الفينة والأخرى صدره وبطنه وفخذيه وأردافه، ولم يكتشف أبداً ما ترويه عنه المرآة الآن.

هل المرآة خادعة؟

فرك عينيه، وهو يتأمّلها مجدّداً: أتراني متوهّماً؟

حاول أن يقف معتدلاً، وهو يحبس أنفاسه حتّى يبرز صدره منتفخاً. اقترب أكثر، لكنه وجد عينيه تتردد في تصديق صورته التي ألفاها هيكلاً آدمياً مطعّماً بطبقات مموجة من اللّحم والشّحم اللّذيْن انتهت مدة صلاحيتهما.

غزا جيل جديد من الأسئلة رأسه، جيل ممزوج من الشك والخوف من العيش ذاته، أو من ذاته نفسها. بدأ يدرك أن جسده المرهّل العاري يتصاعد من جواب واحد فقط، أو من إشارة مختصرة جدّاً هو الإحساس نفسه يفاجئه بغتة؛ أيْ أنّه أصبح من العابرين لشارع ضيّق من شوارع التّاريخ المتشعّبة. عابر مجبر على أن يمارس الخطو عارياً تاركاً وراءه ملابسه وخبزه ولذّاته.

سمح لعينيه أن تسبحا في فضاء الحمام المثقل بالبخار. اعتقد،

لحظة، بأنه يتهاوى في فجّ عميق مضبّب. كاد أن يصرخ، لكنه تمالك نفسه متحرّكاً في اتجاه رشاشة ماء مرتفعة، استقر تحتها يهب جسده لمائها الساخن.

تمنّى لو كان الماء جلده، أن يتشكّل جسده من جديد، ينحته بدقة حتّى ينافس الحياة المنسابة أو العنفوان المستمر.

ما أجمل المكوث تحت الماء، لولاه لتيبّس كل شيء. في غيابه تنتن الأجساد وتعظم الرّوائح القاتلة. انساق إلى تأملاته، ليستخلص بأنه لا فرق ما بين جسد مترهّل شائخ وجسد آخر مفتول مصقول؛ لأنهما معاً في درجة واحدة من القبح والكراهة.

تبادر إلى ذهنه أنه قادر أن يغلب الزّمن بالتوحّد بالماء، أن يصلب الحركة وأن يكون هو عينه التدفق والجريان، غير أنه تذكر أثناء مواجهته لهجمة البخار، أن الماء نفسه ذائق الموت ومتحول بدوره إلى جثّة، إما على شكل بخار أو ضباب. لذلك، غادر موقعه من تحت الرشّاشة متّجهاً إلى 'فوطة' معلّقة على صدر الباب، وهو يقول: أما معنى العبور والزّوال، فهو الدائم المطلق؟.

اجتاحته رغبة الخروج إلى بهو شقّته وفتح ثلّاجته لشرب جعّة باردة. أراد أن يستلقي فوق المطرح المحشو بالقطن المغلّف بجلد ناعم.

الجعّة الأولى هي منطلق السُكْر وتنويم للقلق بالانقطاع عن عنف الصّحو وقسوته المريعة، تلك هي قناعته التي تلحّ عليه الآن.

كانت راحيل تتحمّس لأفكار خالد، كلما اعتبر أن سرّ التّكوين

والإبداع هو الغيبوبة أو ما يدخل في معاني السّكر. كل شيء خارق ومعجز، هو حادث في زمن منفرد. يتخاصم فيه العقل والنّفس. يتعقّب بعضهما البعض، الواحد يطارد الآخر، وكلاهما لا يترك الآخر أن يغيب أو يختفي. وأخيراً، ينتفيان أو يذوب الواحد في أحدهما، وهما يتحوّلان إلى كيمياء روحية مذهلة تسمو في الغيبوبة مجرّدة من كلّ الحواسّ.

هناك سفر خارج الجسد، خارج قارات اللّذة، سفر يسوّي الرّوح المستعصية عن التفسير في جهة من جهات التّكوين أو الخلق، لأنّها تؤاخي في سرّيتها سرّية العالم الذي لا يُفهم.

ضحك حين تذكّر راحيل، لمّا كانت تغني، وهي تعزف على البيانو مردّدة:

- ما أبشع العالم وهو يلتهم الأوتار
لولا الحلم السّابح في مركبة الإيمان
لما تهطّل المطر وأخصب المزار

ازداد ألمه لمّا غار في التذكّر، وثقل المرض يجثم عليه. اعتبر التذكّر تكراراً مقيتاً، دوراناً دونكيشوتياً في وقت ميّت. لهذا قرر أن يخطّط للقطع معه، أن يتصالح مع ذاته كما هي الآن.

زفر عميقاً ثم قال: الإنسان يبرمج موته السّابق لأوانه، لمّا لا ينتبه إلى مباهج الحياة. رفض التّفلسف وطرد من رأسه التأمل. قفز من موقعه تاركاً الفوطة تسقط منه وفي يده جعة، صارخاً: حتّى لا يزيد التذكّر من وجعنا، علينا اقتلاع الأشجار الميّتة من قلوبنا وزرع أقدام

راقصة، تداعب الفرح على إيقاع جمال الحياة وبهائها.

فجأة أدرك أنّه عارٍ، فانتكست نفسه لما تذكر جسده الذي يسكنه الخريف وصورته تنعكس على المرآة المعلقة في الحمام. شغلته هذه الصورة كثيراً، لذلك اعتزم ممارسة الرّياضة لإعادة بناء جسده وتقوية عضلاته.

آمن بأنه قادر على طرد تراكمات الزّمن الذي تكلّست حول أعصابه وفي جلده، وبالإمكان بعث جرعة من الشّباب والحيوية في جسد له قابلية الانبعاث والتجدّد.

ليست هناك شيخوخة أو مرض إلا في عقولنا نحن الذين نعتقد توهماً أننا كذلك. ولمّا يصل هذا الاعتقاد إلى أوجه تنطفئ أنوار الحياة وينتصر الموت.

شعر وهو يفكر على هذا النحو، أن أشعة الحياة تتعرّش من داخل قلبه، وأن عليه قراءة الأيّام الآتية على نحو مختلف. أن يقرأها بتفاؤل مطلق، تندحر على عتباتها كلّ أنواع الكآبة والقلق وصنوف الخوف والاحتمالات السيّئة. عليه أن ينافس السّرعة في استرداد الثّقة التي هوت في الغياب السحيق.

أسف لأنّه ضيع وقتاً طويلاً من عمره يترصّد المآسي والخيبات، يترصّد الموت. ولم يفطن يوماً إلى أن الحياة قد خلقت لكي نحياها بالكامل، بالعقل والنّفس معاً.

ليس للحياة إلا بعد واحد هو الحياة. هكذا أصبح يعتقد، أو هكذا هو مصرّ على الاعتقاد. عبّر عن انزعاجه من راحيل لما كانت

تدخله في طقوس الأشباح والموتى، وهي ترى الحياة ضوءاً مترهّلاً أبداً على أكتاف وقت معطّل.

مجّدت الموت في عزفها وغنائها لما اعتبرت كل شيء أصبح خراباً وأنقاضاً. لذلك، فضلت أن تشيح بوجهها عن كل ما له صورة الضوء، وتزعم بأن بصرها يتأذّى برؤية الأضواء، لكنه لم يخف مسؤوليته، مشاركته لها فعل التّصادي مع أصوات الجنائز والكنائس وصفير القبور.

أصبح يظنّ بأنها أوهمته أو ورّطته في السّير على الطريق المعاكس، وهي تحفل بالحروب في دروب الرّفض تتعقّب وتحكي عن خرابات التاريخ الكثيرة، والتي لا تحصى. طلب إليها يوماً، أن تكفّ عن تصوير الخسارات في عزفها وكتاباتها، وأن تنظر بعين أكثر اتساعاً إلى تحولات الدنيا... وتكتب لها سماء تخضوضر فيها السّعادة والمحبّة. كانت تجيبه متشدّدة بأن كل إنتاجها هو سعي إلى التوحّد مع الحقيقة، ذلك هو السموّ الذي يصنع جوهر الإنسانية وألق العالم.

صرخ فجأة بأنه يكره الغيبوبة وأيّ كلام عن الحقيقة، لأنهما معاً يطلّان على الموت أو على الجنون نفسه. لقد فزع من حاله لما استيقظ من غفوته متأخّراً بحسب زعمه، وهو يكتشف بأنه لم يعد إلا مجرّد طلل هار، وبأنه لم يعش الحياة أبداً. قضى العمر يتقيأ الأوهام متوحّداً براحيل، يتنشق أحلامها التي لم تكن إلا كوابيس. نظر إلى جسده العاري مرة أخرى، وهو يقنع نفسه بأنه ليس مجرد بقايا تملؤها روح متعثّرة... لهذا قرر أن يعانق اللّحظة فقط، يتنسّم روح الحياة فيها، وهو يحلّ محلّ إنسان مغاير بقلب مختلف وبدماغ متوثّب.

أصبح شبه متأكّد بأنه يحمل قدراً وفيراً من طاقة الانقلاب على حواسّه الماضية، وبأنه يؤمن بالحاضر فقط، بالوقت الذي يعيشه لا غير.

الزّمن الذي انتهى هو منته في الأصل. مثله كمثل البرق الذي يأكل ضوءه بسرعة خرافية.... دون أن يترك أثراً في السماء أو في الهواء. أما الآتي، فهو المجهول ذاته ولا عمر له، لأنّه لا يضمن أبداً أيّ نوع من الاستمرار.

عزم على أن يُغيّر الاتجاه... أن يهجر جرح البدايات، ولن يتوقف أبداً عن قطف تيجان الحياة متنسّماً طاعماً، اندفع مسرعاً مهرولاً، في اتجاه المسجلة باحثاً عن أيّ إيقاع يرقصه مردّداً:

كنت على الدّوام خارج نفسي، ضدّها!

وها أنا اليوم داخلها، أتصالح مع الممنوع والمحظور فيها وخارجها.

حاول أن يرقص، وهو يحرك رجليه وكتفيه، وأحياناً خصره، لكن قواه لم تسعفه على الاستمرار طويلاً.

ولمّا تنبّه إلى تسارع دقّات قلبه وإلى العياء الذي اضطره إلى التوقّف.

استسلم إلى سريره مستلقياً على ظهره مبهور الأنفاس، مخاطباً نفسه:

لي رغبة جارفة في الحياة؛ لكنّي أراني قد أصبحت، فعلاً، بقايا ضوء شاحب!

اعتدل في جلوسه، وهو يقول: سمعت كلاماً يردّده الصّدى ولم أفهمه... سمعت الصّدى تتطاير منه أصوات مكوّنة من الفاء

والعين والغين والرّاء والثّاء وحروف أخرى لم أتبينها. قرأتها في غموضها وحاولت افتضاضها، لكني ما حصلت إلا على معنيين فقط. الفراغ أو العبث...!

- هل تقول لي أيها اللّغز الملغّم بماذا أصارح التدبدب المزمن الذي يلاحقني، وبأيّ قنديل أضيء الكهف الذي يسكنني؟

كلّ ما علمته، أو كل ما تعلّمته لم يفد في أيّ شيء. وكل ما تذكّرته هو أن راحيل كانت تعزف! وأنا كنت أشدو وأرقص. وكانت البلاد أذناً لا تصغي وعيناً لا ترى...

رنّ هاتفه الخلوي، فقام مسرعاً في اتجاهه ليجيب. وجد صوت جيهان يخترقه، يدعوه إلى الحياة والحب، وكأنه باب أغلق على كل التوجّسات التي أنشبت فيه أظافرها قبل قليل... أحسّ بأنّ كل شيء في صوتها يكاد يكون، على الرغم من المرارة التي يتجرّعها، حديقة تتنفّس بلذائذ الأحلام.

عاتبته، لأنّه لم يبادر إلى مكالمتها. وبعد أن سألت عن حالته الصحية، أخبرته بأنها قد اشتاقت إلى صوته... والجلوس بقربه!

استسلم إلى ابتسامة واسعة غطّت محياه ونفسه تحنّ إلى رؤيتها وتأملها، وهي ترعى دلالها البرّي بإيقاع الأنثى المتمرّدة. طلب إليها أن يلتقي بها مساء، ليحدّثها عن الشيء الذي تغيّر فيه، وعن الأفق الذي يصارع لغاته وكائناته القديمة...

ألقى بهاتفه الخلوي، جانباً، لما وجدها راغبة في لقائه، وهو يدندن متمايلاً يميناً وشمالاً محمولاً على الغبطة النّادرة والفرح الرّحيب...

في الشّارع المفضي إلى خارج المدينة، خرج خالد من سيارته منتظراً قدوم جيهان. مدّ يده بحركة لا إرادية، وكأنّه يبغي مصافحة بقايا يوم تآكلت دقائقه. تنفّس عميقاً، وكأنه يمتصّ أنسام هذا المساء التي رقت في سماء حبلى بزخّات مطر وشيك!

إن نوعية الخطوات التي يرسمها الزمن لنفسه، هي التي تملي حركة الضوء والعتمة. لذلك، لا معنى للتفريق بينهما، مادام الضوء والعتمة كائنين من رحم الزّمن ذاته، وذلك هو شأن الليل والنّهار. حركتان في مدار اليوم تنظّمها خطوات الزّمن. لا فرق ما بين اللّيل والنّهار، مادام الإنسان كائناً ثابتاً يدركهما بالأحاسيس ذاتها وبالعقل نفسه، يميّز بينهما عن طريق الحسّ المتوارث.

ضحك من نفسه، وهو يقول: لم أستطع أن أنفلت من آثار فلسفة راحيل!

في غمرة تأملاته، وقفت جيهان بالقرب منه، وهي على متن سيارتها تلوّح بيدها اليسرى من زجاج النافذة. انتبه إليها فرحاً. وقبل أن يندفع نحوها، خرجت مسرعة من سيارتها، وهي ترتمي في حضنه تقبّل خدّه بشغف ملتهب. استسمحها بأن يستقلّا سيارة واحدة، وأن تودع سيارتها في محطّة الوقود التي توجد قبالتهما.

أثناء طريقهما في اتجاه مطعم على مشارف المدينة، ساد صمت طويل بينهما، إلى أن بادرت بالحديث، مشيرة بأصبعها خارج زجاج النّافذة إلى أن الطّقس يلبس، الآن، أشكالاً جميلة تشعر الإنسان بحركة داخلية ممتعة. أجابها مبتسماً، بأن الأشكال قد ظلّت سيدة الحضور دائماً، وبأن المعاني قد ظلّت على الدّوام تتوالى على

الغياب. بادلته الابتسامة، وهي تضع يدها اليسرى فوق كتفه ممازحة:

- كفاك تفلسفاً أيها الرّجل!

أجابها مقهقهاً بأنه قد طلّق الفلسفة بالثّلاث...

لما وصلا المطعم الذي يبعد عن المدينة أربعة كيلومترات، كانت السماء تمطر، والليل دافئ عار إلا من إيقاع المطر. خلع خالد معطفه، وهو يلفّ به كتفيها، لأن المطر أصبح يسقط بغزارة. وبينما هما يقصدان باب المطعم، كان خالد ملتصقاً بجانبها الأيسر والوحل يداعب قدميهما، يغريهما بأن يتقدّما أكثر فأكثر...

استشعر لذّة عجيبة تخترق داخله، وهو يخطو على إيقاع خطوات راحيل. أغمض عينيه لحظة تاركاً المتعة تعمّ كلّ كيانه.

همست إليه بفتح الباب الخارجي للمطعم:

- ما أجمل أن نرحل عبر هذا الوحل في الزّمن الغابر، نعيش حياة عظمائه..

في هذه الأثناء، استقبلتهما نادلة سمراء، فارعة الطول منشرحة، تلبس بدلة سوداء وقميصاً أبيض وربطة عنق صفراء. اقتادتهما إلى طاولة منزوية بمحاذاة نافذة زجاجية واسعة تطل على غابة صنوبر قديمة، حكى النّاس عنها كثيراً من القصص والأخبار الأسطورية العجيبة. بعد أن جلسا حول الطاولة متقابلين، فضّلت جيهان أن تقتعد كرسياً بجانبه حتّى تحثّه على تأمّل الغابة، وينعمان بمرأى الصّنوبر المسترخي تحت المطر وأنفاس الليل، أحسّت بقلبها وكأنه يشدو ويرقص نشوانَ، وهي تلتصق به تتنفس رائحة تبغه المحروق وعطره الزكي.

أخبر النّادلة بأنه يفضل قنينة نبيذ باريسية وقطعة سمك مشوي مع شيء من الخضر. هي الوجبة التي طلبتها جيهان باستثناء النبيذ الذي استبدلته بماء 'فتيل'. نظرت إلى وجهه، وهي تقول:

- كم هو فاتن أفق هذه الغابة، حاضرها هذا اللّيل البهيّ المتربّع على عرش أساطيرها... لولاه لكان النّهار سجناً وألماً مضاعفاً.

ضحك خالد ثم قال: أرى في عينيك نهراً تسبح فيه أسئلة كثيرة، خصوصاً في اللّيل، لأنّه تتهيأ فيه الشّمس للطّلوع، ينكشف الحجاب ويتوقّد الفكر وتتوضّح الرؤى.

أخبرها بأنّها لا تشبه جيلها في شيء، هي استثناء جميل ومنفرد استطاعت أن تهرب بذكاء من بلّوعة الإدمان السلبي على الفايسبوك والتويتر، أجابته بأنها تعلّمت كل لغات العصر وتقنياته، فهي تثق فيها وتتنفّس من خلالها كل العوالم المفترضة... ومع ذلك، لا تجد فيها متعة السؤال وسرّية الحواسّ، ولا تثير فيها لذاذة الفكر المستقلّ والنّظر الحرّ.

قال لها: ألأنّك عاشقة للفكر؟

أجابته: لأنّي عاشقة للجمال، لأن الجمال هو الإنسان، أما مبتكرات التقنية التي تتحدّث عنها هي مجرد لواحق أو آثار مرسومة في طيات كتاب هو الفعل الصادر عن الإنسان.

ألا ترى معي أننا بحاجة إلى روح الإنسان لا إلى لواحقه وآثاره.

أجابها: أخطأنا الطريق لأننا انشغلنا بالتجليات الماكرة، ونسينا

الجوهر الخفيّ. كلما شاخت اللواحق وشحب الأثر، استعبدنا المستحدث، وبقينا ضحايا حركية ميتة.

تململ خالد، وهو يريد أن يترك كرسيه، بعد استئذانها، متجهاً إلى المرحاض رغبة منه في التبوّل.

نظرت إليه باسمة، يجرّ رجليه اللتين أتعبهما الزمن. تمنّت لو أنها اقتسمت معه سفره الذي مضى فوق الموج المضطرب. خيّل إليها أنه بإمكانها أن تعيد تشكيل القوّة فيه، أن تدخل مع الأيام الباطنية التي ترهّلت في حوار ليس كأيّ حوار. تستجدي الزمن أن يعود إلى الوراء. أن يلقم خالد رحيق العنفوان السرّي، كما هو شأن حكايات الأساطير والخرافات... هي متأكدة أن الانبعاث ممكن. هو شبيه نفس تتلاقى فيه الأضداد. يدفع بعضها البعض إلى التجدد العصيّ والبروز اللّامتوقع. الانبعاث كمثل الاستمرار، هكذا اعتقدت، وكأنّها تعي أن الانبعاث هو المستحيل الممكن.

أخذتها الحماسة، وهي تتأمل دقات ساعة مدلّاة على الحائط، إلى الاعتقاد بأنه من الممكن إرجاع عقاربها إلى الوراء، لتدقّ دقّات يتخاصم فيها الوقت مع نفسه، بعضها يلاحق بعضاً، وبعضها يلغي بعضاً...

كان خالد يتبوّل على إيقاع هذه الدقّات، وهو يتفحّص وجهه في المرآة المعلّقة على الحائط الذي يقابله. وجد في كل تجعيدة محفورة في وجهه ممرّاً يفتح ذراعيه واسعاً لاستقبال تدفّق الخلايا التي تجدّد وجهه المنهار. زفر عميقاً محاوراً نفسه، أيّ من السبل أقرب إلى حدائق أحلام يجلس تحت أشجارها المظلّة، مرتاحاً

مستلقياً ينصت إلى جيهان، وهي تحدثه وتعاتبه وتلقمه حبات فستق وتوت وعنب ورمان، وكأس شامبانيا من كفّها الغضّ الرّشيق.

أقفل راجعاً إلى مكانه، وهو يظن بأن وقع حذائه فوق الأرض البزلتية السّوداء اللّامعة، هو نفسه دقّات السّاعة المموسقة التي توقّفت قبل قليل. دقات وخطوات، تشعرك بأن الزّمن يخطو أماماً، وأنك لحظة كائن يأفل في الوراء. تفرح لخطواتك، لأحلامك، وجريك وسعيك إلى سعادتك، ولا تأس لحظة على أنّك بذلك تنتهي رويداً رويداً... تتساقط كأوراق الصّفصاف التي تجفّ في كل خريف.

نظر إليها بتودّد، وهو يتّجه نحوها... ولما اقترب منها التصق بها، وكأنّه يبغي أن يتسلّق دواخلها ليبلغ روحها الخفية.

شعرت، حين كان يتأمّلها، كأنها تنجذب إلى ركض مبعثر على إيقاع الوقت المبهم. سألته فجأة: هل هو سعيد بالقرب منها؟ تردد في الجواب، لاهجاً بجمل هادئة بأنه يكتشف فيها ذلك الشبه الكبير بإيفتا إدوارتي معبودة الأرجنتيين الملقّبة بـــ: 'إيفا'.

صمت لحظة، ثم صوّب نظره إلى الأعلى، مستحضراً على نحو مكثف رحلاته إلى الأرجنتين رفقة زوجته راحيل. كانت راحيل تعشق 'إيفا' إلى حد الجنون. وقد بكت يوماً على نصَبها، لما حكت لها كاترينا صديقتها الشّيوعية عن معاناتها مع المرض الذي أسلمها إلى الموت، وهي لم تتجاوز عقدها الثّالث.

فيما كانت جيهان تنصت إليه أثناء حديثه بتأثر، قالت في نفسها: هل فعلاً أقتسم مع هذه السّيدة الأرجنتينية شكلها ورائحتها

وألقها الإنساني، أم أن خالداً يتحدث انتشاء باللحظة فقط؟ سألته مجدداً: فيم أشبه 'إيفا'؟

أجابها ذابل العينين: لها مشوارك السّياسي والثّقافي نفسه!

قاطعته ممازحة: ولكني لم أتزوّج رئيس جمهورية مثلها!

ردّ عليها بحنوّ: لك مهابة الأميرات واستعداد النبيلات، ربما يكون حظّك حظّ كيلي غرايس أو إيفا، فتتزوجين ملكاً أو رئيس دولة...!

شرد لحظة، وداهمت رأسه دندنات راحيل، وهي تجتهد في تأليف مقطوعة موسيقية. أصرّت يومها، على أن ترثي إيفا بأشجن نغمات البيانو. هكذا بدأ يدندن، وقد تخطّفه شرود كإغماءة تشبه الغياب أو السكر الذي لا علاقة له بالخمرة:

من شرفة la vasa Rosada

طلّت إيفا في ليل يتغطى بملح الغناء

مدّت يداً

يتدلّى منها ثول من النّحل الحزين

ينطق بكلّ الأسماء

هتفت قوافل السّكارى والجياع

إيفا يا نورنا الذي يذبل

لم يبق لأحلامنا الآن

غير صقيع الشّتاء!

لم يستفق من شروده، إلا بعدما أحسّ بيد جيهان تغطّي يده وتردّد معه:

لم يبق لأحلامنا الآن

غير صقيع الشّتاء!

- كيف أغسل كل هذا الحزن الذي يسكن عينيك؟

أن أمسح عنك غبار الطّريق الذي اختلط بدمك!

أيّة امرأة تكون إيفا حتّى تحزنك على هذا النّحو، وقد مرّت على موتها عشرات السّنين؟

لم يتبيّن خالد نفسه سبب حزنه، لمّا تحدث عن هذه السيّدة الأرجنتينية. ربما لأنّها تذكّره براحيل لما كانت ضائعة في هباء البكاء، بعدما أخبرتها كاترينا بأن إيفا قد قامت في ليلتها الأخيرة من سرير مرضها، تمدّ يدها مودّعة من شرفتها آلاف النّاس الذين جاؤوا يهمسون إليها عواطفهم بالدمع السّخين الذي لم يفتر. نظرت إليهم بابتسامة مترهّلة وبعينين قد انطفأ بريقهما، وهي تقول ببطء: أحبّكم...

أمضى النّاس اللّيل كله قبالة شرفة قصرها إلى حين الإعلان عن انطفائها والغياب المطلق ليدها البيضاء التي أغدقت عليهم أيّما إغداق.

تذكّر بأن راحيل قد توسّدت ليلة اطلاعها على هذه الحكاية، صدره وهي تردّد: لا ننتظر ما تمنحه لنا الحياة غير الموت. ليس هناك حقيقة أخرى غير الموت!

نسي نفسه ثمّ خاض في غمرة التذكّر. بالغ في شرب النّبيذ، وهو يتمتم مستطرداً:

- آه أيها الاحتراق الذي يسمّى الألم!

سحبت جيهان الكأس من يده، محاولة إقناعه بالتوقّف عن الشرب، خضع لطلبها وهو يرسم بشفتيه ابتسامة منكسة. قال لها: لماذا عمرنا هكذا يفرح للظلام والموت؟ لماذا هو مجرد استمرار في التعثّر والأحلام المستحيلة؟

تمنّت جيهان أن تكون إيفا، وتلبس سيرها لتجدّد السّفر... لتلتقط من شهقتها الأخيرة نفسها الأخير، وما تبقّى من رعشة يدها الممدودة إلى الجماهير المحتشدة أمامها.

ربما أرادت أن تحتلّ الصّورة التي سكنت خالداً، صورة إيفا أو صورة راحيل. هي نفسها لا تدري، ولكنها تجد الآن نفسها مدفوعة إلى هذا الإحساس دفعاً. أحسّت بأن المرأتين داخلها تتخاصمان من داخل الصّورة المتمثّلة لديها. الواحدة تطارد الأخرى، والواحدة تنفي الأخرى. تساءلت من جديد، فيما يفيد أن تكون هذه أو تلك، وخالد يرغب فيها كما هي... جيهان فقط؟

تساءلت مرة أخرى، أيّة رغبة حقيقية يحملها الآن خالد؟ تمنّت لو تقدر أن تسأله السّؤال نفسه. ألغت كل الأسئلة والتوجّسات التي كانت تثقل عليها، وهي تقول في داخلها: وحدها جيهان تعرف كيف تمسح عنه صدأ العمر الذي مضى.

انتبه إليها وهي تتعب في الحوار داخلها، ليسألها عمّا يمور في

دواخلها. اكتفت بالردّ هادئة، تتملّى وجهه بنظرات تمهّد لعشق محتمل.

في هذه اللّحظات، دخل رؤوف المطعم رفقة شابّة يافعة. اندفعت نحوه النّادلة مرتبكة متبوعة بصاحب المطعم الذي ترك مكانه بمجرد رؤيته. كانت الشابّة تلفّ بيدها اليسرى يده اليمنى، مزهوة برفقتها له. اختارت من اللّباس ما يكشف عن أهم الأجزاء المثيرة في جسدها. بدا نهداها كرمّانتين مكوّرتين تسطع منهما حمرة تربك الناظر إليهما. هو الانكشاف نفسه يبرز ساقيها والنّصف العلوي من فخذيها، وكأنّهما قطعتان متناسقتان من رخامة مضيئة.

ارتفع صوت رؤوف مجلجلاً، يحيّي مستقبليه دون أيّ اعتبار إلى أنغام العود التي كان يعزفها رجل مسنّ في خلفية المطعم، حيث خيّم هدوء مطبق مقابل تمتمات خافتة من طرف بعض الزبناء.

أحسّت جيهان بشبه انهيار داخلي يجرفها، عندما رأت رؤوفاً يقتحم مجدّداً حاضرها،... طأطأ خالد رأسه تحاشياً لرؤيته والتحدث إليه.

توجّه رؤوف نحو الطاولة المخصصة له محاطاً بعناية مائزة. وبعد جلوسه مقابل عشيقته، طلب إلى صاحب المطعم أن يوقف العزف، تجنّباً، كما أمر بذلك، لصداع الرأس.

كل شيء تحول في لقاء رؤوف بجيهان إلى تيار من التوتّر والانفعال، بدا المطعم لها مجرد فضاء للكوابيس أو فضاء دون هواء. أحسّت جيهان بالاختلاف وبالتردّد ما بين استمرارها في الجلوس أو الاندفاع خارجاً بحثاً عما يشبه الهروب.

تمنى خالد ألا يرى رؤوفا، حتّى لا يعكر صفاء هذه اللحظة،

توتر متواتر وفَوَز أعصاب، فيما كان رؤوف يقهقه بصوت مرتفع وبمتعة الرّفاه وشهوة المحظوظين.

التمست جيهان من خالد مغادرة المكان على الفور، لأنها لم تعد تطيق الجلوس ورؤية أو سماع رؤوف. أخبرته بأنها الآن تحس برائحة النفايات تزكم أنفها وتخنقها، بصوته يمزّق أشلاءها ويلتهمها. أذعن خالد إلى رغبتها وطلب إلى النادل إحضار فاتورة الحساب. في هذه الأثناء رمقهما رؤوف، فابتسم بتخابث مصوباً نحوهما نظرات مستفزّة. نهض من كرسيه متجهاً نحوهما، بينما بقت جيهان متسمّرة في مكانها وقد غشّتها صفرة الاحتضار.

- لقد رميت سهمك وأصبت يا خالد. إنّي أغبطك!

قاطعه خالد بلهجة حادّة، وهو يعنّفه بكلام قاس، مذكّراً إيّاه بأنه يعرفه جيّداً، ولا داعي لحرب جديدة. اندفعت جيهان إلى الخارج، وهي تقاوم رغبتها في القيء وصداع رأسها الذي أحسّت بأنه على وشك الانفجار.

بعد خطوات من عتبة الباب الخارجي، استسلمت للقيء متألمة، وهي تصرخ:

- لا أجد اسماً يليق به غير الشرّ. هو هكذا يطرق باب سكينتي كالكوابيس المقيتة.

أخذها خالد من ذراعها نحو السيّارة، وبعد أن أخرج منديلاً من جيبه، ليمسح فمها، التفت إليها، وهما في طريقهما، ليقول لها هازئاً:

- ما هذه الكيمياء الخفيّة التي تمتلكينها، وأنت تفرحين وتغضبين وتتقيئين؟ نظرت إليه وقد هدأت، لتقول له، إنها تريد أن تكون إيفا تتعقّب خطواتها التي انقطعت.

استطردت قائلة، إنها تحسّ وكأن إيفا تعيش داخلها، ترقب أحاسيسها، وحماستها المنجذبة باستدامة إلى كل معاني المحبّة. كل معاني إيفا مثل النّبض الداخلي الذي يتهيأ كالجوقة لعزف أناشيد الإنسان المتشوّق إلى السعادة. أيّة سعادة تعنيها هذه المرأة التي ما فتئت تربك خالداً. هكذا تساءلت أو هكذا أصبحت تلحّ على المعرفة.

تظنّ أن السّعادة سوق تؤثّثه الأصوات والأشكال والرموز والعلاقات. أثاث من قطع مختلطة غير متجانسة تقبع فيها الأحاسيس متشظّية... تتحرّك كحطام يتماوج ما بين الشيء وضدّه، أو ما بين الضدّ وما لا ضدّ له. لا أحد يستطيع أن يضبط حركية السوق، أن يتعرّف على دقائقه وأسراره، لأن السوق لغز لا يتوقف معناه في صور اللقاء أو البيع والشراء. هكذا الإنسان هو بذاته سوق... سوق يعرش عليها الغموض.

ابتسم بشرود قائلاً: تريد حينها أن تلبس قفطان الخيرية وتتخطى بالمحبّة الخطوات، تعانق العابرين في سوق لا يعرف نهارها من ليلها. قاطعت شروده لتقرّ بأنها قد عزمت على أن تهب بيت جدّها الذي أورثه إياها إلى فضاء للعمل الخيري.. أن يكون الشّرارة الأولى لفعل إنساني حقيقيّ محمول على المحبّة فقط.

واصل خالد تفكيره دون أن يكترث بحديثها، وقد التقط مغزاه، لأنّه لم يعد يؤمن بأي شيء يسمّى بالعمل الخيري والسّياسي.

تراءى له أن مَثَل الحديث عن الإنسان والمحبّة والخير، عبارة عن لباس مطرّز بالذهب والفضة، يخفي شبحاً مريعاً أو جثة نتنة. لكنه لم يرد أن يجهض حلمها، أو أن يكسر خاطرها. تظاهر بالحماسة إلى فكرتها، وهو يلتمس منها أن تتريّث في قرار تنازلها عن بيت جدّها. استطرد متحدّثاً أن بيت الأجداد هو النّبع الصّافي الذي يمدّنا بالحياة الحقيقية. هو ليس برابطة انتساب فقط، أو مجرّد سفر لهؤلاء الذين اختفوا في أطلاله المكابرة. إنه كيمياء الجذور والأحاسيس، يتوقّد الأصل في صلبه كفصوص من ضياء. وحين نتيه ونتعب، أو حين نطيش ونحبّ ونفقد الخطوات والتّوازن، لا نجد إلا ضفافه بساتين للسكينة والأمان.

حدّقت في وجهه تستغرب حديثه، لأنها اعتقدت سلفاً بأنه سيبتهج لفكرتها. سيقول لها علينا أن نقطع مع كل الأشياء القديمة، مع كل الأطلال والروابط. أحسّت بأن عينيه لا زالتا مشدودتين إلى الوراء، تتّجهان بعنف وديع إلى الزقاق والبيوت التي نشأ فيها.

هي مقتنعة بأن هذه الفضاءات التي عشعش فيها القدم ليس لها أيّ معنى إلّا في عيونه ووجدانه. تراهن بحياتها أن هذه الأحاسيس التي تغمره، تحرقه. لذلك، فهي تخشى أن تكون متجذّرة فيه أبداً... أن تغيّبه عن نبض الحاضر وأمواجه الجارفة.

لكنّ خطواته التي تهدر بوهج السّير، أبقت قدميه ملتصقتين بإيقاع الصباح المتجدّد والضوء النازف في كيان الممكن. لذلك، فهي تجزم بأن ليس لهذا الإيقاع غير المستقبل، ولا يمكن أن تبتعد عنه إلا حين تبتعد عن نفسها.

ألقت برأسها على كتفه، وهي تحول وجهها وشفتيها إلى عنقه عاجزة عن مقاومة الرّغبة في عناقه والذوبان في رحيقه وأنفاسه. كأنّ الحريق قد اشتعل في عروقه وهو يقود سيارته، تغطيه بأنوثتها. رغب في إغماض عينيه ولو أنه لا يقدر على فعل ذلك، ليرى أحداث العمر التي انصرمت، لينسى راحيل وكل الأحزان.

لم يجد ما يتمسّك به إلّا اليد اليسرى لجيهان، وهو يلتقطها بارتعاش، ودون أن يلتفت إليها أو ينبس بكلمة. تنهّد دون أن يصدّق ما حدث، ترك يدها بتباطؤ وهو يلفّ بيده اليمنى عنقها. خيّل إليه بأنه مرفوع إلى السّماء الأعلى، محاط بنجوم كثيرة تدثّره بألقها وبالرّذاذ الملذّ النازف منها. ولكنه خشي فجأة أن يكون كالفراشة المنجذبة إلى الضوء، وهي لا تعلم أبداً، أن في ذلك موتها.

قال بخفوت، وقد تخلّلت صوته هزّة محتشمة: بأيّ سرّ استطعت أن تحوّلي الصحراء التي في دمي حدائق كرز وتوت برّي؟

أجابته مداعبة شعره:

- لست صالحة إلّا لكي أحوّل معناك، وأجعل للأفق وجهاً باسماً وفماً فيه ضوء وأنغام.

سارت بهما السيارة تخترق الظّلام، وكأنها تقرع أجراس الوهج المكبّل في ألغاز المستقبل المتضعضع، في أثناء ذلك، تذكّر خالد أن راحيل قالت له يوماً:

- الحبّ هو الموت، وكل خطوة فيه احتراق.

لأننا نهجر إيقاعنا ونمضي إلى النشاز، حيث نكتشف قبحنا.

ليس للحبّ معنى إلا فيما نحسّه ونتعلّق به. وكثيراً ما نخطئ الطّريق، ونبدأ طريقاً آخر، دون أن نصغي إلى نداء البيانو، أو ننتبه إلى أنامل العازف الدّامية...

كلما أخطأنا في الحبّ صنعنا الموت وأنبتنا الخراب.

* * *

في هذه المدينة يطرد الغموض الوضوح أمام الملأ. تتعرّى على الدوام لتبرز نهدين غير متشابهين. الأيمن مكوّر دون حلمة. الأيسر تعلوه عين مفقأة وفم مطعم، وما بينهما جوقة تدقّ على دفوف الوحدة والكآبة.

لم تعد له حتّى القدرة على الصراخ أو الثرثرة، بقي له قدر ضئيل من التحدث فقط... أو من الدندنة فقط. يغبط جميع أولئك الذين أصيبوا بالحبسة أو الخرس، لأن لهم بذلك القدرة المطلقة على الحوار الطويل مع أنفسهم، على الكلام المرتفع والثّرثرة المدويّة في الدّواخل المهجورة.

في هذه المدينة يرفرف الفكر بجناحين مكسورين في قفص أضيق من علبة عود الثّقاب. هنا يتدحرج العقل على منحدرات غسق الأنفاق والأقبية المصنوعة وغير المصنوعة. هنا وهناك ترقد المحبّة كقلب مقطوع على صحن من رماد وغبار. قلب يخفق خفقاته الأخيرة...

في الجانب الأيسر من المخبزة، طريق شائخ يفضي به إلى بيته المختفي في المنعطف الخلفي للمدينة القديمة. طريق احتضن آلاف خطوات الأجداد الذين عبروه، وتركوا عليه بقايا أنفاس وآهات. تنفّسوا

عبره الأحزان والأفراح... تهاووا تباعاً منطفئين في غمرة التوقّف الأبدي عن الحركة.

أحسّ عبد الله، وهو يوقّع بقدميه مروره المتكرّر، عبر هذا الطريق، بأن الإنسان مجرّد مشي وتوقّف... لمّا يفكّر فهو يمشي، ولمّا يحسّ فهو يمشي أيضاً، ولمّا يخطو ويركض فهو يمشي كذلك. ليس لأن المشي هو الحركة أو التنقّل، ولكن لأنّه عمق الحياة نفسها. أما المعنى الذي تنحمل عليه الحياة، فهو الوجود. الإنسان موجود ليس لأنّه يحيا، ولكن لأنّه يمشي. كلّ جزء فيه يمشي. إنّه موجود إذاً، لأنّه يمشي.

تمنّى عبد الله أن يظلّ أبداً يمشي حتّى بعد توقّفه المحتوم...

الطّريق....! ما أقصر الطّريق وما أطول ألم المشي!

هو قصير، بالرغم من استغراقه لزمن يزن مئات السنين، لأن المرور فيها لا يدرك. لا تدرك نوعية الزّمن الذي استغرقته، ولا تتحسّس كيفية مروره، لا تتبيّن تلك اللّحظات ذاتها التي نزلت على درج العمر. ومع ذلك، فالطّريق يبقى طويلاً ممتداً، لأنك تتنفّس برئة الخوف والقلق، لأنك تترقب في أيّة لحظة صفعة الزّمن الذي يربض بخوافيه على كل شبر من أشبار الطريق.

ألحّت عليه صورة راحيل، وهو يفحص الأشياء والرّموز في مخيّلته. تراءى له على عتبة البيوت في وسط الطريق أنّها واقفة عليها جميعها. تارة ترقص وتارة أخرى تعزف على أوتار الهواء تبكي وتضحك.

تخيّلها تذهب وتجيء في صورة طير الحسّون الذي فقد العشّ والمستقر.

ساءل نفسه، هل هذه الصّورة التي تداعبه كالغيمة الدّاكنة، أو تعنّفه كالممكن الحابل بالمخبوء، أيّ مخبوء! لها شيء من الحقيقة؟

استرجع اللحظات التي كانت تحاوره فيها، وهي تفحص اللّوحة في مخبزته، وتلحّ على معرفة صانعها. انتبه إلى أنها كانت تبدو كقفص من الأسئلة والألغاز، لا يكاد يخرج منه حتّى يجيب بدقة وبمهارة المجيبين. لا يدري ما الذي يحمله على الاستمرار في استحضار صورتها وحديثها. أصبح يشعر بأن راشيل تتنافس في داخله مع هذه الصّور المتردّدة عليه بعنف. استنتج أنها تقتسم معها كلّ قسمات الهويّة والحضور. تلبس النظرات نفسها والكبرياء ذاته. تشبهها في العناد والإصرار على اختراق المألوف وطرح السّؤال الصّعب.

خيّل إليه، الآن أنهما معاً متقابلتان تتنافسان على رسم اللّوحة نفسها باليسر العجيب. تكرّران الحركات ذاتها، وتستعملان الألوان الجميلة نفسها. لم تعد عيناه تسبحان في ما هو أمامهما أو في ما هو حولهما. نسي الحاضر واستسلم في أقل من ثانية إلى الغياب. الغياب المنطوي على صوت منفرد. يصيخ السمع إليه، وهو يعلو كأنه ناي تؤثثه بحّة ملائكية ممزوجة من أنفاس راشيل وراحيل.

في وسط الطّريق، صادف امرأة تسير حافية، تحيّي متسوّلاً يعزف على رباب قديم. سألته لماذا يصرّ على العزف والنّاس بين غدوّ وروح غير مكترثين. اقتربت منه متمايلة لتخبره بأن إصراره هذا يغضب السّماء، ولا يجعلها تهب رذاذاً ولا مطراً... فيما حاول المتسوّل

تحاشيها، وهو ينصرف في اتجاه عبد الله مواصلاً عزفه وغناءه بلكنة شرق المغرب من بوادي أهل أنكاد:

- شَابْ شَعْري واصْبح ظَهْري يوجَعْني

كُلْ شَيْء رَاح وفاتْ

وَ لَا أَحد يسْأل كِيف حالْ 'الشّيباني'

اقترب منه عبدالله حين التقط من جيبه بعض الدّريهمات ليضعها في يد المتسوّل. وفيما هو يقوم بذلك، شعر بأن يد المتسوّل تسيل بحكايات مليئة بالعجب والغرابة، كأنها تكلّمه وتنغرس في قلبه.

- ترفّق أيّها العازف الذي يشدو بالمرارة... يا مهماز السرّ المكنون!

تأكّد أنه يخطّ بخطواته نحو المتسوّل لحظات على هيئة امرأة يلفّ عنقها وقت غادر.

تنبّه إلى نظرات عبد الله وإلى شروده، ودون أيّ اكتراث به، استمرّ في الغناء مواصلاً سيره في اتجاهات مختلفة، طالباً معروفاً وبعضاً من الاعتراف. فجأة تذكّر عبد الله أن هذه الأغنية الأليمة، كان يغنّيها والده لما كان صغير السن. يومئذ قد بلغ من العمر عتيّاً، وكان فقيراً انفضّ من حوله النّاس والصحاب، وانشغل أبناؤه بحياتهم اليومية. كان يرى عمره يتفتّت على منحدرات النّهاية، فاستسلم لرهافة إحساس مفرط وسرعة البكاء. كلّما تذكر أيامه التي مرّت رثى شبابه مشتكياً من ألم الظهر وضعف البصر وقساوة الوحدة.

- لا شيء يتكرّر إلا النّهاية والعدم. أليس لأن التجدّد خدعة؟!

يتهيّأ لنا لما نروي أيّامنا وننظر إلى المستقبل أننا نتجدّد، أو أنه من واجبنا التجدّد والتغير. ولكننا لم نفهم بعد، أن الرّغبة في التجدّد نفسها خطأ تصححه النّهاية... الموت.

إن الشّعور بالشّيخوخة الموحشة ووطء المرض، آت من سوء فهمنا للزّمن الذي مضى، أو من تدرّن غالط رؤيتنا للمستقبل. متى نفهم أن الحياة ارتداد في معركة خلفية تراجعية، لم تكن يوماً تقدمية في حركة أمامية متّصلة.

نسأل دائماً ونحن نكرّر أين نمضي؟ فنسوّي الذّاكرة بالنّسيان، ولا نسأل أبداً هل نحن حقاً نمارس المضي وكيف مضينا؟ فنؤاخي الوجود والعدم.

هو الوجع نفسه، يلبس هذه الأغنية التي رددها والده في زمن فات. واليوم ها هو ذا يلفي هذا المتسول يكرر الأغنية ذاتها، بالمرارة نفسها.

هل هي الذّاكرة تتجدّد؟ تسافر أماماً في قارّات الآتي؟ أم هو الرّجوع المتوالي إلى الخلف الذي يضاهي النهاية؟

النهاية هي الماضي في جلد المستقبل الذي طالما قد خدعنا وأوهمنا بأنه الاستمرار والجريان المنساب. فيما كان عبد الله يبحر في هذه الأسئلة، متأملاً، كان المتسوّل قد انزلقت رجله فوق قشرة موز، فسقط على ظهره من فوق الأرض متأذّياً صارخاً.

تحلق من حوله بعض الناس، وكان من بينهم وليد، عن طريق المصادفة. كثر الهرج والمرج، فاستقر رأي الملأ على استدعاء سيارة

الإسعاف وإنقاله إلى قسم المستعجلات. في هذه الأثناء تعرّف وليد على الرجل. فنسي الحضور والوقت. انجذب إلى صورة الماضي التي كان عليها هذا الرجل. نطّت إلى ذاكرته لكنته الجميلة، وهو يتحدث باللغة الفرنسية. لقد قضى سنوات طويلة بمارسيليا بحّاراً ينافس الموج وكؤوس النّبيذ وكل حركات الرقص وألوان الغناء. ترك وليد لعينيه أن تسبحا في كل جزء من هيئة هذا الرجل، وقد تذكر أنه كان يحمل اسم عبد العزيز، وكان يلقّب بزوربا الإغريقي.

تعرّف عليه لما كان طفلاً، وكانت المناسبة استضافته من طرف المعهد الموسيقي، ليلقن في بضعة أيام دروساً في الإنشاد والعزف على الكمان. لم ينس وليد لحد الساعة كيف كان الرجل يفسر علاقته بعلم الجمال وبالفلسفة، كأنّه يسمعه اللحظة وهو يكرّر:

- كلّ شبر في هذا العالم إيقاع، كلّ لحظة فيه نغم منظّم. قبل أن يولد العالم كان ميتاً، ومع ذلك ولد ليتكرّر. مفارقة عجيبة!

لا ضمان فيه للحفاظ على انسجامك وإيقاعك الوجودي... أنت وحظك. إنه يشبه المصادفات مع فارق واحد أنها ملتبسة بالفلسفة.

الفلسفة كمثل نحّات والعالم مادة من طين مبلّل مطواع. ما الذي يجمع العالم بالفلسفة؟ لا أدري، ولكن كل ما أعلمه، أو ما أحسّه، أن الإنسان اليوم يجتمع دقيقة دقيقة بكائن من نشاز، يهدر وقته، في العزف على أوتار محطّمة. أو لنقل إنه ينحت استمراره المعطّل خارج الجمال والفلسفة، لقد أصبح هيكلاً له شكل الصخر المنتحر.

أليس الجمال والفلسفة هما ما يميّزان الإنسان عن بقية الخلائق؟

ما أصبح يوحد الإنسان بنظيره اليوم، إلا سرير مدوّد من البشاعات. تكاد عيناه تسيلان دون انقطاع بأصوات ضدّ الموسيقى، يتنفّس ظلاماً لا يعكس إلا الظّلام.

عبد العزيز الوجدي، هذا الاسم يعرفه أغلب الناس، لا سيما الذين تفوق أعمارهم الثلاثين، ولكن الهيئة لم يعد يتعرف عليها أيّ أحد. تعرف عليه وليد فقط، هكذا ودون جهد ربما لأنّه يجمعهما الدّم نفسه. دم الموسيقى والفلسفة.

أيّ عمر هذا الذي مضى وما الذي حدث؟

صاعقة مزلزلة اخترقت وليداً، وهو يتفرّس مجدّداً مُحيّا عبد العزيز الذي انطفأ فيه وهج الفيلسوف والفنّان. أيّة عاقبة تلك التي تحول إليها هذا الشعاع الذي أضاء العالم يوماً، إلى مجرد حطام يحمل بقية روح على الأرصفة الجاحدة، يعرض الجزء الأخير من صوته على العابرين، وهم غير غائبين. انتاب وليد إحساس بأنه في هذه اللّحظة لا يرى في البلاد إلا عالميْن.

عالم الإنسانية المنطفئ، وعالم أشباح على شكل خُشب مسنّدة مسوّسة تتناسل في حدائق المعيش اليومي.

تفطّن عبدالله إلى وليد وهو يقبّل جبين عبد العزيز منهاراً منتحباً. فسأله إن كان من معارفه. وعندما كان يوجه إليه الكلام نادى عبد العزيز وليداً، وهو في حالة تشبه من يحتضر، ناداه مرهقاً وبصعوبة تامة، طالباً أن يضمّه إليه ويودّعه بكلمة أخيرة...

كان ارتماء وليد على عبد العزيز، وهو يحضنه بصدره المجلجل

بالحنين، حدثاً مؤلماً انفطرت له القلوب وفاضت دموع الطير والشجر... لم يعبأ عبد الله متوجهاً إلى وليد، يأخذ مرفقه بلطف وتعاطف غريبين، فاسحاً المجال إلى ممرّضيْن جاءا في سيارة الإسعاف لإغاثة عبد العزيز ونقله إلى المستشفى.

أخبر عبد الله وليداً بأنه لا يعرف شيئاً عن هذا الرجل، التقى به مرتين أو ثلاثاً، وهو يردّد الأغنية ذاتها التي كانت تحفر فيه عميقاً، ولما كشف وليد هويّة الرّجل لعبد الله، انتابت الأخير حالة ذهول فاضحة، انتهت به إلى كثير من التوتّر والنّدم المسهّد. كرر في نفسه منفعلاً أنه لا يجوز له ألا يتبيّن أنّ الرجل هو عبد العزيز ذاته، رفيقه في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، وقد اقتسم معه الأفكار والشّعار والأحلام... قرأ له ما كتبه في الفلسفة والموسيقى، وكان شغوفاً بما يبدعه من طروحات وإشكاليات. لكنه لم يجد له حرفاً يذكر منذ أزيد من ثلاثين سنة.

لم يستطع عبد الله أن يهدّئ من روعه، أن يصدّق انقلاب حياة عبد العزيز هكذا دفعة واحدة، أن يصبح متسوّلاً معدوماً، شريداً في شوارع المدينة يتجرّع مرارة سرّه وحيداً.

قرّر برفقة وليد، أن يتوجّه مسرعاً إلى قسم المستعجلات ليطمئنا على حالته ويطلعاه عن هويتهما، ولمّا وصلا هناك، أخبرهما الطّبيب الرّئيسيّ بأنه في حالة غيبوبة تامّة، وأن وضعه الصحّي حرج جدّاً.

أقسم عبد الله برأس ابنته المفقودة أنّه سيسعى جاهداً إلى معرفة السّبب الذي كان وراء هذا التحوّل المفجع، أو هذا الانقلاب في المسار المنطقي لرجل كان يفكر ويكتب ويغني. اندفع إلى الزّقاق الخلفي دون أن يعلم إلى أين يسير. اندفع مهرولاً يجرّ رجله اليسرى

التي لم تشف منذ سنين. تعمّد التوغل في وسط المدينة، أو في اتجاه النّافورة القديمة، أو في الدّرب الضائع ما بين القديم والحديث. تعمّد السّير فقط.

تمتزج الآن في رأسه كل التّفاصيل والصّور والأصوات، ذكريات من إيهام الماضي تلمع كأنها شهب بعيدة، يفصلها دخان أشياء محروقة. ليس الحاضر جميلاً، بقدر ما هو إحراق أخرق لتراكم البدايات. هكذا تمتم عبد الله، ثم خطا مترنّحاً من شدّة التعب.

انتبه إلى أن وليداً يرافقه، دون أن يعبأ به، وأن له يداً واحدة فقط. عرف منه أنه يرغب في مصاحبته للغرض نفسه. وأن قدرهما اللّحظة السّفر معاً في المركبة نفسها. كم تعجب وليد أمام ما يحصل الآن. هي الصّورة نفسها، تقريباً قد عايشها رفقة راحيل، وهي تكتشف أن يحيى قد أصبح أطلالاً، وهو يهب نفسه إلى النهاية المستعجلة.

سأل عبدالله: هل لك جواب واضح عن معنى النهاية؟ عن غموض العالم؟

أو تفسير عن ألغاز الحياة؟

أجابه: لا تضيّع حياتك في ترصد الأجوبة والتّفاسير؟

لا تنشغل بالفهم!

المعاني التي تترصّدها هي شكل آخر من أشكال التوهّم، لأن الحقيقي هو السرّ المتخفّي الذي لم يكشف بعد. نظن أننا نعي سيرنا في حروب الحياة، نترك آثاراً ليست كالآثار، وكأن لخطواتنا أهدافاً وغايات.

شعر وليد وهو ينصت إليه بذهول، أن هذا الرّجل استثنائي، له كلّ القدرة على صياغة المعاني المغلقة والتأمّل الجيّد في ظواهر الأشياء وبواطنها. وجد في لغة حديثه وإشاراته كثيراً من الإيحاءات والملامح التي استرعت انتباهه، وراحيل تتحدث وتنفعل وتصمت....

بات شبه متأكد أن هناك قواسم مشتركة تجمعهما... أن هناك قرابة ما داخل سلالة المعاني والاحتراق. تبادر إلى ذهنه وهو يبحث عن هذه العلاقات أن عبد الله قريب إلى الفلسفة والجمال، يقتسم وراحيل الإشارات نفسها والأحاسيس ذاتها.

كلاهما يتحدثان همساً، يخطّطان على الدوام لقتل القبح والضجيج، كما لو أنهما يعيشان بقلب واحد وبإحساس مشترك.

تساءل الآن: هل هناك حياة موحدة، منفردة، تجمع سراً سلالة الفلاسفة والفنانين، بالرغم من تباعدهم في الزمان، يديرون وجوههم إلى بعضهم بعض، وفي نظراتهم انطفاء ووداع؟ هي سلالة لا ترى... كأنها كائنات محلولة في الهواء، تشع بعبورها متآخية مع أشعة التّشابه، هو شأن عبد الله وراحيل، يخطوان على نقر الوقت المغتال.

زعم أن هذه السّلالة تلاحقها حشرات قارضة، تلتهم الضّوء والمناوير... وأن راحيل منزوية في أحداق عبدالله تتسلق جدران التمنّع الذي اختفى والأعمدة المجاورة تتمطّى في خرابها، تلفظ أنفاسها الأخيرة.

آس سقوطك أيتها السّلالة، وفاجع عبورك الذي لم يحدث بعد!

في الزقّ الملتوي يساراً، تعالى صوت جنائزي متهدّج لامرأة تقرب من الستّين. ظهرت وهي تجرّ وراءها كل خرائط الفجيعة المطرّزة بالنحيب والبكاء الحارق. كلّما ازدادت إيغالاً في الشارع الكبير، ازداد تبيّن عبد الله لصوتها الذي بدأ يتململ من عمق الذّاكرة ولهيئتها التي تركت في وعيه المنسي بقايا ملامح محفورة. هي النّبرة الصوتية نفسها بقيت موشومة في ذاكرته، وهو يسترجع هدير الأصوات المتظاهرة للطّلبة في الزّمن الذي ولّى. كأنّ أصوات الماضي وهيئات ناسه تتشطّح أمامه، تؤلف واقعاً حقيقياً للزمن الذي فات، أو مصيراً بثوب الحداد للذين اختاروا ذمّ العالم وغموض الطريق.

كيف تسأل عن هذه العلاقات من داخل الوجدان. أيها الحاضر، يا وائد الاستمرار؟

لمّا اقتربت منه تبيّن هويّتها، تسمّر في موقعه ولم يقو على الكلام. فوّض أمره إلى سلطة اللّحظة، وتخيّل نفسه يستجمع دموع الكون ويسكبها في شرايين العالم الذي جفّ قلبه.

نطق بصعوبة وكأن فمه مقفل: رحمة؟

استذكر توّاً أنها عشيقة عبد العزيز الوجدي لما كانا طالبين في كلية الآداب. كانا يغرّدان بتناغم على غصن واحد. كانت تجدل بحبّه ضفائر ذهبية تلقيها على كتفيها، تخطو كغزالة بريّة، وهي تجرّب أن تكون الصّوت الرافض. هو الصّوت نفسه يتردّد الآن ممزّقاً محطّماً، ولم يتبقّ منه إلا لكنتها الريفية المتوقّدة.

فهم من هيئتها، وهي ترتدي سروالاً وقميصاً رثّين، أن الزمن

قد انقلب ضدها، وأن دورته قد انتهت بها إلى الضياع... بدأت تتدافع في مخيلته أسماء وأمكنة وأحداث وجلسات عصفت بها خلافات، وفضاءات بعض المقاهي والحانات.

هكذا تناغم مع التذكّر المرير مهمهماً بخفوت:

- جرّبت دائماً أن أنسى، فلم أستطع.

ما هذه الكيمياء السرّية التي تنتصر على النّسيان... هذه المسمّاة بالتذكّر؟

أوّاه. ما أشقاي وأنا موزّع ما بين ظلمات الماضي ومجهولات الحاضر!

كم اجتهدت في أن أقنع نفسي بالاستمرار في الحياة، أن أجمّل الوقت الذي يتيح لي فرص التعلق بالاستمرار، أن أحبّ التأمّل والصّمت والموسيقى، أن أقرأ أساطير السّابقين ومآسي الإنسان. أن أعتبر الحياة مجرّد حياة عابرة فقط.

لكنّي في هذا كلّه، أجد نفسي دائماً شقيّاً أعيش حالات من التوتّر المريع، متنقّلاً دون إرادة ما بين تيار التذكّر المتغوّل وتيار النّسيان المحتضر.

لما كان عبد الله شارداً أمام رحمة منجذباً إلى حضرة التذكر، اندفع وليد نحوها يحضنها ليسكب دمعاً سخيّاً امتزج بدمعها وما تبقى من كحلها المراق.

تدافعت بعض الكلمات المختنقة في فمها وكأنّها تودّ أن تكشف سرّاً... أو أن تدين عالماً أدار ظهره لها. ردّدت أن زوجها قد ألقم

البلاد لحمه وقلبه، فسكن السّجن الذي نحت في زنازنه توائم الإنسان والحرية. اقتلعوا أظافره وأطفأوا أضواءه، ثم ألقوا به إلى هذه المدينة القاسية شبه إنسان، يذوب في شوارعها يغني لأشباح تطوف على أرض، وهي تطبق أجفانها، يلتمس منها، كاسراً حاسراً، خبزاً وجرعة هواء.. انزوى عبد الله قليلاً، والألم ينخر كل أطرافه، متأملاً رحمة وهي ترقعها المأساة والفقر، تتعثّر في طيّ حاضر نتن، يجرّ وراءه عربات من أشباح الماضي وأهواله.

قفزت به فراسته التي توقّدت بقراءته لصورة رحمة وإشارتها، إلى فهم صيرورة المصير الذي حمله على كتفيه عبد العزيز الوجدي ورحمة معاً، قبل أن يلقي بهما إلى جحيم ضياع ظالم.

يبدو أن اللحظة ها هنا مليئة بإيهام درامي يتوزّع ما بين توقف الطبيعة الإنسانية، وبين سكاكين غدر شامل له معاني الغد القريب. أحسّ بأنه يسمع صمت عدم الثقة يتزنّر بالآتي الذي لا وجه له. هكذا أصبحت ترنّ في دواخله أصداء الرّحيل إلى زمن ثالث، ليس بالماضي ولا الحاضر..

و في غمرة هذه المشاعر المنفجرة، دلف إلى رحمة يسألها عن مدى قدرتها على تبيّن هويته، برقت عيناها وقد غشّاهما الدّمع وشيء من الرّجوع إلى الذّاكرة. وبكثير من التردّد والتباطؤ، نطقت باسمه. ثم بعد أن تعرّفت عليه، أعادت نطق اسمه مرة أخرى، وقد حضنها عبد الله متلفظاً:

- لقد فرّ حلمنا الهادر من ضفتيه، فأكل بعضه بعضاً.

ضيّعنا العمر في ترصّد الأوهام.

أجابته منهارة:

- لم يكن عبد العزيز يوماً، قبل مرضه، يعيش الوهم أو الخرافة!

أقنعني يا شريكنا في الماضي بأن الأمر غير كذلك!؟

أبعدها عبد الله عن حضنه بحنو ولطف ودون أن ينطق بأية كلمة. انحرف جهة اليمين متثاقلاً يجر كل الكآبات، فيما اندفع نحوها وليد لمواساتها والبقاء معها.

أسرّ لنفسه، أنه كان محقّاً لما هجر الدّنيا وابتعد عن الناس، لأن العالم رديء للغاية، ولأن النّاس أشباح طوّافة تقتات من اللّحظة المهزومة تحت أهواء مطفأة. كل من هذه الأشباح يناضل لكي يكون سيّد التلوّن والتنكّر الأكثر فصاحة. صحيح أن مياه الإنسانية قد جفّت، غير أن في صلبها صديداً متكوّماً لا ينقطع عن الترسّب.

التنكّر وثيقة طاغية، تثبت أن النّخاسة عملة فريدة سائدة في كل شيء. في الدّين والسّياسة والحب وكل العلاقات. والحاضر ها هنا، إسمنت وحديد يبسم لمستقبل خلاسيّ يهبط من سلّم التاريخ دون أن يعي لحظة صعوده...

قرّر عبد الله أن يترجّل وحيداً، أن يسلك أقرب منعرج منه وكأنه يبغي الاختفاء السّريع.

هو الآن يشعر برغبة جارفة في الرّكض في المنعرجات، في أن يصاب بالدّوخة أو بالغيبوبة. لا يخاف أن يصاب بفقدان الوعي طويلاً، أو بالتيه الملعون في الزقاق المشعبة والملتوية، خوفه الأعظم

هو أن يعيش ما تبقى من العمر يخطو في اتجاه واحد مستقيم، يوجّهه صحو ويطوّقه الألم وسوار الفقد. فقد الذات بما هي ذات متصلة بالهوية الصلبة.

لذلك كله، عزم أن يحترف بلاغة الصّمت، أن يزيّن فضاء فجائعه بالوحدة المزنّرة بالإشهاد، أو بالغياب الذي يشبه الحضور الكاشف للمخبوء.

أيّ إشهاد يريد أن يكتب رسائله، وأيّ مخبوء يرغب في إجلاء ضباب النظر عنه؟

أحبّ هذه المرة أن يطلق لسانه للصّمت الأشيب، للوحدة الموحشة، أن يتحدّث مع كل أفق مسدود يحاور تمنعه، أن يسأل نفسه هل كانت زوجته راشيل محقة لما اختارت أن تقطع كل الخيوط التي كانت تربطها بالحياة. أصبح يتراءى له، الآن، رواق طويل مظلم يعمّره عزف بيانو غريب وتضيئه لوحات كثيرة لزوجته راشيل وروحها طير جميل يحوم من فوق رأسه المثقل بالكوابيس. ومع ذلك، يظلّ هذا الرّواق يتخثّر في زرقة داكنة تشبه السواد المتملّق.

* * *

لماذا إذاً، أيها الشّتاء لا تغسل تلك المساحيق المتراكمة على الوجوه؟

أنت اللّحظة تسقط بغزارة كثيفة، وتلك المساحيق مجرد طلاء فوقي على التجاعيد وتقلبات الملامح المتصارعة.

كم هي راغبة اليوم في أن تجرف المساحيق كلها، أن تسيل

بكثرة كالمجاري المخيفة، وهي تكشف الوجوه عن الوجه. يتعرّى الزمن نفسه، تظهر أخطاء البدايات ودسائس السّير كما تضيئها الطّرق المتآخية والطرق المتهادية بتخابث.

كيف استطاعت هذه المساحيق أن تصمد لسنين، أن تتحدّى الزّوال نفسه أو قلاع الانتهاء.. هي تجيء من تلقاء نفسها، من عمق الباطن، من دم القلب لتسيح في العروق وتملؤها، ثم تتوهّج في الوجوه لاهجة بكل اللغات الماكرة والمتضادة. إنها نتاج داخلي تصنعه بعض الإرادات. كما أصبحت متقزّزة من كل من يحمل وجهاً، أيّ وجه، ويبدي ملامحاً، أيّ ملمح؛ لأنها تيقّنت فيما بعد، أن هذا الوجه المحمول لا يدلّ على جوهر أبداً.

تعتقد أن هذا المكان، الذي هو بيتها، له رائحة ألوان مطوّرة، تنبعث من هذه اللوحات المنصوبة أمامها... رائحة صباغة مقتولة لا يزال أثرها ينبجس من حكايات تخبرها بأن التّشكيل الأول لهذه الشخوص المرسومة والملونة، هو خلق من روح عجيبة وغريبة. استشرفت الغيب المكابر وعلمت أن الشياطين تدثر بالألوان والأشكال. تتملكها لتعيد تكوين العالم وتحتل أحاسيسه وأفكاره. لذلك، غادرت تلك الروح عالمها تاركة وراءها صخباً عاتياً ومادة لونية مخبوءة، لكي يتابع القادرون من سلالتها، بعد غيابها، حروبها القاسية والطويلة.

توقفت راحيل عن التأمل، وهي جالسة خلف نافذة غرفتها المطلة على الشارع الكبير، تسأل المطر المتساقط بغزارة ومرور الناس، وهم يهرعون في اتجاهات مختلفة كالنّمل المذعور.

تخيلت أن هؤلاء النّاس يمرون أمامها، وهم يحملون مظلّات سوداء، يصارعون بها أفق السماء ويقتلون المطر في نصف طريقه إلى الأرض.

برحت موقعها متّجهة إلى غرفة نومها لتستلقي فوق سريرها ممدّة يديها الطافحتين بالعياء فوق اللّحاف الرّمادي الذي يكسو السّرير. تهيأ لها أن سريرها مركبة معطلة يجرّها فرس له هيئة الجثّة، وأن لا شيء ممّا مضى يشبه الدقائق الملتوية. استدارت على ظهرها تاركة رجليها تعبثان بالفراغ وهي تتأمل السّقف الذي يعلوها، وكأنه راقد من فوقها يخنقها، مجيّش بالحقد والظلام.

لم تحاول أن تهرب هذه المرّة من الوساوس الزّاحفة عليها، لأنّه تبادر إلى ذهنها أن الظّلام أصل الكون. أصل البدايات والنهايات. تذكّرت لمّا تفارق الحياة وتورّى التراب، سيكون الظلام زمنها الأبدي الكاتم للسرّ والحقيقة. أليس في الظّلام تولد الأسرار وتختفي؟

الآن، خُيّل إليها أنها بصدد تأليف نصّ موسيقي كان هارباً في منافي الوعي، وظل نائماً في دمها متّكئاً على تخبّطها وتعثّرها المستمر. قفزت من مرقدها مستغربة من شعورها بالرّغبة المزلزلة في التأليف والعزف، وقد انقطعت عنها سنين عدداً.

اكتشفت أنها لم تعزف أبداً معاني الظّلام؛ ليس الظّلام بالمعنى الذي يفهمه الناس، باعتباره قبحاً ورعباً وخوفاً، وإنّما من حيث هو حياة أبدية تتثوّى أمّ الخوافي والمغيّبات.

هل هناك خطأ في الإدراك؟ أنستطيع أن نقول إن أصل الضوء غموض واستغلاق يجليه الظلام فقط؟ لماذا إذن تموت الفراشات في

الضوء؟ يتحجّب فيه الإنسان ولا يظهر على حقيقته. لماذا يتسترّ فيه باللباس والأستار، نخفي أجسادنا الرّطبة؟ هل النهار نفسه يولد في أحضان الضوء. ألأن الضّوء يملك سلطة الإقناع، فصدق النّاس بأنه الانكشاف والرؤية والوضوح؟

كل علامات المكان تعنّفها بالأسئلة الصعبة، تتحوّل في مخيّلتها إلى غابة كثيفة موحشة، وهي تزحف داخلها.

ما أعجب هذه الأفكار! لا تعمل إلّا على أن تهيّج الاندفاع، ولكنها سرعان ما تذبل بتخطّي اللّحظة. هكذا وشوشتها رغبتها، وهي تتهيأ للتوجّه نحو البيانو الذي لم تلمس مفاتيحه منذ زمن طويل.

وبينما هي تسير في اتجاهه، شعرت بأن رجليها لا تطاوعانها حتّى تكمل سيرها. انتابتها هزّة تشبه الهلع، أو تيه الخائف في المتاهات، في دوائر التردّد القاسي، في معارج التذكّر المرير، ليس لأنها لم تلمس المفاتيح، بل لأنها لا توقن بأيّة قدرة ألم تقاوم أَلَمَ العزف المغاير؟ بالأحرى تعود إلى الغناء النّابت في أعمق نقطة في القلب.

تساءلت، هل تبقّى لها شيء من الرّوح حتّى تغنّي بالصّوت المتعبّد في العالم الذي ليس هو بعالم اليوم؟ أن تقطر النّغمات التي وئدت في الحجارة وكتب بدمها عناوين الكتاب الذي لم يقرأ بعد؟ ما رأيك أيها الإنسان الخفي الذي يعيش في الجوهر؟ ما رأيك أيها العالم الذي يصدأ في منافي الهامش؟ ربما لا الإنسان ولا العالم يجيبان؟ أو ربّما لا أحد منهما يعيش حتّى يجيب.

كلّا لا أثر ولا نبض ولا حياة...!

استطردت بأنها نفسها لم يعد لها أثر، بأنها تقيم في أوهامها فقط. تواصل حياتها فيما يشبه دورة الرّيح. كانت تظن أنها نفسها توأم نغمة عميقة في مزمار أفكارها اليتيمة، وكانت تعتقد أن هناك دائماً من ينتظرها تجيء من ظلمة اللّيل. تطأ عتبات الفجر المكمّم، وبين يديها أغنيات تتذثر الهزائم والإشارات. هؤلاء الذين اعتقدت أنهم ينتظرون، قد غادروا أماكن سكناهم وراحوا في أرض الله الواسعة يحفرون بخطوهم أشكالاً تتكرر، تسخر من أرسطو وابن رشد ومحمد عبدالوهاب...

لم تقدر على مجاراة كل الأسئلة الرّاكدة في دواخلها، لأنها بدت تحسّ بالتّعب القاهر؛ وبينما هي تتكئ على مرفقها الأيسر واقفة على الجانب الأيمن من البيانو، جلست متباطئة على الكرسي المخصص له.

حينئذ تخلّلتها قشعريرة باردة، أشعرتها بزمن العودة إلى نقطة الصّفر من حياتها، وكأنها رجعت إلى لحظة تكوّنها الأول. ظنت أنها تستلقي في أحضان ملاك يطرح عنها غبار الطريق وألم العبور الطويل...

مدّت يدها إلى الغطاء الخشبي، وهي ترفعه برفق لتفحص لوحة المفاتيح التي لم تباشرها منذ وقت لم تقدر مدّته. وجدت المفاتيح ذابلة، وقد صار لونها شاحباً كأنها هيكل عظمي مطمور في جبة النسيان...

رفعت أناملها راجفة وهي تبغي لمسها؛ لكنّها تردّدت وداخلها يتجادل مع الرّفض الذي عرّش في وجدانها، هي الآن لا تتذكر إلا

القبح رابضاً في الجهات يتربّص بالخير والجمال.. كأن أناملها مرفوعة مصلوبة على الهواء تتأوّه وتتلعثم. تريد أن تقول شيئاً ما، أن تصف العجز المتأجّج في دمها. هي الآن تسمع نحيباً يردّده الصّمت. تقرأ فيه نهايات تحكيها قصص الاغتيال وأشعار أبطال الخير المندحرين، أو تقرأ فيه جراح الأنبياء الذين ضربوا بالطوب وانكمشوا مبعدين في سراديب الهامش والنسيان.

- ماذا تقولين لي أيتها المفاتيح؟ يا من تسري فيك روحي وهويتي.

بماذا نصارح أنفسنا، وكل لعنات التّاريخ والمدينة تلاحقنا؟

بأي منديل نمسح خيباتنا ودموعنا الحرّى تجتذب تاريخ السقوط والنهايات؟

بكثير من التردّد أرخت أناملها على تلك المفاتيح، ثم راحت تضغط عليها بحنوّ، وكأنّها ترنو إلى بعث روح جديدة في الأوتار، بعدما جفّت فيها الحياة لسنين تترى. أخذت الأنغام تنبعث بطيئة، تسيل وكأنها تتهجّى لغة البدايات مخمّرة بزمن مرّ يخبّئ رسائل الأحزان الدّفينة.

ابكي أيتها الأوتار واسترسلي بغزارة لتمسحي بدمعك الطّلاء الحاجب للخطايا!؟؟ ابكي وانجلي كالشوق الغامر للنجم المنطفئ، للطّين المغدور في لهجة الوقت!

لم تصدّق راحيل أنها تحضن البيانو الذي هجرته، وكأنها تنفخ فيه روحاً مكبوتة وشيئاً من الحرّية المهرّبة.

فجأة نهضت من حينها هاربة في اتجاه غرفة نومها، وهي تغلق الباب من ورائها. وضعت يديها في أذنيها حتّى لا تسمع تردد تلك المقاطع التي عزفتها دون رغبة سابقة. استلقت فوق سريرها، وهي تفحص بهستيرية مباغتة أناملها وكأنها تراها تسيل دماً وصديداً، أو تنزّ منها شرارة بركان جارف، ضغطت على يدها اليمنى باليد اليسرى غاضبة، وكأنها قد اقترفت جرماً عظيماً.

شُبِّه لها أنها سائرة على طريق مخيف يترجم صوراً لها، وتلاحق أنغاماً شريدة وغريبة تهمس في أذنها اليسرى، أن الموسيقى قد مكرت بها طوال حياتها، وأنّها قد أخطأت الطريق. وأن الخير لم يكن له أيّ وجود أبداً. هو مجرّد وهم، وأن الشرّ هو الواقعي والأبدي مثل ما تحسّ وما ترى...

اندهشت من قدرتها على التحمل من استمرارها في التعثّر، ومن جهدها المضني في إقناع نفسها بأن هناك خيراً، وأن هناك حياة تطوف في الأفق تحمل دواوين شعر وأراغين وأنغاماً...

تخلّلت شفتيها ابتسامة يائسة لما استحضرت أفكار كونفوشيوس، وهو يلحّ على أن الدول التي تعتمد الموسيقى، تجعل شعوبها سعيدة متمتّعة بقدر كاف من الفضيلة، وفي غنى عن تشريع القوانين وضوابطها. لم يكن يعلم كونفوشيوس أن النّاس قد يتحولون إلى كواكب هاربة دون روح، تعيش في مجرات ثلجية ولا يتنفسون إلا الصقيع، وأن الموسيقى التي يحلم بها ستسقط يوماً أنغامها كامرأة أسقطت جنينها، أو كالماء الذي فسد وأصبحت له رائحة كريهة.

اعتقدت بأن ليس أمامها إلا عالم يقتلع عروقه من جوفه، ليصنع منها حبالاً يشنق بها الهواء.. فارقت سريرها الذي احتضن الهواجس التي تسكنها، وهي تتّجه نحو الغرفة التي تحوي كتبها وأسرارها. فتحت بابها ثم تخطّت عتبتها وأوقدت نورها، لتنخطف توّاً إلى وهج اللّوحة المتدلية على الحائط الخلفي... هي اللّوحة ذاتها بألوانها وخطوطها ومنظورها وفلسفتها التي اندهشت لرؤيتها في مخبزة العم عبد الله، ولو أن الرسوم والمنمنمات تختلف ما بينهما، أو هي اللّوحة ذاتها التي كانت سبباً في طلاقها من زوجها خالد وافتراقهما.

تقدّمت خطوتين ثم أوقدت المنوار المخصص لها، وهو يعلوها قليلاً، وكأنه يلفها بجناحيه يظلّلها أو يحرسها. مرّرت بارتجاف يدها فوق رسومها، وكأنها تتحسّس زمناً متلاشياً أو بعض ما تبقى منه دون أن تأبه بالتفاصيل وهجمة الألوان المضيئة. هي الآن تطلق يدها متحسّسة أنفاساً مكتومة ونحيباً سوياً يضع قناعاً من الوقت الميت. كأنها ترغب في الحوار مع إبهام الزّمن الذي مضى، ومع الغيب الذي لا يحسّ ولا يدرك. هذا الزمن المعرّش على اللّوحة له أجنحة لا تدركها الرؤية. أو له شكل يتدثّر بزّة التخفي ويتزنّر التمنّع العميق...

تبدو اللّوحة قبالتها فضاء خرافياً تطلع منه جوقة تتهيأ لاتهامها بأنها تلبس كل معارك النهار وأسرار الليل. تصرخ في وجهها، وهي تقول لها:

- اعترفي بأنك أجرمت لمّا اقترفت الكلام الذي هو ليس بكلام!

ضعي ذراعيك على خواصر التّاريخ المعطّل، لكي تنبعث فيك الرغبة في عناق خالد، والعري لحفاً وغطاء وهواء وشهقات.

سحقاً لسذاجتك وامتناعك المصرّ على قتل الرغبة في كل وقت!

لماذا تصرّين على ألّا تكوني صالحة إلا لكي تشاغبين وتثيرين الفتن؟.

أحست راحيل بشيء من الرّهبة يجول في صدرها، إذ خُيّل إليها بأنها أمام جوقة حقيقية من الأشباح تنبعث من عمق اللّوحة وأشكالها، تركض في اتجاهها، فاتحة أذرعها، وهي تهفو إلى تطويقها وكتم أنفاسها، تراجعت خطوات إلى الوراء. ولما تردّدت عيناها في تصديق توهّمها، انفجرت باكية تلعن الزمن وقوافل القسوة وغدر المسار.

كانت هذه اللّوحة سبباً في طلاقها من خالد. ولكن تساءلت في سياق تأملها المبعثر، لماذا تشبه اللّوحة التي رأتها في مخبزة العم عبدالله؟ هذا يعني أنهما صادرتان عن شخص واحد، فائضتان عن قلب فرد منفرد؛ هي الأحاسيس نفسها تتكرر وتتناسل في اللوحتين، تنشد الإيلام الدائم لجرح لم يشف، لنزيف لم يتوقّف.

ليس لهذين اللّوحتين المتشابهتين أيّ معنى، إلا في وجدان عبدالله وراحيل، وكأنهما جمع لشيء غامض يغذّيه القلق والخوف.

تشعر راحيل بأنها منشدّة إلى الهيئة المتلاشية لعبدالله، إلى صورته المكابرة وصوته المسكون بخيول شاخ صهيلها وأعطبت حوافرها، تجرفها رغبة رعناء في الجلوس، إلى جانبه وهو يحدّثها بنظراته المنهزمة عن مسيرة الزّمن وعمّا تبقى من سلالة الشعر والفلسفة.

كأنّ كلّ شيء في حضرته ينكشف. يومئ إلى سفن الجرح

العميق، سفن لا مرافئ لها. لم يكن كلامه بالغامض عن العبث والخواء، عن فقدان المعنى في المدينة، عن انهيار الآدمية وفشل المسار. كانت كل معاني أحاديثه مختزلة في حركات يديه المضمّختين برائحة العجين، وهو يوضّح ويفسّر ويشرح في الهواء جثث العبث الكاسح...

غادرت الغرفة ورأسها يغزوه هدير أفكار خلاسية. ألقت بجسدها المرهق فوق أريكة مريحة مصنوعة من الصوف وجلد وثير. استسلمت لزفرات عميقة ومتقطعة، وهي تغرق في ترداد الصّور القديمة والذّكريات. ودّت لو كانت تقدر على أن تقتل هذه اللّوحة التي تئن في أحشائها، على أن تهجرها أو تهجّرها إلى العالم البعيد حتّى تقطع أيّة صلة بها، وتنسى التاريخ الذي يدل عليها. ولكنها في النهاية لا تقدر، لا تستطيع أبداً... أبداً.

وعت في يوم من أيام طفولتها أنها كانت تأوي في دار لرعاية الأطفال اليتامى والمتخلّى عنهم، وأنها لا أب لها ولا أم. تحيا دون عروق في تربة أيّام متحرّكة حول ذاتها تأكل حبّاتها والندى الذي يغذيها.

كانت تصغي في كل مساء إلى موّال يتصاعد من حنجرة متصدّعة لامرأة مسنّة تعلّم أطفال الدار العزف والغناء. انخطافها إلى الموسيقى أنساها السؤال عن والديها؛ إذ خيل إليها أن العالم والناس ليسا إلا أشكال غيثارة أو ناي أو عود. ظنت أن الدنيا مجرد أصوات غنّاءة تصدح بالأنغام، تلهج بالأسرار الدافئة والمؤانسة الشافية.

حفظت عن ظهر قلب الموشّحات، وتمكّنت من مختلف المقامات.

كانت تنحني في كل مساء لتحيّي معلمتها بعد انتهاء حصّة تعلّمها. كلما وضعت المعلمة يدها فوق رأس راحيل، أحست أن سماء زرقاء رحيمة تحطّ فوق هامتها تنفث في دواخلها رائحة حياة زكية مباركة.

توطدت علاقة روحية بينهما، إذ لم يعد في مقدور راحيل أن تعيش دون معلمتها زينب، كلما وقعت عليها عيناها، شعرت كأن الذي أمامها وفي حضرتها، موجة مضاءة آتية من سر مكين، لتلفّها بدفئها وتصونها من أهوال الغيب.

كانت راحيل تتحيّن فرصة وضع رأسها على الفخذ اليمنى لزينب متشهيّة أظافرها، وهي تحرث بلطف تلك الممرات الدقيقة ما بين منابت شعرها، تروي لها حكايات الأولين وقصص الأنبياء وحكاية اليتيمات الفقيرات اللواتي تزوّجن من أبناء الملوك والأمراء والأثرياء.

في كلّ مرّة كانت زينب تسترسل في حكيها بصوتها الرخيم المنوّم. كانت راحيل بشعرها الكثّ المتهدّل على وجنتيها تغرس أنفها في بطن زينب، وهي تستنشق عميقاً وبتكتّم رائحتها التي كانت مصدر اطمئنانها المفقود، أو مصدراً لاستمرارها في حياة ترنّ بأصداء المجهول الذي يرعب.

ما هي هذه الكيمياء الخفيّة التي تملكها راحيل التي استطاعت أن تأسر وجدان زينب، وتتدفّق في أحشائها كالنطفة العجيبة حتّى غدت جزءاً من كيانها أو كفلذة كبدها؟

لم ينفك هذا السؤال عن التردد في رأس زينب، وهي في كل يوم تزداد انجذاباً وتعلقاً بالطفلة راحيل. ليس لأنها تذكرها بماضي طفولتها الذي قضته بدورها في دار الأيتام، وإنما لأن لهذه الطفلة سرّ

عجيب يسري منفرداً في عينيها ذات النظرات الدافئة، وفي صوتها الذي يذهب إلى القلب أبعد ما تذهب الريح النقيّة إلى الروح؛ حينما تغنّي تشعرك بأنها في تنافس مع ألق الطّهر تسبقه دائماً إلى الجوهر الأصلي لتكوّن الخليقة.

ما أجمل أن تصغي إليها وصوتها يعلو كأنه نداء العودة إلى النبع الصافي المحجوز في مملكة الصخر والصراخ وصرير الأحذية. فضّلت زينب أن تهب حياتها إلى أطفال الدار، أن تصارع الوقت اللئيم الذي يقود هؤلاء التّعساء إلى نفايات الضياع وأهوال الطريق. قضت ستين حولاً من عمرها، وهي تقاوم عنت الزمن. تغزل بنظمها الشعر والغناء والتلقين متاريس للصدّ والاحتماء. تعلّمت بعد عراك مع الليالي القاسية لغات الوعي المفضية إلى الوحدة المتوهّجة والابتعاد عن رداءة الأيام، همّها الأوحد أن تصنع بقدر المستطاع جيلاً من فتيات الدار يعشن بأفكار غير قابلة للذبول.

يخضن تحدّيات الحياة بوعي مسكون بالحقّ والخير والجمال. كانت تردّد دوماً بأن الوعي الحيّ يقود الحياة ويضع المصائر والمآلات...

إنه رديف التضحيات وصنو الموت القابع في أسراب الطّيور المقاتلة، وهي تبني أعشاشها.

طقس الوعي هو وحده الذي يرسّخ النّبل، وحده الفارس الذي لم يعرف الهزيمة. قد يترك وراء حروبه المآسي والفواجع. لكنها مهما كانت مروعة وفاجعة، فهي تؤسس لوضوح الحياة، تحول دون تناقض العالم. الوعي هو الوجود، هو الهندسة المفتوحة على الانسياب الحرّ، هو الموسيقى التي تبرّر غبار الطريق.

ردّدت هذا الكلام دون عياء، كلما تحدّثت إلى راحيل وهي تحضنها، تحقنها عبر لمساتها حنان الأم المفتقد، والثقة في المستقبل. ضربت لها المثل عن كثير من قصص نساء مررن عبر التاريخ، يصنعن الأساطير المتوثّبة والمواقف الخارقة.

قصت لها ذات ربيع عن جان دارك، عذراء أورليان، التي رأت في منامها، وهي في الثانية عشرة من عمرها، ملاكاً يأمرها بنصرة شارل السّابع وتحرير فرنسا من هيمنة الإنجليز. عاشت حلمها داخل وعي متوقّد شغوفة بالموسيقى وقراءة الفلسفة وتاريخ الأديان، ولما بلغت السّادسة عشرة من عمرها، ولجت بعد عناد وإصرار متلاحق الديوان الملكي، وهناك أقنعت شارل السابع برؤيتها، فسمح لها بمرافقة الجيش مع تبنّي خططها ونبوءتها في الحروب. غيّرت مجرى المعارك وتمكّنت بقيادتها للجيوش تحقيق انتصارات مجيدة. كانت جان دارك تكبر في حلمها، تشيّد لوعيها قصوراً من المعاني والدلالات إلى أن سقطت ذات مساء من فرسها بعد أن أصيبت بسهم في كتفها، وهي تقاوم رافضة لأي استسلام. وفيما كانت تتجرّع معاناتها في الأسر وحيدة، وقد تخلّى عنها الملك شارل وأصدقاؤها، عقد أعداؤها العزم على إعدامها حرقاً في السوق القديم بالمدينة بتهمة الزندقة. كانت يومها في سنّ التاسعة عشرة من عمرها. أحرقت مرتين وقد تحول جسدها الشامخ رماداً هشّاً. خاف الملك وأعداؤها من أن تنبعث من رمادها وتنشر وعيها ونبوءتها، فالتقطوا هذا الرماد ذرة ذرة وأتلفوه في نهر السين عبر جسر 'ماتيلدا'.

قصت زينب حكاية جان دارك، وبكت راحيل بكاء طفلة

متألمة، تسكب دمعها في الجرح العميق لمعنى لا وضوح فيه. لم تجد كلاماً يناسب مهابة مقام جان إلا التفوّه بتمتمات غامضة، كأنها طلاسم تلعن هيئة العالم وخبث الزمن المتقلّب.

تأثرت راحيل بشخصية جان دارك، تفحص بخيال فضولي أدقّ معاناتها وآلامها. يمزّق الأحشاء. ذهبت بخيالها إلى أن جان دارك تأتيها كل ليلة مبلّلة القدمين بلهيب متمرّد، وعلى رأسها وكتفيها منديل من ماء مسترسل يشبه شلال نور خالب. ظنت أنها خلقت لأن تكون امتداداً لصوتها المنفرد المجروح بالغربة، وأنها خلقت للمعنى ذاته، للوجدان الذي عجز عن استطلاع الطريق.

هكذا تساءلت راحيل بين جناحي زينب، تُصغي إليها وتتعلم منها التاريخ والفلسفة والغناء.

ولما بلغت السنة الخامسة عشرة من عمرها، أصيبت زينب بداء السل، الذي تمكن منها وأقعدها الفراش. سرق بريق عينيها وألبسها الشحوب والعجز عن الحركة، ما عدا حركات حنجرتها وهي تقذف دما مخثراً يمحو ملامح شفتيها. ذات ليلة أرسلت في طلب راحيل، وقد حزنت من أجلها بحرقة ولم تكن تطيق فراقها، بالرغم من إلحاح الأطباء على الابتعاد عنها مخافة إصابتها بالعدوى. جلست راحيل بالقرب منها واضعة يدها اليمنى على جبينها الباكي، تتحسّس درجة الحرارة المنسربة إلى عروقها. فتحت زينب عينيها المسبلتين، تنبس بشفتيها المتيبستين والمشقّقتين، يعلوهما شيء من الزّبد الخفيف، طالبة إليها بخفوت أن تعزف على الأوراغن وتغني لها قطعة من قصيدة 'لمن يشاء' التي كانتا تغنيانها معاً. ولما شرعت راحيل في

العزف وانتقلت إلى الغناء مردّدة:

أؤكد لمن يشاء

أنّني قبل أن أودّع الحياة

فضضت كل الأختام

أقنعت الشّعب والسّلطان

أن للحياة نوراً قد انطفأ

توقّفت راحيل عن الغناء جاهشة بالبكاء، ملقية بالأوراغن جانباً، لتستلقي فوق زينب تتوسل إليها ألا ترحل وتتركها للوحدة والضياع... قبّلت خدّها وعنقها كاملاً، وهي تغمرها بالدموع الحرّى، تناشدها أن تستمر في الخطو برفقتها ولو بضع خطوات، لأن الطريق معتّم دونها لا تعلم نهايته.

مدّت زينب يدها راغبة في لمس وجهها وتحسّس قسماته، تبغي اغتراف شيء من مائه تروي به عطش الغياب الذي سيطول أبداً.

نظرت إليها راحيل مضبّبة العينين في لحظة صمت سادت بينهما، وكأنهما معاً منهمكتان في كتابة أشياء تتخطى حاجز التكتم أو الإشارات.

تركت زينب لعينيها أن تسبحا في ما حولها، وتستسلم للبوح لتخبر راحيل عن ظروف الإتيان بها إلى دار الأيتام...

ارتبكت وكأنها تتهيأ لأمر مخيف. شعرت بأن الحقيقة تضعها على حافة جرف هار أو أنها قاب قوسين أو أدنى من الهاوية إلى قرار

فجّ الزّمن الغائر. لم تأبه زينب لقلقها، فبادرت إلى القول بأن الحقيقة بداية، وامتداد منساب لا يتكرر أبداً.

وحده الكذب يتكرّر، وحده الخوف يتكرّر، وحده الوهم يتكرّر. نذير وجوهنا دائماً، من حيث لا ندري، إلى الشّيء الذي يتكرّر، نسير على هديه في المدى وكأننا نحفر بتوهّمنا صور العبث، ننحت... وجوهاً متشابهة وأشكال العدم المخروطة في اللاوعي الماكر... إننا نكرر الفعل في فضاء مثقوب.

أخبرت زينب راحيل بأنها وُجدت صبية برفقة أمها تحت ظلّ خائف، وقد أسندت ظهرها إلى جذع شجرة في أحد الحقول البعيدة عن المدينة. وجدوا أمّها ميّتة بعد أن قطعت شرايين معصميها، فيما كانت راحيل الصبية متمسكة بها صارخة مذعورة وقد زحفت عليها الدماء ترسم من حواليها خريطة أيام حبلى بالمفاجآت الأليمة. كانت بجانبها حقيبة يدوية فوقها ورقة، مُثبّتة بحجرة صغيرة، كتبت عليها: ها هي الحقيقة تتجسد في الموت البطيء الذي نختاره. تضع قناعاً من الجرأة والاختراق وتحاور الاستمرار المخلوط بلسان التوقّف أو الإيقاف.

هذا التّسامي الذي له الآن صلة وصل بين الحقيقة والسماء، دليل على الوحدانية العالقة بين الشكّ واليقين.

آه! أيّتها الصبيّة، الخطأ الذي لم أقترف غيره، معذرة!

خدعتني الرّغبة ونهشتني اللّذة فرقص الاختيار الموهم في داخلي، أنجبتك وأسلمتك إلى موجة الحياة، حيث يبدأ ضياعك الوجودي. مرة أخرى معذرة يا شبهي الذي أتمنى أن يكون غيري!

تسمّرت راحيل في مكانها، مأخوذة بالدّهشة القاتلة وبالارتباك المريع؛ وبينما هي تحاول الكلام لتستفسرها أكثر، قاطعتها زينب مغمغمة، حتّى تستطيع أن تتم قصّتها قبل أن تغادر الروح جسدها.

قالت وقد ثقل لسانها: إن الحقيبة كانت تحتوي على لوحة فنية بديعة ملفوفة بعناية في قماش من الحرير، مصحوبة بصورة لها كتب على ظهرها:

أهدي هذه الملامح المتصارعة إلى ابنتي التي ستدرك بأن الأمومة أكذوبة، وأن الإنجاب تكرار لفصيلة من الكائنات التي فقدت كينونتها وجهلت سرّ خلقها.

ألقت زينب يدها من تحت وسادتها لتخرج مفتاح دولابها الذي يحضن ملابس راحيل وأشياء قديمة، طلبت إليها أن تفتحه، لتتسلّم الحقيبة وقلادة من ذهب وسواراً قديمين أرادت أن تهديهما إليها. نهضت راحيل ذاهلة في اتجاه الدولاب. وبعدما تسلمت الحقيبة وفتحتها ورأت صورة والدتها، صرخت مخنوقة تتخطّفها أمواج فاجعة جارفة. تأمّلت كل تفاصيل الصورة، وعيناها بركان دمع مهيب يذوّب الأشياء والحجر. تملّكها نحيب مسترسل له أنغام أوتار الكمان الجريح. صرخت مردّدة ما حفظته من زينب:

ليس للزمن غير الألم الذي يسكن الإنسان!

لما توجهت إلى زينب تشكوها حظها العاثر، وجدتها قد فقدت الحياة.

لمست إحدى يديها فوجدتها باردة مرتخية. اقتربت من وجهها

فصدّتها ابتسامة مكبلة بالحسرة. حينها عانقتها بقوّة، ولمّا تأكد لها أنها قد فارقت الحياة، رجعت القهقرى وكأن قوة كارثية تجذبها إلى الوراء. تردّدت عيناها في تصديق ما حدث هذه الليلة. وبعد زفرات أطبقت عليها، انفجرت صارخة بصوت قوي وممتد ارتجفت لدويّه ستائر الغرفة، وارتعدت لسماعه الطيور مغادرة أوكارها، والأشجار هاربة مذعورة.

في هذه اللحظة التي انخطفت فيها راحيل إلى التذكّر، تأملت ماضيها المتعوس، فعاودتها ومن حيث لا تدري الصرخة نفسها، فنهضت من حينها واضعة رأسها ما بين يديها مبهورة الأنفاس، وقد تلاحقت ضربات قلبها على نحو متسارع. اتجهت إلى ثلاجتها لتخرج منها دواءها بعد إحساسها بأن خفقاناً شديداً قد أثقل على صدرها وتنفّسها. ملأت نصف كأس بالماء ووضعت فيه قرصاً إضافياً من الحبوب التي دأبت على تناولها يومياً. تردّدت ثم امتنعت عن شربها أملاً في وضع حد لحياتها الآن، لأنها سئمت من دورانها المحتوم داخل الدوامة العصبيّة نفسها... اكتفت برشف قليل من الماء، من قنينة كانت بجوارها، ثم ارتخت على كرسي من خشب يقابل طاولة الأكل.

وضعت يديها متعانقتين على الطاولة، ثم حطّت برأسها فوقها، منخرطة في تنفّس عميق، استطاعت من خلاله أن تتجنب مضاعفات نوبتها القلبية.

لكن لم تستطع التوقّف عن التذكر والهروب من جاذبية الماضي، حاولت أن تنشغل بتحضير فنجان قهوة، وإن لم تكن من عادتها شربها في المساء. ها هنا باغتتها صورة خالد، وهو يطفو فوق موج

الماضي وكأنه حاضر معها، يجالسها ويملأ الفضاء بصوته وسعاله المزفور بروائح سجائره، حتّى رائحته تخلّلت أنفها وعروق رأسها كأنها تنبعث من سرير نومها ودولابها، تلاحقها في المطبخ وفي كل خطواتها.

خُيّل إليها أن حضور خالد يتفجّر من كبد البيت وشرايينه. حاولت أن تقاوم رغبتها في الانقلاب على مقولة ابن عربي: ' كل مكان لا يؤنث لا يعول عليه'، باعتبارها كل مكانٍ لا يذكّر لا يعول عليه. حاولت أن تفر من حصار هذه التخيلات، أن تنشدّ إلى واقعية الحاضر، ولكنها وجدت نفسها تتدحرج كمثل حبّة زيتونة جريحة، إلى معصرة تذكّر لا خريطة له.

غادرت المطبخ ويدها اليمنى الحاملة لفنجان القهوة ترتعش على إيقاع طقطقة قرع الفنجان ذاته للصحن الصغير الذي يتربع عليه. ومن حيث لا تدري، عادت إلى الأريكة نفسها الممتدة وسط الصالون كي تحط عليها جسدها الواهن وتتلمّظ مذاق القهوة المر وطعم الانهيار المخاتل. قالت لنفسها بأنها تعيش ولا تجد ما تتمسّك به إلا الحسرة.

خسارات تتناسل وتتعاظم كالفطر. هيهات للآتي أن يصلحها. ليس للمستقبل إلا صوت واحد في مملكة القبح تتوزعه بهلوانات فقدت وجهها بالمطلق.

لا شيء! السفر لا يجدي داخل النفس وفي ذات الوقت ليس هناك أفق مسدود. مفارقة عجيبة، لكن المؤكد أن للأفق المفتوح مسماراً تدقه المأساة.

قولي أيتها الحياة الخرساء شيئاً. إشاراتك المغلولة وهج. كلامك المقتول حقيقة.

رشفت شيئاً من القهوة ووضعت الفنجان جانباً، ثم استلقت ممدّدة على ظهرها، تُسند رأسها فوق يديها وكأن الوسادة غير كافية لإراحتها.

رأت نفسها لما التقت بخالد لأول مرة، وكانت في عمر الزهور، تعزف على البيانو في مسرح المدينة أمام جمهور غفير من المثقفين والشعراء والموسيقيين وقليل من السياسيين.

تذكّرت كيف استطاعت ليلتها أن تأسر قلوب الحاضرين، أن يقفوا لما انتهت من العزف للتصفيق لها مدة طويلة دون انقطاع. وكيف استرعى انتباهها شاب طويل القامة وسيم، يجهش بالبكاء ثم يمسح دمعه بمنديل مجعّد.

وفيما هي تتهيأ لمغادرة المسرح من بابه الخلفي، حاصرها الشاب بحضوره المفاجئ يأملٍ في التعرّف إليها، ويراها أكثر مما كان يستمع إليها. مدّ إليها يده قائلاً:

- اسمي خالد! جئتك لأعبّر لك عن إعجابي المنقطع النظير بمواهبك الربّانية.

كان عزفك كالشّهاب الذي شعّ في روحي المظلمة؛ لكنه هاجر إليك في سرّك العميق لما انقطعت عن العزف.

أحسّت راحيل في نبرات صوته كثيراً من الصدق والدفء. ابتسمت له شاكرة، ثم استأذنته بالرحيل. ألحّ خالد على أن تقبل منه

بطاقة زيارته، ترددت قليلاً، ولكن نبضاً عميقاً في قلبها حفّزها على تناول البطاقة منه، ومنحه بطاقة زيارتها وقد أخرجتها من حقيبتها اليدوية. وبعد أن تبادلا إشارات التحيّة والانصراف، غادر وهو يرسم أمامها انسحاباً بخطوات شعرية مدوّنة على إيقاع نظرات رومانسية. خيّل إليها خلالها كأنما أخذ شيئاً منها ورحل. ربطت مباشرة ما بين خطوات انصرافه المتهادية ورؤيتها له حين كان يجهش بالبكاء ويجفف دمعه. شيء ما أربكها من الداخل من خلال تجربة هذا اللقاء القصير. أصرّت على أن تقطع مع هذه الأحاسيس المباغتة، أن تنسى ما حدث، وتنطلق بسرعة إلى سيارتها التي لم يمض غير أسبوع على شرائها.

وبينما هي في طريقها تردّد بصوتها مقطوعة من عازف الليل لإلياس الرحباني، طلعت في رأسها إشارات تنبجس من هذه المقطوعة التي استشرفت من خلالها أن حبّاً يزحف نحوها، يطوّقها من كل الجهات، ويسلمها إلى نهايات في غابة محروقة. امتدادها رماد وحدودها صقيع عات. اجتهدت في أن تصدّ هذه الإشارات التي تجثم على أنفاسها، باعتبارها هلوسات عابرة. ودون رغبة منها راحت تدندن بصوتها الذي اعتلاه التوتّر شيئاً من أغنية 'حورية البحر' الرائعة اليونانية لـــ: 'مانولويزو'.

عندما وصلت إلى شقتها الصغيرة التي كانت تسكنها بالقرب من المعهد الموسيقي الذي أصبحت تدرّس فيه، تناولت باضطراب يقرب من الفوضى شيئاً من الجبن والخبز وحبات رمّان قد أعدّتها سلفاً. لم تقو على تحضير درس الغد الذي يتعلق بتاريخ الموسيقى

العربية. فضّلت أن تنكب عليه في الصباح، لأن حصتها في التدريس ستكون غداً مساء.

راجعت في سريرها سهرة اللّيلة. استحضرت أداءها ووقفة الجمهور الطويلة لها إعجاباً بها. وخلال ذلك، انبرت أمامها صورة خالد الذي كان يذرف الدمع... وهو ينتظرها خارج المسرح طالباً التعرف عليها.

- ما أبهى هذه الليلة وما أروعها!

هكذا تمتمت راحيل وهي تتقلّب وسط سريرها. فجأة داهمها السؤال من جديد. من أين جاء هذا الشاب ذو العواطف الجياشة؟ لماذا لمحته بمفرده وسط ظلمة القاعة يبرق بدمع ماسي؟ لماذا لم تأبه بالآخرين؟ ألم يكن منهم من بكى كذلك؟ ألأنّه كان جالساً في الصفوف الأمامية؟

تقلّبت في فراشها مرة أخرى، فأدركت أن النوم قد جفا عينيها. لذلك أوقدت النّور وجلست القرفصاء واضعة يدها اليمنى على خدها تائهة في تأملات من الأسئلة، خاطبت نفسها، إنّ قسمات وجهه شاطئ من أسئلة يتعذر عبورها، وإن هيئته فضاء يتسع لكل الرؤى، هي الآن تعترف بأنها رغبت في أن يطول لقاؤهما، لأنها لمست في روحه أوتاراً لا ترى، تعزف نشيد الخرافات الجميلة وأحداث التاريخ المجهولة. قرأت في خطواته بعد أن ودّعها، أنه يسير على التراب نفسه الذي تترجّل عليه، وأنه يلوح إلى الأفق نفسه الذي تشخص إليه بضوء قلبها الخافق بالحياة.

ربّما ليست هذه العواطف التي تتحول في داخلها إلا توهّم. هكذا تساءلت مع نفسها، ولكنها أكدت باقتناع أنها تنقاد إلى ضوء يجرّه فارس نحو غابة يسكنها الضّباب.

بعد يومين وبينما هي في بيتها، دفعتها قوة غريبة إلى العزف على البيانو، ممزوجة بانشدادها إلى صورة خالد التي حاولت عبثاً طردها من مخيلتها. رنّ الهاتف بإلحاح داخل غرفة نومها إلى حدّ أن سقط فيه الإيقاع من بين أناملها. نهضت مسرعة كالغزالة إلى الغرفة، التقطت السماعة، فقفز صوت هادئ يلهج باسمها سائلاً: راحيل؟

سكتت لحظة وقد تيبّس الكلام في حنجرتها، ثم أجابت:

- الأستاذ خالد؟

استسمحها إن كان قد أزعجها في مثل هذا الوقت، وقد انصرم من الليل ثلثه. لم تبد أيّ انزعاج من مكالمته لها، وقد أطبقت ابتسامة لطيفة على شفتيها.

أخبرها بأنه يرغب في مكالمتها، وينوي استضافتها لأحد فنادق في أحد فنادق المدينة بمناسبة مناقشة فكرية حول قضايا المجتمع والسياسة. تردّدت قليلاً وبعد أن استفسرته عن موعد اللقاء، أخبرها بأنه سيعقد بعد أسبوع، وتحديداً يوم الخميس. قبلت دعوته شاكرة، ثم أعادت السماعة إلى موقعها بتباطؤ. انتابها إحساس يختلط فيه التردّد بالندم. بقيت في مكانها ساهية يتخطّفها كثير من الأسئلة والتّداعيات وهجمة أحاسيس تتوغل فيها رويداً رويداً:

- أيّها الإنسان الذي يتمطّى في دمي، ما رأيك؟

ما رأيك أن أنقاد منجذبة إلى طلب رجل، الأمر الذي لم يحصل لي أبداً؟

ربّما لأنّه صوّب نحوي دمعاً أصاب أبعد نقطة في الروح؟

هل لي أن أطمئن لنافذة أكلت ستائرها المسدولة؟

اعتبرت بأنها لا زالت تعبر دهاليز غربة أحرقت أبوابها، لكي تذرو رمادها إلى العبث. استدركت بأنه ما كان عليها أن توافق على طلبه، لأنها ليست مهتمة بالموضوع الذي من أجله وجه لها الدعوة... كما أنه لا وقت لديها حتّى تضيّعه في حضور هذه المناسبة.

وفيما هي تقف بين التردّد والندم متوجسة من الآتي الذي لا تعلم مخرجاته، رنّ الهاتف مرّة ثانية لتطلعها زميلتها الشاعرة حسناء بأن إدارة مجلة 'فن' تأمل قبول استجوابها، وأن الكاتب والسياسي خالد قد كتب عنها مقالة عميقة، أرسلها اليوم إلى المجلة التي ستصدر عدداً خاصّاً في الأسبوع المقبل. أخبرتها أن المقالة التي كتبها عنها بمناسبة غنائها قبل يومين، تفيض بأنبل الأحاسيس، وكأن خالداً كان يكتب بدقات قلبه لحظة موسيقية تنعقد فيها كل معاني الإنسانية المفقودة. أردفت إن المقالة تشبه عزفاً فلسفياً على هامش عزفها الموسيقي. أو كأنها محاكاة بلغة الفكر والتأمل العميق لنبرات أوتارها وصوتها السّاحر.

ذهلت راحيل من كلام حسناء، وبتلقائية سألتها إن كانت تعرف الرجل، أجابتها حسناء بأنه رجل ليس ككل الرجال. هو غارق في الفلسفة والسّياسة، يكتب المعاني الفريدة ويقرأ ما لا يقرؤه النّاس أو ما يتهيّبون قراءته. كلما رأى الأفق تنكسر أجنحته شهر خناجر وعيه

ووجدانه، ممتطياً اندفاعه الغاضب لينتهي دائماً والسلاسل في يديه ورجليه داخل الزنازين المريعة...

مشى في أحداث الدار البيضاء 1965م، حافي القدمين يرسم بخطواته الثابتة الأفق الممكن، ويداه مشرعتان تراود السّماء المحجوزة بعيداً، تلثم الجرح الغائر. كتب يوماً أننا نسعى ضد إرادتنا، نسافر خارج الوعي وفي دواخلنا ذواتاً تأكل بعضها بعضاً. لنا وعي غير الوعي الذي تردده ثرثرتنا. وعينا في حركة مقلوبة دائماً، يلهث وراء إغراء السيّد المعصّب بالرذيلة، فنتوهم بأن حضرته نوراً، وهكذا ندخله، فنموت مثل الحشرات الطائرة.

كلّما أصغى خالد إلى الشّعر والموسيقى والمواويل الصّاعدة من حناجر الفلاحين المتعبة، ينكفئ في صمت الخاشعين شارداً مستسلماً إلى البكاء، وكأنه يقطّر من عينيه جوهر الحزن المنحدر من صلب التاريخ القديم.

في محاضرة له الشهر الفارط عن رجال المقاومة وجيش التحرير وما تعرض له بعضهم من إعدام في بداية الستينيات، توقف عند شخصية محمد بن حمّو العيّاشي الذي صدر حكم الإعدام في حقه وعشرة من رفاقه بتهم حيازة السلاح والإخلال بأمن الدولة والقتل العمد. رفض بن حمّو وضع العصابة على عينيه، ونطق بكلماته الأخيرة: اتركوني أرى لآخر مرة سماء المغرب الذي ضحّيت في سبيله. 'تصادت الأصوات والخواطر وصاح عبد الله بن لحسن الزناكي الذي كان برفقته محكوماً عليه هو الآخر:

'يحيا الوطن'.

وقتها لم يقو خالد على إتمام محاضرته. توقّف ثم أجهش بالبكاء ماسكاً جبهته بأصابع يده اليمنى وسط صمت أطبق على النّاس الذين تأثروا في غاية التأثر. لم يقدر على الاستمرار في محاضرته إلا بعد أن حفّزه الحضور بوقوفه التلقائي مصفقاً بحماسة، وكأنه يشيّع رمزياً هؤلاء الذي مضوا يتدثرون الدم إلى الموت الاختياري، يمدّون يداً تتطاير في راحتها أشلاء كل الإشارات.

بعد برهة صمت سادت ما بين حسناء وراحيل. استأذنت الأخيرة في التوقف عن المكالمة معلّلة ذلك، بأن هناك طارقاً على بابها، لأن راحيل باتت تشعر ببرودة أطرافها وتخدّر رجليها، ولم تشأ أن تخبر حسناء بما ينتابها من جراء اطّلاعها على شخصية خالد التي لم تكن تعرفها.

أرادت أن تخرج لتسعى في طرقات المدينة كيفما اتفق. تأكّد لها أنها تعيش لحظة قلق وفَوَرَ أعصاب. اختارت أن تتّجه إلى البيانو لكي تعزف، ولكنها وجدت نفسها تنقاد أخيراً إلى تناول ديوان نزار قباني باضطراب. ولما قرأت قصيدة 'إلى رجل'، توقفت عن تقليب أوراق الكتاب، لتقرأ بعض الأسطر:

'أنا أحبّك أن تساعدني، فإن من بدأ المأساة ينهيها

وإن من فتح الأبواب يغلقها، وإن من أشعل النار يطفئها'

ولما وعت بصوتها يعلو متقطّعاً، توقفت عن القراءة وأطفأت أنوار غرفتها لتداعب النوم فوق سريرها، تستمع إلى سمفونية 'ضوء القمر' لبيتهوفن.

مرّ أكثر من ساعتين تعارك صور الأحداث والتوجسات عبر

أشكال متلاحقة في جفنيها المطبقين. لم تستطع أن تنام، بالرغم من أن العياء قد تمكّن منها. غادرت فراشها راغبة في شرب قليل من الماء، أو التهام شيء من المكسّرات. وبعد أن ملأت كوباً عن آخره والتقطت حفنة لوز بلدي، اتّجهت نحو الصالون، لتقتعد أريكتها المعتادة وتمدّد ساقيها وتطلق رأسها إلى الوراء.

في الصباح الباكر لما صحت، وجدت نفسها على الوضع الذي استلقت فيه على الأريكة، وقد دبّ إلى جسدها إرهاق مصحوب بصداع خفيف أثقل بعض الشيء حركتها وأثناها على النهوض إلى حال سبيلها.

عاشت طيلة الأيام التي انتظرت فيها موعد لقائها بخالد على هذا النحو، تطوي الساعات والدقائق طيّاً. اكتشفت أن لكل وقت زمن يُؤثر فيه، أو يؤثّر فينا لا يفرق، الهواجس التي تسكننا والقلق الذي يجعلنا خارج منطق الزمن نفسه. بدا لها خلال هذه الأيام أن المدينة تتحرّك متباطئة معلقة في الهواء ما بين الأجرام البعيدة، وكأنّها خارج مدار الجاذبية الذي يحكم الأرض. وأن بيتها فناء تندلق منه المعاني المكبّلة. كل شيء هو الآن أمامها هيكل بروح مؤجلة يتردّد في جوفه الصّدى وصفير رياح خرقاء.

في اليوم الذي حان فيه موعد اللقاء، شعرت راحيل بأنها قد انتصرت على الزمن المتباطئ أو على القلق الذي لا هوية له. بدا لها كل شيء هذا الصباح نوراً ينساب بلهاث الركض المندفع بين الممرات المظلمة والمقفرة. قرّرت أن تلبس هذا المساء أجمل فساتينها الشتائية، وأن تضع أطيب عطورها المشتهاة. ولما شرعت الشمس في الغروب إيذاناً باقتراب اللحظة المنتظرة، توجّهت برشاقة

ظبية بريّة نحو دولابها لتختار منه فستاناً رمادياً موشّى بتطريز أبيض ومنديل بنفسجي داكن تلفّ به عنقها. حارت بين أن تختار الحذاء الأسود أم الأبيض، وفيما هي كذلك أخرجت كل أحذيتها المفضّلة من درج في أسفل الدولاب، ثم وضعتها أمامها وقد تراجعت قليلاً إلى الوراء حتّى تحسن الاختيار بما ينسجم ولون فستانها ومنديلها وتسريحة شعرها. اختارت أخيراً حذاء بلون كرزي انأخذت إليه انئخاذاً. أوحي إليها أخيراً أن تضع ملون شفاه له لون الحذاء نفسه.

في طريقها إلى الأوطيل، انقدح في ذهنها سؤال واحد ظلّ يطرق توقّعها بإزاء ما يمكن أن يحدث هذه الليلة. قالت في نفسها: هل سيشعر خالد بدقات قلبها ويهمس بلغته المتكتّمة في نظراتها المتعثرة؟ لم يفتر هذا التوجس إلا بعد أن توقفت أمام الباب الداخلي للأوطيل، وقد أودعت سيارتها لدى النادل الموكولة إليه مهمّة السّهر على نظام وقوف سيارات الزّبناء.

كان خالد واقفاً في البهو الداخلي ينتظرها في تنافس مع الوقت. وحينما هلّت بطلعتها، انتابه شعور الوقوف أمام كائن خرافي مضيء يقفز من الحلم الجميل. أسرع الخطو نحوها برشاقة ووجنتاه متفتّحتان بحمرة تتطاير منها علامات الخجل الممزوجة بالفرح.

في أوّل لمسة ليدها، وهو يمدّ لها يده مصافحاً ومرحّباً، شعرت بأن يقظة دافئة الأحاسيس دافقة تسري في جوفها، وكأن نصفاً منها ينبعث على إيقاع دقات شرايين يده المصافِحة.

حينما همّ بمرافقتها إلى الفضاء الداخلي المخصص للّقاء، شعرت بأنها تسير على أرض غريبة عنها، كما المكان الذي يقودها

إليه. لم تكن الأنوار والألوان ورائحة الورود المصفّفة يميناً ويساراً إلا غموضاً آخر أو غربة بمذاق مغاير تتخلل دواخلها. لم يكن توغّلها داخل القاعة ذلك البدء المعمّم بالغيم وكل أشكال الغيب، إلا مغامرة وتجربة وحيرة مبهمة المنشأ والأفق.

وجدت حول الطاولة وجوهاً تعرف بعضها؛ منها من يشتغل في المجتمع المدني، ومنها من يمتهن الصحافة، ولكن معظمها ينبت كالفطر في عالم السياسة. أجلسها خالد إلى جانبه ثم قدّمها إلى أصدقائه بحماسة بادية. أثنى على حضورها الفنّي والموسيقيّ وانشغالها بقضايا الإنسان وعذاباته...

استغرق الحديث وقتاً طويلاً في مناقشة قضايا السّياسة وحركات التحرر. كانت أصوات المتدخّلين ترتفع أحياناً إلى درجة التوتّر. وكان خالد في كلّ مرّة يتدخل هادئاً عميقاً قوي الحجة بنبرة الواثق، يحسن الإنصات متحسّساً مراقباً بعينين تلوحان بالذكاء والطّيبة. ازدادت راحيل رسوخاً بأنها أمام رجل يطابق صورة فارس أحلامها، وأنّها على وشك أن تصل محطة الطمأنينة، بعد أن أرهقها السّفر عبر منعرجات الأيام القاسية. تراءى لها أن صوته أنشودة، وأن هيئته لوحة بألوان زاهية تحيطها الثرثرة وضوضاء الكلام المحمول على الأفكار المندفعة، وحركات الأيادي المتوترة. هي الآن ترغب في أن تسند رأسها على كتفه الأيسر تنصت إلى دقّات قلبه، وتهمس إليها بأسرار النّبض وحكايات وعيه الشقيّ والمنعّم.

أصبحت تجد في خالد أحداً من اثنين؛ منطلق حياة جديدة ينسج جراح الماضي، أو منطلق موت بطيء يقود ما تبقّى من عمرها.

لم تعد تكترث باحتمال تحقق الفرض الثاني، لأنها أصبحت تتمنى أن تعيش العمر برفقته فقط مهما كانت البدايات.

وبينما هي محمولة على التخيّل ترسم الآتي منقادة إلى أروع المتمنّيات والصور الرومانسية والأحداث البطولية، طلب إليها أن تقول رأيها في السياسة وتحوّلات العالم، تململت قليلاً لتستعيد الخيط الرابط لموضوع الجلسة. وبعد تردد ناتج عن تفكير عابر، قالت ونظرها مصوّب إلى الأعلى على أن السّياسة هي أول خروج عن الحقيقة، لأنها إنكار لجوهر العالم الخفيّ، أو تلبيس على الحق ودلالات العمق. إنها أشبه برصاصة تنطلق من مسدس يتحكم في زناده سلطان الشياطين، تصيب توازن إيقاع الطبيعة، فيتحوّل النّاس على إثرها إلى كائنات غريبة من الحيوانات المفترسة. السياسة الفاسدة هجّرت العالم من بيت معانيه، فالتبس كل شيء، أو كل شيء أصبح رديف الغموض والتواطؤ الملذّ.

ألحّت على أن السياسة قد أتعبتها في أن تميّز بين الإنسان والشيطان، بين الأصلي والمزوّر، بين الظاهر والباطن، لذلك فهي تفضل الاحتماء بالجمال والموسيقى والتزوّد بالفلسفة. هكذا تعلمت من مربيتها زينب. أردفت أن السياسية قد أضاعت معناها في ترصد القبح والظاهر المخاتل. لم تكن يوماً ما إبداعاً أو فعلاً منذوراً إلى الخير الكلي وإلى الجمال، كانت على الدوام فخّاً لاصطياد البشر وترويضهم على العمى أو وأد الحقائق. تبسّمت، وبعد لحظة توقف، اختتمت كلمتها قائلة: إن السياسة كيمياء من المصالح المدوّدة، تفسد الماء والهواء والأوتار.

تنبّهت إلى أنها تتحدث عن الأفكار ذاتها التي لقّنتها لها مربيتها زينب، ذلك الضوء الذي انفرط بين يديها، قالت لها يوماً: السياسة سعي مشتّت ضد الطبيعة. غمغمت في داخلها، السياسة ضوضاء المصالح المنخورة وتلويث للمحبّة؛ هل بدأنا نفهم لماذا الحاكم مفتون بحكمه الفردي وبالتجبّر؟ لماذا النّاس يقبلون أن يكونوا عبيداً مأمورين؟ لماذا النخبة تجتهد في تبادل القتل ولا تتعب في تقفي آثار السيد، تحلم بالتقاط ما سقط من تغمّل العنب المعفّن في كفيه؟ قاطعها أحد الحاضرين معقباً: إن السياسة ليست كلها على النحو الذي تراه، لأن هناك نوعاً منها يدبّ على قيثارة الحياة بأنامل دامية، ترغب في أن يصيبها التلف مقابل إسعاد الآخرين، هؤلاء الذين واجهوا أياماً في هيئة جلاد تأكل سياطه اللّحم والعظم والأصابع، صرخ الرجل: شكراً للذين كانوا الصبر ذاته. من كسّروا أرقام السّاعة، من سكنهم زفير التاريخ وملح الموج العاتي، فهدّوا الجدار العتيق والصّخر العنيد.

رفع الرّجل المتحدّث كأسه المملوءة بالنّبيذ، ثم واصل صائحاً:

- دامت لك الحياة تشي غيفارة، دامت لك الحياة يا بن بركة، دامت لك الحياة يا بنجلون، دامت الحياة للشعب!

تذكّرت راحيل كم كانت هذه العبارات والهتافات مقرفة، أشعرتها باستفزاز مشين وبصدى الجهل يتردّد في اللاوعي. تساءلت وهي تستحضر حديث مربّيتها:

- من أين لمثل من يتحدّث عن الشّعب، الوجه والضمير. يسعى كل السعي إلى أن يرضي سيّده، يتوافق معه إذعاناً، يلبس كلاماً كاذباً عن صدق المعاني ووضوح الانتماء.

قرّرت مباشرة أن تنسحب من هذا الاجتماع، لأنها لم تجد مجالاً يليق بحريتها غير الانطلاق وحيدة تعانق الهواء الطّلق وتموّجات الشّرود. فضلت وقتها أن تمشي منفردة، تطرز بقدميها خريطة للحياة التي تريدها للأسئلة المتزهّدة من خدع التّزوير، من صياح رجل يشبه رجلاً فقط!

فوجئ خالد بقرار انسحابها. وبعد أن ألحّت على المغادرة، رافقها إلى سيارتها ورأسها مطأطأ، لأنها لم تكن راغبة في أن يرافقها أيّ أحد. حاول أن يجتهد في الاعتذار إليها بعبارات لطيفة ومؤدّبة متسائلاً عن مقدار قلقها وحجم نفورها من الجلسة، قاطعته بوداعة لتخبره بأنه لم يكن يحق لها الجلوس في فضاء تتطاير فيه المتناقضات، يتزيّن فيه المتحدثون بلغة غريبة عن الواقع. استدركت كيف يتحدث هؤلاء عن الديمقراطية، وكل نبرة ترنّ في كلامهم تمجد الذات والعائلة والقبيلة، يقولون إن التخلّف يطاردنا، يكتم أنفاسنا، ولكنهم يقطعون كل يد نظيفة تمتد لمسح دموع تاريخنا النّازف.

لا يمكن للسّياسة أن تكون نافعة وأفقاً في وطن ليس إلا فضاء مملوكاً يعجز السّياسيون على الاقتراب منه، بل يضيقون وينكمشون حتّى أنه لم يعد لهم إلا حلم الحصول على هبة المالكين المنعّمين.

ما أشقى الذين يعيشون التقلّب والتنقّل ما بين الأدوار والصّفات. من أين لمثل هؤلاء الشّرف الذي يتيح لهم حقّ التكلم باسم الشعب؟

قالت له مصرّة، عليها بألّا تقترب من مثل هذه الكائنات، لأنها تزلزل صفاء الموسيقى التي ولدت في داخلها، تهدّد وفاء تفاعلها مع مشكلات الإنسان الكبرى. وحده صدق الموسيقى وصراحة الفلسفة من يرسمان لها الطريق والخلاص.

قبل أن تستقلّ سيارتها، تقدم خالد نحوها يتلفّظ كلمات متقطعة عاجزة عن التبليغ والتوضيح... وبينما هي تهمّ بالانصراف، شعر بأنه يضيق يتقلّص حتّى أحسّ أنّه لم يعد له حجم أو وزن.

اخترقت راحيل ظلام الليل، محاولة محو صور تلك الوجوه التي جالستها هذه الليلة. صور كمثل مداد مبعثر مراق على صفحة الأفكار الباحثة عن الطريق... عاودتها الأحاسيس نفسها بالتفكير في خالد. كيمياء خفيّة من المشاعر الدافقة حولت توجّسها وحيطتها إلى الشغف والعشق. أوقفت سيارتها عازمة على إخبار خالد بأن قلبها يدق بكل أسمائه ومعانيه، وأنها واقعة في هيامه...

تردّدت قليلاً، لكنّها أصرّت على أن تواصل الطريق، أن تكتب سيرها على خطوط العناد، تتدثّر الصّبر والمقاومة. انطلقت بسرعة متهوّرة تخاطب نفسها:

- لا أريد الحبّ السّهل الذي يحمل أحد الطرفين على الضّعف. لا أريد الحبّ الذي يقدم نفسه على أنه دواء، لا أريد حب المتأدّبين الظرفاء، أصحاب العبارات المنهزمة، لا أريد حب المتباكين والمتشاكين والمنتحبين.

أريد حبّاً ثائراً تتألف فيه القسوة ونبل الأحاسيس، حبّاً مهيّأً لخوض الصراع ضد نشاز الإنسان والعالم، حباً فاضحاً للخيانات، كاشفاً للحضور.....

هكذا انطلقت في عمق الظلام، تبحث عن سماء تضلّلها عن ضوء يروج لدورة الحياة.

وفيما هي سابحة عبر غيوم التذكّر منهوكة الجسد، مضعضعة

فوق أريكتها، اخترقت سمعها دقات متلاحقة على باب بيتها، اعتقدت أول وهلة بأنها طلقات رصاص تمزّق هدوءها الذي يشبه السلام. نهضت متعبة، مسرعة بحسب قدرتها وقد غشّتها دوخة خفيفة. كانت دهشتها كبيرة لما فتحت الباب ووجدت وليدا أمامها ووجهه مضطرب كأنه منزعج من جراءته على القدوم إلى بيتها دون موعد سابق.

حاول متمتماً اصطياد أبلغ عبارات الاعتذار. لكنها قاطعته طالبة إليه أن يدخل بيتها. وبعدما ناولته فنجان قهوة، سألته عن أحواله، استرسل في حديث مليء بالخيبات. تعجّب من عتبة حياته التي لا تستضيف إلّا الألم. أخبرها بأنه أتى محملاً بكل الهزائم والأفق سهام وخراب متربّصة تسعى إلى أن يهجر خارج نفسه، تاركاً داخلها شجرة الأمل تتهاوى إلى القعر الذي لا قرار له. هو الآن في حركة دائمة مع الضياع. لم يعد يعرف من أين أتى؟ وأين كان؟ وإلى أين يمضي؟

جرّه قلبه، الذي يدقّ بما تبقى منه من ترانيم مكبّلة، إلى ذرّات روحه، يشكوها الزّمن وفقدان الأخيار. لم ير في غمرة اختفائه المستمر غير راحيل التي عزفت لمجرة تظلّلها سماء الملائكة، ترعى الرحمة. غالب الدمع عينيه واضعاً يده اليمنى على ما تبقى من يده اليسرى المبتورة، مردّداً وبعبارات تتطاير منها أشلاء الفجيعة. ردّد بانكسار أن الذين صنعوا معاني هذه البلاد بأشلائهم المحترقة، ينهضون اليوم من أحلامهم التي أعدمت، يتمايلون بين أضراس الوقت المتنكّر لوهج الماضي ثم يسقطون موتى في الخلاء. حدّثها عن موت عبد العزيز الوجدي الذي انتهى وحيداً في الأزقة الخبيثة، عن زوجته التي انبعثت من أنقاض السّقوط تلعن الدنيا والقدر، عن عبد الله الرجل الذي

تعرّف عليه بالمصادفة يتنفّس كل الخسارات بهدوء الأنبياء. زفر بصعوبة مردّداً: إن المدينة أفسدت نبتتها قتلت الوضوح وطردت النّهارات.

بدت راحيل وكأنها قد استسلمت للشّرود، تسمّرت عيناها في اتجاه أوراغون قديم موضوع على طاولة في الزاوية اليمنى من البيت. لم تعد تأبه بما يقول لها وليد، هي الآن، تتأمل أمراً، متعالية عن كل ما هو مباشر ومحسوس. هي أقرب إلى الغيبوبة إن لم تكن فعلاً غائبة.

تنبّه وليد إلى شرودها وغفلتها عن الذي يجري ما حولها، ولمّا هم بالوقوف ليستأذنها بالانصراف استفاقت من غيبوبتها وألحّت عليه بالجلوس قليلاً وكأنها تنوي إخباره بأمر جديد.

حملقت إلى كل قسمات وجهه، ثم حوّلت نظرها إلى ما تبقى من يده المقطوعة، لتزفّ إليه خبر إصرارها على العودة إلى العزف والغناء. تألّقت في حديثها بصوت رقراق مؤكدة أن لا خيار إلا مقاومة الظلام وهجمة القبح الموشّى بالفواجع بسلاح العزف والغناء فوق صحون المحبّة وصرامة العزيمة. أعلنت بأنها ستنتقل بين مدن البلاد وعلى ظهرها ناي وكمان، عود وبيانو، أوراغون وستار... تعزف الآهات المكلومة والسقوط الذي لم يتوقف. ستحشد كل الكلمات والقوافي، كل التأملات... والسماء تطّلع والأرض سخاء.

القتل يقرع أجراسه في خطا الحاكمين، والرداءة دقات قلوب الذين يرعون نضرة بشرتهم في احتفال شعبي كبير اسمه التوافق السياسي ومصلحة البلاد....

ليس الشعب اليوم إلا زفرات تتصاعد من عمق جراحه المنوّمة. تعددت الأحداث وتعاظمت، ولم يعد يأبه النّاس بنشيد الأمواج المتجمّدة في دواخلهم. بدا الصّمت ومقاطعة كل شيء، طريقة منفردة للاحتجاج ضد العالم الذي أسره قزم اسمه الوقت المقلوب...

لم نحسن الإصغاء إلى هذا العالم ولم نجرؤ على قتل القزم. رحنا من حيث لا ندري وراء جوقة المردّدين، لا نردد إلا كلاماً عن رحلات صيد الملوك، عن تاريخنا الغنيّ والمتنوّع، ونحن في ذلك موهومون! نسيْنا أنه كان علينا فضّ أختام الزّمن الذي ذوّبنا في متاهاته، أن نعي انسياقنا وراء الفراغ. ضيّعنا الوقت في ترصّد امتلائنا الذاتي عبر هندسة رغبات ولذّات تروّج للسباق نحو النفايات والأحذية البالية الملقاة من شرفات واهبي النعم.

شهقت عميقاً ثم حدّقت في وليد، وقالت:

- سأحطّم أشرعة المركب الذي أبحرت به.... أهجر الضفّة المعزولة التي أسكنها، لأنّي لم أعد أؤمن بالصمت والصّبر والوحدة. أكيد أنني جربت ذلك من قبل، بعد خالد، وفشلت. لكني لم أفهم وقتها أن التّنافس ضدّ الفشل قد يمنح الحياة أملاً في الانتصار على التسلط والتغوّل، أو يمنحها مزيداً من الصّمود والإصرار على المغايرة. ومع أن الحياة حيوات وأضواء، فهي عاتية جبارة لن تؤخذ إلا غلاباً.

أليست الحياة كلّ صعب وذلول، وأن الصّعب لا يروّد إلا بالنّجاح؟

نحن من يصنع النجاح أو الفشل!

طلبت إلى وليد أن يساعدها على استحضار ما تبقى من أقوى المؤلفين والعازفين الذين واراهم النّسيان، لتحدد المشترك الإبداعي، تحثّ على الخوض في بحر مشروعها الكبير. استطردت بأنه لم يبق من عمرها إلّا القليل، ولكنّه عوض أن تستسلم لمرضها الذي ما فتئ يأكل من قلبها كل دقيقة، عزمت على أن تقف كالطود العتيد مرئية غير غفلة، تحرث بما تبقّى فيها من قوة جغرافيا بلد جديد ينحدر منه ناس لا يتوسّلون المصادفات والهبات.

ارتمى وليد باندفاع جنوني إلى حضنها يقبّل رأسها، يجثو على قدميها يسعى إلى تقبيلهما، لأنها الآن ستعود أكثر قوة مما كانت في السابق. وعت بأن لها دوراً عليها أن تلعبه كاملاً في هذا الزّمن الذي هربت فيه القيم وروح الإنسان.

لا بد لها أن تمسح الغبار عن مفاتيح قلبها، عن مفاتيح البيانو الذي يقدر على صنع المعاني المقابلة والمضادة، تلك المعاني التي لن تموت.

لا شيء! لا شيء يهم بعد أن عادت تعزف على أوتار الزّمن الذي يأتي أو الزمن المعتقل. ليس لعودتها إلا حقيقة البدايات المتجدّدة.

اسأل التّاريخ عن الانبعاث والقفز خلف الأسوار، لا تسأل الحاضر المتكوّم حول نفسه، يضاجع النفايات. ليس هناك تاريخ يخطو بانسياب أو تاريخ يكرر خطواته. لا يحدث ذلك إلا في توهّمنا الذي لا يريد أن ينقطع. لكن من المؤكد أن التاريخ حركة موج هادر يبحث عن نفسه في بحر مفترض، أو في حفلات التنكّر التي تكشف

في الهزيع الأخير من الليل الوجوه والأجساد. يسكن هذا التاريخ وتلك الحياة نبيّ اسمه الغموض وكتاب دون حروف.

* * *

لم تستطع جيهان، وهي تقلّب أوراق جرائد قديمة، أن تجد رأس الخيط الذي يمكّنها من الشروع في كتابة تقرير صحفي حول المثقفين والمبدعين والفلاسفة الذي غادروا الحياة انتحاراً...

تبدو شبه ضائعة وهي تدخّن وتفرك شعرها، تعبث سهواً بالقلم الذي تضمه أصابعها الثلاثة.

هي اليوم على غير عادتها، مضطربة. حزن عميق يسكن عينيها ومرارة مكثفة تكبّل شفتيها. نهضت من حينها تتمشى قليلاً في غرفتها، حاولت أن تنسى حالتها هذه، اتّجهت إلى المطبخ لتعد فنجان قهوة، وتصغي إلى دندنة منبعثة من حنجرتها المتيبّسة:

يكفي أيّها الزّمن

أن تسقط ثمار النّجوم

أمام أقدام عابثة

لا تحسن إلا سحقها.

قالت في نفسها، بأنها ستترك للكآبة أن تهرب من قلبها، ما دامت هذه البلاد دون أحاسيس، لا يحسن أهلها إلا سحق ثمار النجوم المتساقطة. ومع ذلك، فإنها تشعر بالحيوية والطمأنينة الدافئة، لأنها تعيش حبّاً يسيطر على كل أحاسيسها الباطنة وعقلها الداخلي. هي مفتونة بالقيام بشيء ما، بالكشف عن أسرار انتحار المبدعين...

لا تريد الآن أن تخلد إلى الراحة، تريد أن تحلم وتكتب. حالها تقول لها، بأنها ملكة طيور مغرّدة تحكم بحيرة العاشقين والحاكمين والثوار... هي لا تريد أن تكون أيّة امرأة، هي تبحث عن دور تلعبه، عن مسلك تسير فيه لم تسبقها إليه خطوات أحد، أو بالأحرى تحلم بأن تتقاطع خطواتها مع مشي من كانوا استثناء في شقّ المسالك المستحيلة. شعرت أنّ خطواتها تنجرف قسراً إلى خطوات خالد لما كان يافعاً. عشقت ركضه وصياحه في الساحات والسّجون. لذلك، فهي جدّ متوتّرة وموزعة ما بين أن تكون هي ذاتها، عاشقة مستقلة، وما بين أن تكون ظلاً، عاشقة وتابعة.

ليتها تقدر اليوم أن تسأل شعبها الذي أصبحت تكرهه، ولا تستطيع أن تفصح عن هذا الإحساس. كيف سرق هذا الشعب من خالد عمره، وحوله وأشباهه إلى ضفاف مهجورة وميّتة؟

أو ليتها تقدر على أن تسأل هذا الشعب، لماذا صنع صغاراً يتفنّنون في الوشم على وجهه دليل النّخاسة؟ لم يعد خالد بالنسبة إلى هذا الشّعب الذي غوى أن يكون عبداً، إلا حرفاً وجملة دون أيّ معنى.

تتخيل في هذه الساعة أن هذا الشعب يقهقه من حواليها، يتندّر بحكاياتها وأفكارها، واصفاً إياها بلغته، لأنها تحلم خارج السياق، تتحدث لغة الشعراء والفلاسفة.

أوّاه! أيّ درك هذا الذي وصل إليه شعبنا، وكم أصبح عاجزاً وضعيفاً؟

هي الآن تراه يصغر ويتقلّص وينبطح، حتّى أنه لم يعد يميّز ما

بينه وما بين البهائم، لم يعد يهتم إلا برغيف خبز ومرق من أشلاء الزّمن كيفما اتّفق؟

وراء هذا الشعب الذي لا يتوقف عن لوك الكلام، يتكلم وهو نائم، قوة مختبئة تضبط أنفاسه، تبقيه منوّماً في حضن امرأة تصلب حركة التحوّل...

التاريخ، الشعب، الثورة، معان كانت لها أجنحة لم تتوقّف فيما مضى عن الطيران. أكلت الأجنحة غضاريفها وعظامها وتوقفت عن الطيران. سقطت الأحلام، وأصبح الواقع يمشي على قدمين لم تعي من العبث بالترجّل على هامش الحقيقة.

خاطبت نفسها:

- أنت كذلك يا جيهان لم تملّي من النظر إلى الأشياء المرئية. تمضين وقتك في تكوين أوهام يجهلها خارجك، بل لا يسمعها الواقع. هل تعرفين كيف نميّز بين الحقيقة والواقع؟ الحقيقة روح محركة ودائمة. والواقع وهم له هيئة جسد متحرّك، يغري ويخادع.

غالباً ما كان خالد يردّد: 'ماتت الأفكار'!

كلما تلفظ بذلك، غضبت جيهان، لأنها لا زالت تؤمن بالأفكار. لم تصغ إليه لما كان يسعى إلى إقناعها بأن الأفكار قد أصبحت عبارة عن مركبة معطّلة في ساحل هجره الموج وتنكّر له البحر.

هي الآن حائرة؛ لم تتبين بوصلة العالم.

ليس للحقيقة وجه ويدان، وليس لها ألوان أو رائحة. وعندما تحاول أن تسأل عن ماهيتها أو عن جهة من جهاتها، لا يتأتّى لك

الجواب، بل يداهمك سيل من الحيرة ويغمرك القلق، من أين لها إذاً، أن تفهم ما يحدث؟

يبدو أنها لا تريد أن تدقّق في الأسئلة، حتّى في الأسئلة البسيطة. ترغب في أن تكون وفيّة للأحلام الكبيرة، أن تقطع المسافات نحو المجهول الذي يوصلها إلى مرافئ أحلام، قلبها الولهان. أيّة ظلمة ستحلّ بغياب خالد، اليوم وغداً. خالد كمثل الطفل الذي ينام في أحشائها يتغطّى بدقّات قلبها وهسيسه.

بعثرت، بلطف، كلّ الأوراق التي كانت أمامها ورتّبت معطيات المثقّفين والمبدعين الذي انتحروا، ارتبكت لما قفزت إلى ذهنها فكرة أندري مالرو الذي اعتبر أن من ينتحر، إنّما يسعى وراء إبداع ذاتي لصورة من صنعه. لا أحد ينتحر إلّا ليكون هو وليس غيره. ألذلك انتحر الشاعر خليل حاوي احتجاجاً ضد شعب فقد عزّته وفضل الانكفاء متباكياً كالإوزّ الذي يسكنه الرعب؟ يكون قد رفض صورته التي تنحدر من هذا الشعب نفسه، من أكذوبة الواقع، فسعى إلى أن يقتل نفسه، حتّى يكون قد صنع صورة أخرى لوجود مختلف.

الأشياء ليست هي الأشياء كما يراها هؤلاء، بل كما يحسّون بها حين يصغون إلى نداء الوجدان العميق. لذلك، لا ينخدعون لألق الحياة ومكرها. هم يعيشون على الهامش يراقبون تغوّل الوجود الذي يبتلع الفطرة. لا يستطيعون التعايش معه. وكلّما حاصرهم وأطلق لسانه ليزدردهم، نسفوا صورة الحياة التي يمثّلونها، وجنحوا إلى موت اختياري يتهدّم بحدوثه سجن الأشياء التي تعبّر عن الحرية.

حين تتأمل كيف اختارت فيرجينيا وولف وسيلفيا بلاث موتهما،

تدرك بأنهما يتنافسان مع الوجود ذاته... ومع دلالات الحياة نفسها.

كتبت فيرجينيا وولف رسالة قبل وفاتها تلخص فيها أن أصواتاً كثيرة تضجّ بمعنى واحد مضبّب عن فكرة الحياة. لذلك، لم تعد تفهم ما يحدث. لم تعد تستطيع التركيز أمام فوضى الألغاز وجبروت الرموز التي تمثّل العالم الذي نحياه. فضّلت أن تملأ جيوبها بالحجارة، لتثقل جسدها وتلقي بنفسها في النهر الذي يحاذي بيتها. أرادت أن تهرب إلى القعر السحيق متمرّدة على سطح العالم وأوهام الأشياء الزاحفة.

بصيرة الغموض، أو التأسيس الجديد للاختيارات الوجودية وإيقاعات الزمن والوعي، هي مضامين عميقة تتحرك في الهامش، وتدل على أن الفلسفة غير مدركة. تلك التي عبر عنها طرفه بن العبد وعمرو بن كلثوم وخليل خاوي وفيرجينيا وولف وإرنست همنغوي وبارسوناري كاياتا وآخرون... وآخرون.

قشعريرة كأنها لفحات برد قارس تنزل على جسد جيهان، خُيِّل إليها وهي تتفحّص وثائق المثقّفين المنتحرين، أن الوعي بالعالم لا يملكه إلا هؤلاء وحدهم. شُبِّه لها العالم بالهذيان الذي يحدث فيه التوهّم وتخيّل كائنات غير محسوسة تجتمع فيها الأضداد. المرئي واللّامرئي يسيران كالتوأم يداً في يد نحو المجهول. كم تمنّت أن يكون خالد برفقتها، الساعة، تقتسم معه هذه الهواجس والأحاسيس التي تعنّفها بقسوة. كأن شيئاً من الدوران يلفّ رأسها، أو شيئاً من الانخطاف يغمرها. نهضت من حينها مسرعة، تاركة أوراقها فوق مكتبها، تتأرجح ما بين دخول غرفة نومها أو ولوج المطبخ. انجذبت أخيراً إلى الدولاب المتربّع على الحائط الذي يتوسّط الصالون. فتحته

متلهفة، ثم أخرجت زجاجة ويسكي راغبة في احتسائها كاملة، لعلها تطفئ بعضاً من توتر أعصابها وقلقها العنيف. ارتمت على أريكة تقابل الدولاب ساهية. وبعد رشفها الكأس الأول فضّلت الاستماع إلى أغنية حسين جسمي 'فقدتك يا أعزّ الناس'.

شعرت بأنها تحمل غمّاً وهمّاً ثقيلين، وأن حزناً كبيراً يعتصر فؤادها، لأن الحظ لم يحالفها طوال مسار حياتها، ولأن وعيها الشقي لم يجعلها ترتاح هادئة تقضي الأوقات انقضاء دون أن تعكّر الأسئلة الصعبة صفو مزاجها المفترض.

هي الآن تشعر بالتّعب الثّقيل، تمنّت أن تلقي برأسها على كتف أمّها أو والدها اللذين غادرا الحياة مبكّراً، تحكي لهما ألم الشروخ التي تنبت في وجدانها، أن تتدثر برائحة أحدهما تذرف عليه دمعاً سخيناً.

هي الآن طوع لحظة تمزّق لم تهدأ. كل نقطة في جسدها تئنّ وتعانق كلمات 'يا أعزّ الناس'. انفجرت باكية واضعة رأسها بين ركبتيها ويداها تغطيانه. استسلمت إلى نشيج مرّ وحارق، تغني باختناق:

- 'فقدتك يا أعزّ الناس، فقدت الحبّ والطّيبة

أنا من لي في هالدنيا سواك إن طالت الغيبة'

من يقدر أن يكتب لهذا الجرح كلماته وموسيقاه؟ لا أحد، لا أحد.

ضباب النظر كثيف، والآتي غبش فاض عن حدوده. صار الألم كلّه أبواباً للمجهول. أرادت جيهان، وهي تشرب الكأس الثالثة، أن تطلق لسانها كما تشاء جوارحها، أو كما يشاء ألمها، أن تثرثر

وتغني، أن تبكي طويلاً، تلعن الدنيا ودوائرها. فضّلت أن تنغمر كالدخان في الغيب. تحتال على سرّية المستقبل للتعرف ولو جزئياً على مصيرها الملتبس وخوافي القدر.

يكفي أن تدرك لماذا تتوجع هكذا. هي مقتنعة الآن أنّ ليس في خزائن الوعي أثمن من وعي الألم. تأملت كأسها وقرّرت التوقف عن الشرب. لهذا الكأس مذاق السّياسة والتنكّر، لها روائح المتناقضات والأضداد، بعضها يتربص ببعض، وبعضها يأكل بعضاً.

اكتشفت توّاً أنّها تغرق في أفكار راشيل التي كتبت الصّحافة عن انتحارها منذ عشرات السّنين. وفي غمرة السكر، تنبّهت إلى أن هناك تقريراً يخص لغز هذه الفنانة التشكيلية التي وضعت حدّاً لحياتها، وجدت ذات مساء تاركة إلى جنبها طفلتها التي اختفت ولم يعثر لها على أثر. نهضت من حينها نحو المكان المخصّص لوثائقها القديمة، وبعد دقائق قليلة استخرجت الملف ذي الموضوع، وهو عبارة عن مقصوصات من الجرائد باللغتين العربية والفرنسية، يحمل صوراً لها ولزوجها الذي كانت لحيته تخفي ملامحه. تنوّعت موضوعات هذه الكتابات، ولكنها جميعها تتّفق على حساسيتها المرهفة في تشكيل الألوان والأضواء والفضاءات، وتصف غرائب أطوارها وعجائبها.

عثرت على مقالة تتعمّق فيما كتبه زوجها عبد الله في الفلسفة والآداب. اندهشت أمام شخصية راشيل وعلاقتها الفلسفية بزوجها وألق حضورها الفكري والفني الذي جعل منها امرأة تحبل ببستان سرّ لم تقطف ثماره بعد. قرّرت أن تكون القاطفة، وألّا تكتفي بالتأمل على ضفاف التفاعل الوجداني مع هذه المرأة الاستثنائية. هي الآن

تصرّ على أن تقتحم عالم راشيل كاملاً، أن يكون موضوعها وقضيتها.

انبرت بحركات متلاحقة ومتسارعة إلى تجميع كل ما له صلة براشيل. حتّى تلك التّفاصيل المملّة التي اجترحها الصحفيون، وهم ينعطفون على دقائق مسار حياتها.

شرعت في تصفّح ما كتبه زوجها عبد الله عن لوحة زيتية من إبداعها، اسمها 'القدر'. كتب أن القدر امرأة تعانق باستمرار المستحيل على ضفاف الوقوع والحدث. امرأة وهّاجة تخاف منافسة الضوء لها وتخاف الليل الذي يحجب بريقها. لكن الليل هو السرّ هو الكشف للنسغ الحيّ. القدر والموت سيان في رؤية راشيل أو في رؤياها. ترى أن القدر حصان خرافي يجر وراءه الموت في كل دقيقة. يمر أمامنا وبيننا ولا يراه أحد. ترى الموت يركب القدر: تارة يوجّهه، وتارة يثلج بالنّفي ويهدر في عروق الإنسان المميّز الحياة.

ما الدور الذي يريد أن يلعبه الموت في هذا العالم، غير الموت فقط؟

أليس للموت غير دور واحد؟

تبدو الحياة في ألوان راشيل منواراً يكشف الأوهام، يجرّدها من خدعته البرّاقة، من بياضاتها التي يخالها الإنسان حبّة عدن. كتبت راشيل في إحدى لوحاتها بحروف وشواشة: للحياة خلابة لا ينعم فيها إلّا من هو من نسل الخساسة.

وقفت جيهان تقرأ ما تبقّى من مقالة عبد الله عن لوحة زوجته بشعور خاص جعلها تتفاعل إيجاباً مع أحاسيسه التي لا تحمل إلا

معنى واحداً، عمق التأمّل وتوتّر السؤال المحمّل بركود الكشف والمراجعات.

اعترفت وهي تضطّلع على هذه المقالة، بأنها لم تكن تحسن إلا الجواب المتسرّع والمتهافت، والوقوع في الرؤى العابرة للأشياء. وفيما هي واقفة تتأمّل خوافي هذه الكتابات التي هي حولها، استوقفتها مقالة موقعة باسم غير معروف، تتحدث بشعرية ساحرة عن طفلة صغيرة وجدت برفقة أمها المنتحرة، وقد تركت لها رسالة قصيرة تحمل دلالات فلسفية عميقة عن الشقاء والحياة والموت.

لم تذكر المقالة اسم الطفلة، لأنها وجدت دون هوية. ذكرت فقط، أنه بعد أيام من البحث أُخبر والدها بأن طفلته اختفت رفقة امرأة مجهولة الهوية، وأن لا خبر عنها في انتظار نتائج البحث والتحقيق. تحمّست جيهان كثيراً لمعرفة مصير الطفلة المفقودة. أحسّت بأنها أمام قصيدة شعرية تتهيأ المجهول كلّه لكي تستوضحه كله، أو لكي تعزّي الانكشاف الذي دُفن في المجهول نفسه.

امرأة عشقت الحياة والموت كمثل عمر ملتهب. كله معارك. قدّر لها أن تخوضه بلا ضمانات، بلا حظّ. تساءلت عن مصير الطفلة التي هي اليوم امرأة تناهز الستين قليلاً. كيف قطعت مسافات العمر؟ ما شكلها وكيف اختارت أن تعيش، لم تحس بأن هذه القصة من الزّمن الماضي قد طواها النسيان، ولا تستحق كل هذا الاهتمام. اختارت أن تسأل المجهول الغامض، أن تكتب خطواتها الآتية في ما تخفّى من هذه القصة.

تابعت نبشها في كتب الماضي، فلم تعثر إلا على ما أصبحت تعلمه.

أذعنت أمام شحّ المعلومات المكتوبة، لذلك قررت أن تزور دار الأيتام لتستفسر عن الوثائق المتوفرة في الأرشيفات القديمة، وما تبقّى من شهود أحياء. تردّدت بين أن تخبر خالداً بما هي عازمة عليه، وبين أن تترك الأمر على ما هو عليه. لكنها اقتنعت أخيراً، بأن تخبره بما يجول في خاطرها وتعرض عليه فكرة مصاحبتها ومشاركته في البحث معها. نهضت مسرعة من مكانها لتلتقط هاتفها الخلوي الذي لم يرن إلا في صباح هذا اليوم. وبعد أن هاتفته لتعرض عليه اقتراحها، حاول أن يستفسرها عن ربحها من هذا التّعب كلّه. لكنها أصرّت على أن تتفادى الشرح، وتريد منه جواباً واحداً، إما قبوله أو رفضه لمرافقتها. لم يكن أمامه وهو ينصت إليها مستغرباً ومنشداً إلى التدفق المتلاحق لنبرات صوتها وكأنها خيول تجرّ وراءها مملكة ماء رقراق، إلا أن يتفاعل مع رغبتها مستحسناً قضاءه وقتاً طويلاً برفقتها.

في حدود السّاعة التاسعة صباحاً كان خالد وجيهان يستقلّان سيارتهما التي كانت تبتلع سواد الأسفلت. فضّل أن يقود سيارته طوال الطريق كله، على الرغم من إلحاحها على إراحته. أكد لها أنه يرغب في القيادة وهي بجانبه يتحسس أنفاسها العطرة. لا لشيء إلّا لأنّه لا يريد أن يخرج من شعوره بأنه قد تقدّم في السن، أو خروجه من قفص نفسه المتعبة المتكوّمة على عتبة النهاية...

هيهات أن يعرف أحدهما ما يدور في رأس الآخر، وهما صامتان كأنهما يرقبان الطريق، ولكنهما شاردان يرعيان دقات قلبيهما

التي تتحدث لغة واحدة. سألته عن إشراقات الماضي التي صنعها رجال انطفأوا في الهامش، عن مدينة وجدة المكان والزمان، عن كبوات مناضلي الستينيات والسبعينيات. عن رمزية المدينة وتاريخها، سألته مثرثرة عن كل شيء، إلا عن حبّه لراحيل تلك المرأة التي لم تجد لها ما يضاهي قوتها في الاستيلاء على عقل وقلب الرّجل. أسرّ لها بأنه يحاول أن ينسى تاريخه كله وما فعله الزمن فيه، هو لا يريد أن يتذكر شيئاً، يريد أن يكون وليد اللحظة فقط ملتصقاً بجلدها وعظمها. للحظة صدر أكثر اتساعاً من رحابة الزّمن. للصدر تضاريس فوق تاريخ يتدثر باللّذة، واللّذة جرّة مضيئة مثقوبة القعر لا تملأ أبداً.

كل سلالم الرغبة نحو التغيّر قد تحطمت، وقد اختار النّاس أن يكونوا كالعابرين مكتفين بالتقاط ما يشبه الفتات فقط. هم يتحدثون عن الطمأنينة، عن الحرّية التي وهبت لهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التنبّه إلى جلده المسلوخ. اتفقوا على أن يحترفوا العمى، أن يصوّبوا كل الخراب نحو صدر الكرامة، أن يكونوا قبضة السّيف الذي يقطع عنقها ويبتر أعضاءها. هم لا يجرؤون أن يسألوا عن الذي تهيأ لأنسابهم وأبنائهم، لا يأبهون بالذين يستبدلون الدّم في عروقهم بماء الواد الحار. هم هكذا، يهرولون في كل الطرق والأزقة باحثين عن المنافذ القدرة وأنفاق الفئران يردّدون الأغاني الوطنية ولازمة الطمأنينة والاستقرار. لو تيسّر لهؤلاء أن يبيعوا قلوبهم وأطرافهم مقابل مرافقة السيّد في نزهة صيد فقط، لصرخوا طوابير: نبيع القلوب والأطراف والكرامة لنكون الرّغبة أو ظلها.

استطردت بأنه لم يتبقّ من ملاحظة في سلوك النخب والعامة

إلا وقد لاحظتها؛ ذلك لأنها كانت دائماً تسأل عن حربائية النّخب ونفاق العامة، تسأل عن الذي تحول في كبرياء الشعب عن مائه الذي سفّه الهواء. هل أصبح لهذا الشعب صفات أخرى لما فضّل أن يكون حليف المصادفات المزوّرة؟ أليس مضحكاً أن ينصب الكلّ للكل فخّاً للإيقاع ببعضهم بعض؟

سألت خالداً أن يجيبها، وقد كان ساهياً يعارك هجمة كيمياء كلماتها. نظر إليها بابتسامة مهزومة، ليقول لها بأنها كمثل رسام يجتهد في اختيار الألوان، وهو يرسم هواجسه وقلقه على قماش الريح. ومع ذلك، فهو يريد أن يطرح الأسئلة نفسها التي كانت تطرحها قبل قليل، لأنّه لم تعد لديه القوّة ذاتها للتحمّل وقد وهب وثائق أحلافه للنسيان بكل أصنافه.

ذكريات جريحة في الجنبات، وذلك الشّعب الذي كنا نحلم به كالأشجار السامقة التي تخترق الأفق والمستقبل، هو الآن فروع منحنية وثمار مسوّسة.

ثمة شيء تاريخي طوى هذا الشعب طيّ الورق. وكل دقيقة يجتازها تبدو وكأنها سيلان من عصارة الخيبات والهزائم. ماذا نفعل؟ هل نرتكن إلى الفشل ككتلة مشكلة فوق طبق الواقع الذي أصبح يؤمن به الناس، فنصبح كأيّ ناس؟ أو أننا نشمخ كالوتر السرّي ذي العزف المنفرد، نعشق ونحتسي ما تبقّى من خمرة العمر؟

ألقى بيده اليمنى بحنو فوق فخذها الأيسر، بينما بقيت يده اليسرى ماسكة بمقود السيارة. أمرها بأن تهدّئ من روع هذا العصف الذي يلفّ ذهنها، لأنها تدحرج أسئلة يخشى أن ترتد عليها وتسحق فيها التوثّب والتفاؤل وحب الحياة. لكن جيهان أصرّت على السؤال

والمشاكسة، صارخة بأنها لن تملّ من قول الحقيقة وأنها ستظل ماضية لا تتوقف، حتّى وإن كانت نهاية الطريق مكلفة. هي حقاً لا تعرف الطريق ويصعب عليها شق وعورتها، ومع ذلك تلح على السؤال لأنّه الحافظ على ماء العشق والحياة، ليس كأيّة حياة.

تعجّب منها، كيف أنها لا تلتفت إلى أنوثتها وإلى روعة جمالها وإلى جيوش العشّاق الذين تلاحقونها. هل هي سعيدة بحبّه فقط؟ سعيدة إلى حد التّعاسة. كرّرت أمام خالد أن البلاد لا تتسع إلا للجثث المتحرّكة يسودها القبح والرذيلة. غالبا ما يتعذّر عليها الميز بين الفرد والرجل الآلي.

تبدو البلاد جسداً لا تحركه إلا الرّغبة في الالتذاذ الفردي. الرّغبة الهادمة لتاريخه، النّاخرة لحاضره، ربما تتحول البلاد إلى فضاء لتربية الدواجن. ذلك ثمن الطمأنينة وصعود النّخبة نفسها التي تريد أن تكون هي نفسها لا شريك لها. هكذا تتشرّد الصّفوة المسكونة بنبل القيم، ليس في المدن وشوارعها، بل في معاني الأشياء وحركية التاريخ البطيئة جداّ والمرتخية جداّ جداّ.

يحاول العقل المكبّل بالأسئلة الحارقة أن يصنع منطقاً لليقظة وللنّبوءة الواقعية. القلب وحده من يرسم دليله وبرهانه وليس غيره. لا يقول شيئاً، بل الإرادة هي التي تقول وتتكلّم. هي أبلغ من العقل الحصيف واللسان الفصيح، هي وحدها من تقدر أن تكتب على أنه من واجب البلاد أن تستفيق وتمسح عينيها من الغشاوات. كم تمنّت لو أن حركة كلامها تتحول إلى وقع أقدام مزلزلة، تعكس صلب أحلامها الحائرة.

من أين تجيء هذه القوّة التي تصل الحلم بالواقع؟ من أين لهذا الشّعب هذا الكلام الكثير والضجيج المقرف الذي ينتهي في تبادل القبلات والربّت على الأكتاف المصطنعة؟

ومع أنها كانت تمضي وقتاً طويلاً في الحديث عن ضرورة الوحدة الوطنية في تثبيت الاستقرار، فإنّها باتت اليوم تعترف بأن كل شيء قد التبس أمامها، وأن ما يحيّرها أنها لا زالت تستمر في تصديق شيء غير مقتنعة به، يلهج بالتردّد وبالتنازل وممارسة الأخطاء نفسها.

ولما كانت تتحدث صادقة عن كل أحاسيسها المقنّعة والمكشوفة تُجاه عالم اليوم والإنسان الذي يحياه، كان خالد ينصت إليها، وهو يفحص الفروق ما بين شباب اليوم وشباب الأمس. انتبه إلى أن أسئلة الشباب هي نفسها، والأسئلة لم تتغير إلا في الشكل. لم تخرج، رغم اختلاف السياقات عن الحلم بالتغيير وبلوغ عالم متوازن لا يسود فيه الصوت الواحد وحكم الفرد المنفرد. حكم الفرد المنفرد هو التلوّث الذي سمّم تاريخنا بأكمله، انتقلت عدواه إلى كلّ الأفراد من مختلف مواقعهم ومراتبهم، فتسمّم الجميع وأضعنا التاريخ والطريق. حتّى المعاني التي عانقها بعضنا ولو بالتخيّل رفضت قبول المثول ولو عن طريق المراودة والاستيهام. تحولت التخيّلات كلها إلى كلام معاد فيه كثير من الاشتهاء المفتعل. ليست جيهان من جيل خالد، ومع ذلك فهي تطرح الأسئلة نفسها التي طرحها جيله. هذا يعني أن أسباب الوجع والأسئلة لا زالت قائمة، وكل ما حدث أو ما يحدث هو تحول في دائرة مفرغة. ذكريات كمثل عصا مسوّسة عجوز، فبمجرد أن تتوكّأ عليها تنكسر من بين يديك وتسقط أرضاً.

زمن الأحداث هو الزمن نفسه، لا يغيّر إلا الثّوب الذي يلبسه فقط، ولكنه لا يغير جلده. وا أسفاه؛ كأنه يترافع من أجل أن يضع في مكان وجهه كلّ الوجوه، يسعى محموماً إلى أن يتشطّح في الغموض أو في سريالية التخفّي.

التاريخ هو الغموض أو المكر.

لا، الإنسان هو الغموض، أو قل هو نقيض السرّ، لأنّه يهوى الخطأ والتنكّر.

لا يجد خالد، وهو مأخوذ بتساؤلاته، ما يتمسّك به ليحافظ على توازنه النفسي إلا أن يحب جيهان أكثر. هي أكثر من شعلة انبعاث تتأجّج في داخله، تعيد إليه الحياة التي هجرته منذ أن غادرته راحيل. لم يعد أمامه الأفق مسدوداً، ولا يريد أن يتعب عقله في التفكير والتأمل، لأن أوراق شجرة العمر قد تساقطت، ولم يبق منها إلا القليل جداً، نزفت منه كل المعاني والكلام. لذلك، فهو يسعى ألّا يقول شيئاً.

بدت له ملامح وجدة وهما في الطّريق، كأنها مراس مهجورة عائمة لا شواطئ لها. ظنّ لأول وهلة أن ضعف بصره يضبّب أمامه الرؤية، ومع ذلك لم يتوقف عن الاجتهاد في البحث عن علائم المدينة التي ألفها، هي مدينة أجداده وآبائه. ولد فيها وكبر ما بين جنباتها، وظل دوماً يرعى في داخله ذكريات أهاليها الطيبين وسنوات دراسية في مدرسة الجالية اليهودية وإعدادية البكري وثانوية عبد المؤمن. قلبه مليء بعشقها وصدق ناسها وهوائها ودروبها القديمة، شعر بأنه يجمع دموعه ويسكبها في قلبه.

هو الآن يحاول أن يقاوم دافعاً غريباً يرغمه على البكاء. لذلك، فضّل الهروب إلى التساؤل، فوجه الكلام فجأة إلى جيهان: ماذا كان سيحدث لي لو لم أهجر هذه المدينة لمدة طويلة قبل أن أعود إليها؟

أجابته: سيحدث لك ما حدث لك. أنت هو هو لم تتغيّر، لأنك تحمل روحاً تسكن كل المدائن، تسكن كل الأجساد وتسيل في كل الينابيع...

توغّلت السيارة مندفعة أكثر ما بين الزقاق، ومع ذلك تعذر على خالد أن يتبيّن شيئاً يتذكره، إذّاك اكتشف أن الإسمنت والحجارة ابتلعا السّحنات القديمة وطمس الهوية. لم تعد أيّة صورة تشبه الصّورة التي تحيا في وجدانه. أصبح كل شيء بالنسبة إليه تذكاراً ليس إلّا.

بدا له في طوافه بين الحاضر والماضي، كأنه يفقد اليوم الجذور، يرقص في تيه العدم، في عرس الخواء. هو الآن، يتفحص مرايا كلّ مدن البلاد، يخالها تنكسر أمامه وزعيق السّاسة يقطر بالقطران الكثيف الذي يشبه الغدر المشروع.

ابكي أيّتها البلاد، وامسحي دمعك بخطيئة شعبك الذي غير أبجدية إنسانيته.

لم يبال خالد بحديث جيهان المسترسل حول القضايا التي تشغلها. وقع له شبه انحباس داخلي وهو غارق في شرود مهووس بالقتل. أدرك بأنه لم يعد هناك مقام يأويه إلّا برزخ المكوث الطويل على هامش العالم الذي يحتويه، لم ينكر عن جيهان قولها ولم يرفضه، هو منقاد فقط من حيث لا يدري إلى سرب غيمات هاربة من أقفاص الواقع المدرك.

سألته لماذا هو شارد؟

أجابها بأنه كان يبحر عبر كلامها في فوضى المعاني والخواطر، لذلك تجمّد لسانه، ولو أنه كان يحسّ بأنه يلهج أبجديات الانهيار التي انتظمت خيوطها كما انتظمت إيقاعات النّشيد التي ما فتئ النّاس يردّدونه في كل المناسبات. كلا، ليس الانهيار هو الشيء الذي يوحّد النّاس، بل هو الشّيء الذي يحدث النّرجسيات المضاءة بمصابيح الاستقالة. هكذا هي ترى، ولا تقدر أن ترى غير ذلك. النّاس كالخطّ المتموّج الصّاعد، يبحث عن طرق اختراق الأفق المسدود. لم ينطق بعد، هو كالجذوة الهادئة القابعة تحت الأنقاض. هو لا يتوقّف عن حوار داخليّ مُرّ، ولو أنه لا يحرّك شفتيه ولا تسمع له ثرثرة ولا صياحاً....

أخبرته مباغتة، أنهما قد بلغا الجهة التي توجد فيها دار الأيتام؛ هما لا يعرفانها بالتّحديد. قال لها أخيراً، بأنه كان يحسّ قبل قليل بالمدينة تذوب بين أطرافه، أجابته مازحة عليه أن يتماسك حتّى لا يجرفه ذوبانها.

بعد لفّ مستمر واستفسار العابرين عن دار الأيتام، وجداها على عكس ما كانا يظنّانه. هي فضاء مأزوم وأفق من حبر، وأشجار شائخة تتزيّن لها بألوان لها شكل العزاء. حتّى الطيور التي تعشعش فيها بدت منهزمة على فروعها، تنفش ريشها من شدّة الحزن والتحسّر.

تفحص خالد عيون الأطفال، فرأى فيها موكب غضب تتجاذبه الأقاصي، وشكل بلاد شبه ضائعة، قابعة في حانة يداوم عليها السكارى.

حاولت جيهان أن تقدم خالداً إلى مدير الملجأ، باعتباره ابن

المدينة وذا شخصية تاريخية وسياسية، إعداداً له حتّى ييسّر لهما مهمّتهما. لكن المدير عبّر لها أنه لا يعرفه وبكثير من اللامبالاة. وبعد أن تحدّث إليه خالد مذكراً إيّاه برجالات وجدة القدامى وبعائلاتها وبالأحداث التي مرت منها، وبطقوس قبائلها، اطمأنّ إليه المدير، ثم أذن له بتفحّص الملفات القديمة شريطة الحفاظ على ترتيبها وسرّيتها.

داخل رواق طويل مهترئ، حيث الرطوبة العنيفة تزكم الأنوف، شرعت جيهان برفقة خالد في فحص الملفّات القديمة التي يتعدّى عمرها الخمسين عاماً. وبعد ساعات من البحث، كانت تتخلّلها فترات من الراحة لإيقاف نوبات العطس التي اشتدت عليهما. وللترويح على عيونهما التي انتابها الاحمرار، وضع خالد يده على ملف استرعى انتباهه باحتوائه على صورة فوتوغرافية بالأسود والأبيض. وبينما هو يفحص محتوياته، لاحظت جيهان تغيراً مفاجئاً يغزو ملامحه، حاولت أن تسأله فلم يجب.

هي الصورة نفسها التي أطلعته عليها راحيل حين كانت طفلة غضّة تحضنها مربيتها زينب. هو الآن أمام ملف زوجته السابقة، أمام كثير من الحقائق التي يعلمها ويعرفها، ولم يفصح عنها أبداً. ولكنه أمام حقائق أخرى جديدة كان يجهلها، وسيكون لها ما بعدها.

لم يكن يعلم أن راشيل الفنّانة التّشكيلية هي أمّها، وأنها قد أودعت إلى ملجأ الأيتام في مرحلة لاحقة بعد انتحارها، بعد أن التقطتها امرأة عجوز، بالقرب من أمّها المنتحرة. خطفتها وسحبتها عن الأنظار، بالرغم من السّعي المتكرّر لوالدها وللشرطة في البحث عنها وتعقّب كل آثارها.

عثر على شهادة إضافية تؤكد أن المرأة العجوز التي قامت بتربية راحيل في عمرها الأول، قد سلّمتها إلى ملجأ الأيتام في مرحلة ثانية، بعد أن تمكّن منها المرض والفقر، وكانت وحيدة تقترب من نهايتها.

فهم خالد الآن، لماذا اختفت المعلومة المتعلّقة بالحياة الأولى لراحيل.

لقد انكشفت الحلقة المفقودة في اختفاء طفلة راشيل. امرأة اسمها عيشة المتسوّلة، سرقت الطّفلة على إيقاع صراخها الممضّ، تاركة وراءها جثّة أم مضرجة في دمائها الثّائرة.

من غريب المصادفات، أن عيشة كانت ترتاد على حلقات الذّكر تنشد أقوال الصوفية وتجذب حتّى فقدان الوعي وسقوطها أرضاً مغشياً عليها... كانت تتسوّل وتنشد كلمات عبد القادر الجيلاني ونصوص الحلاج وابن عربي.

ذكر في الملف الذي رافق إيداع راحيل ملجأ الأيتام، أن هذه الطفلة مولوعة بسماع الذّكر والإنشاد، وكأنها سليلة زهاد أتقياء. لذلك، أطلقت عليها عيشة من الأسماء 'رابعة' تيمّناً بالمرأة الزّاهدة رابعة العدوية.

ذكرت عيشة في دقائقها الأخيرة، أن رابعة الطّفلة، كانت تطرب للإنشاد، ترقص رقصاً ملائكياً غالباً ما كان يفضي بها إلى البكاء. ردّدت متألمة حين تركت رحيل؛ أيّ رابعة، أنها ترى لهذه الطفلة غداً لا يشبه أيّ غد، لأنها تحمل من علامات التفرد ما يجعلها بستاناً فريداً في مملكة الأسرار.

أثناء هذه اللّحظة، التي كان يتفحّص فيها خالد هذه الحلقة المفقودة في الأرشيف، والذي يوثق لحياة راحيل في ملجأ الأيتام،

أدركت جيهان بعد صمته الطويل، بأن الأمر يتعلق براحيل، ارتبكت هي الأخرى إلى حد الصّدمة، لمّا علمت أن راشيل تبقى الأم الأصلية لراحيل، وأنها قبل أن تودّع دار الأيتام كانت في عهدة امرأة متسوّلة متصوّفة، اسمها عيشة، وأن راحيل كانت تحمل اسم رابعة.

خاطب خالد جيهان، أن هذه الحلقة المفقودة من سيرة راحيل هي التي غيّرت الحقيقة، لأن البحث عن الطفلة قد انتهى بعد مدّة، بالرغم من كل الاجتهادات والمحاولات التي بذلت من أجل العثور عليها.

راحيل نفسها تجهل هذه الحقيقة، لأنها كانت صبيّة في عامها الأول. توقفت جيهان عن الكلام، وكانت عيناها مشدودتين إلى الأعلى، كأنها تفكّ خيوط طلاسم متشابكة. تذكّرت لما كانت تفحص أخبار الفلاسفة والمنتحرين، أن راشيل كانت زوجة عبد الله الفيلسوف الغريب الأطوار. صرخت مباشرة أن والد راحيل هو الفيلسوف عبد الله الذي قاطع الدنيا والناس، وانتهى نسياً منسياً يزاول مهمة بيع الخبز، لا يتكلّم إلا قليلاً ولا يعاشر أحداً.

صمت خالد وقد لبس وجهه الذهول قائلاً، إن الذي يحزنه هو أنها ظلّت تتوسّل التاريخ بأن يعرّفها بالجذور، من أية نبتة تنحدر. شعر منذ أن تعرف عليها بأنه سائر برفقتها وسط طريق يجهله تماماً، لأنها كانت رديفة لمعنى السر والعجب، كوكبة مضيئة تحسن اختراق الظّلام. لم يكن الشّغف أو العشق اللذين يجمعانهما سنين خلت، سوى غموض آخر. كانا كالبحيرة العميقة التي لن تجفّ أبداً، كلما اقترب منها أحسّ بالحياة تغمره إلى حد الغرق، وكلما ابتعد عنها شعر بالاختناق والموت.

يأسف كثيراً لأنّ راحيل لم تستقبل منذ ولادتها بأيّة رسالة تبشرها بأي معنى للفرح، ولم تبق في سريرها أيّة بقية من الحبّ ومن العطر ذاته.

كانت دائماً تشعر بأنه لا يزال شيئاً مخفياً من طفولتها ينتظرها وراء باب حياتها، تحسّه ينافس دقات قلبها وخطوها. لم يكن لها زمن تشقّ فيه إلّا زمان الموسيقى لذلك، كانت نغماتها كسرب طيور هاربة من أقفاص الوقت المباشر. حوّلت عالمها إلى أشرعة تتهاوى في عالم لا يصغي إلّا إلى أنفاس البيانو الذي سكن قلبها وعروقها.

طلب خالد إلى جيهان أن يغادرا المكان. ليس هناك هواء يتنفّسه أو أيّة رغبة في معرفة المزيد. لهذه الأوراق المبعثرة أمامه رائحة لا أصل لها. يرى كأنّها تتجسد في كائن هلامي، يمضغ قناعاً من الألغاز، ويحاور الآتي بلغة السّحرة القدامى.

يشعر بأن هجمة شرسة من الخوف تجتاحه، تهدّده أو تجبره على مغادرة المكان. أخذ جيهان من يدها، وهو يحاول جرّها دون وعي منه، يريد انسحاباً فورياً وكأنّه يلوذ بالفرار.

تمنّعت في اللحظة الأولى، رغبة منها في معرفة كل التّفاصيل، لكنها استسلمت لاندفاعه القويّ نحو الخارج. وبعد دقائق من الصمت الذي شابه كثير من التوتّر، أدركت أن خالداً قد أصبح جسداً لا تحرّكه إلا خناجر التحسّر التي تنغرس في كلّ جهات روحه.

ربّما هو يشعر بالذنب، لأنّه فشل في التمسّك براحيل إلى آخر الرّمق. أو ربّما يشعر بأنه كان آخر الحراب التي صوّبها الزّمن إلى

صدر راحيل، فنحرها واقفة، وهي تعزف نشيدها الأخير.

حزن على هذا المصير، هو الآن يشعر بالتفتّت يغزو كيانه، لأنّه بات يدرك بأن هناك خطأ ما يحجبه الغبار الكثيف، كان وراء انحراف مسيرة التاريخ... التاريخ الذي ينبغي أن يكون. كأنّ هذا التاريخ يقول للحقيقة: قُدّر لنا في هذه البلاد أن يرفع عنا التنافس أو التّناغم. أن نحيا في اتجاهين متناقضين، ينتهيان بنا إلى أن نتقاتل، أن يموت أحدنا حتّى يدجّن الآخر ويستوعب؛ لأنّه لم نعد نملك الإنسان الذي يرعانا ونحن نحيا معاً، ونحن نكبر معاً ونشيخ معاً.

هذه البلاد العصية، الغامضة، الخطرة، لم تعد تتسع لصناع الحقيقة، للتاريخ الذي يجب أن يكون. طلبت جيهان إلى خالد أن يكف عن تعذيب نفسه، وهي تنبّهه إلى وضعه الصحي الذي لا يحتمل كل هذا التأنيب والألم.

لفت ذراعها حول خصره وأرخت رأسها على صدره، يتنسّم عبق شعرها الذي تسرّب إلى دواخله. وبحركة بطيئة وحنونة وضع يده على خدّها الجميل مستسلماً إلى دقات قلبه المتسارعة في سعي منها إلى تجديد الحياة فيه.

همس في أذنها، أنّ عياء ثقيلاً يدبّ في عروقه، يثقل حركته أو كأنه يثني ركبتيه. فهمت جيهان أن خالداً بحاجة إلى الراحة.. إلى ملاطفته وإزالة وحشته. لذلك، اقترحت عليه أن يرافقها إلى بيتها، لتحضر له أكلاً من طبيخ يديها وكأس نبيذ معتّقة.

قبل الفكرة على الفور، وبينما هما يستقلّان سيارتهما، نادى

على جيهان أحد الأعوان في الملجأ وهو يخبرها بأن المدير يرغب في لقائهما مجدّداً، قبلت جيهان الدعوة دون تفكير. وبعد حركة متثاقلة من خالد، مكره للعودة إلى الملجأ، وجدا المدير في استقبالهما عند باب مكتبه عكس ما فعل أول مرّة. عانق المدير خالداً مجدداً واعتذر له على برودة استقباله، لأنّه نسي من يكون، كما نسي كثيراً من حلقات التاريخ حسب قوله، أو كما أراد أن يتناسى كثيراً من حلقات الماضي السّياسي لبلاده، لأن التذكّر حسب زعمه إذاية لرونق المزاج ووقوع في التحسّر الذي يؤلم العظم ويوهنه.

بعد أن ألحّ عليه مشاركته بودّ ومجاملة شرب الشاي، أدرك المدير سبب حضورهما دار الأيتام، ولم يجد أية غضاضة في الحديث عن قصة الطفلة، خاصة لما لاحظ خالدا يروي باختصار عناوينها الكبرى بكثير من اللّوعة والأسى. أشار المدير بأن تفاصيل هذه الحكاية قد شغلت المدراء الذين سبقوه، لأنّها تحتوي على كثير من الغموض، على نوع من الأعاجيب التي لها صلة بالقدر الملغوم. ولكن الذي يأسف له أن لا أحد سأل عن مصير هذه الطفلة في دار الأيتام، بالرغم من المراسلات التي بعث بها المدراء القدامى إلى السلطات المسؤولة عن هذه النازلة. كانت بعض الأجوبة القديمة، في أحسن الأحوال، تشير إلى أن المعنية بالأمر مجهولة النّسب. وأنه لا يوجد لديهم طلب من أيّ أحد لإعادة البحث في الملف نفسه.

أضاف المدير: لمّا أخذ المرض من عيشة مأخذه، وجاءت براحيل التي أطلقت عليها من الأسماء رابعة، ألحّت، حسب التقرير الذي عثر عليه، أن تقضي معها الليلة لتودّعها الوداع الأخير. وبالرغم

من إصرار الإدارة على الرّفض آنذاك، نجحت عيشة في قضاء الليلة الأولى في الملجأ مع الطفلة. لم تنم في تلك الليلة نهائياً، انخرطت في الوجد والدّعاء، طالبة من الرّب أن يغفر لها سرقتها لها وحرمانها من والدها، بالرغم من أن الصّحافة نشرت صورتها، وتحدثت عن فجيعة انتحار والدتها وآلام والدها وضياعه. ردّدت في تلك الليلة أذكاراً وابتهالات وأقوالاً غريبة وغامضة.

أنشدت أناشيد عن الزّمن وطبائع النّاس، عن العدل والظّلم، عن النّور والظّلمة، عن الخلق والفناء، عن الله والوجود، عن الغدر والأنانية، عن الدنيا وأهوالها، عن الخير والشرّ، عن الصّلحاء والشّياطين. أنشدت هذه الأشياء وهي تخاطب طفلة لم تكن في سنّ الإدراك. لم تملّ من كل هذه التّرديدات وكأنها تنفخ في روحها البريئة ما ينبغي أن تكون عليه، تنقش في عقلها خريطة لسلوك استثنائي يحاور العصمة والنبوة.

لا تكن أيها العالم جليداً، قبل أن تكون ماء رقراقاً وانسياباً.

من أين لتضاريسك هذه القسوة، تجعل الإنسان لا يفرح إلا ليبكي.

ألّا يتكلم إلا ليخرس. لا يجيء إلا ليختفي. كيف طاوعتك نفسك أيها العالم أن تسعى إلى الخروج عن أوامر الرب. أن تضع في عنق الإنسان عقداً من العذاب، فيما أراد الرّب أن يكون في عنقه نوراً يطوقه بالرونق والحياة. كيف إذاً قدرت أن تلد العصيان؟

قل لي أيّها العالم! لم يعد لهذه المرأة المعذّبة مكان تقيم فيه إلّا

ما تشتهيه أنت، الموت. أتنكر عليّ هذا الكلام؟

إذا كان رأيك كذلك، فغيّر رأيك.

ولكنّي واثقة من أنّك لا تريد!

بعد أن قرأ المدير نصوصاً من التّقارير التي كتبت عن عائشة في تلك اللّيلة الواجدة، وهي تحضن وتهمس في أذن راحيل الطّفلة، التمس منه خالد أن يزوّده بها، بحسب الإمكان.

أدرك أنّ هذه النصوص تتأوّه بلغز داخليّ حابل بالإشارات والمخاطبات، عصيّ عن الإدراك السهل، لأنّه حقاً فضاء للمعاني الحيّة، أو للمعاني الحقيقيّة.

فرك عينيه وتنهّد، لما سمع المدير يقرأ نصاً آخر لعيشة، لم يستطع أن يمنع فرار دمعتين من عينيه:

- لا أسألك من أين تجيئين.

أسألك إلى أين تمضين وكيف تخطين!؟

أقرأ أهوال سيرك في كفّي وفي أشلاء المعاني التي تتطاير في انخطافي إلى الحقّ.

كلا ليس السّير هو الذي يقود إلى الإنشاد... إلى الغناء.

الحبّ هو الإيمان الذي يطرد التوقف، هو الفناء في من لا نرجو سواه.

تساءل خالد: كيف أراد القدر أن يكون لراحيل معلمتين. واحدة صوفية والأخرى مثقّفة وعازفة. هل أراد القدر أن يحافظ على استمرار

الجذور، على المعاني التي أثمرت في راشيل وعبدالله، حين كان يصغي إلى هذه النصوص، ظنّ أن راحيل كانت تغني غناء الملائكة ليس بحنجرتها ولا بصوتها، وإنما بجوارح الواجد ومعاني الأبدية الخفية.

لا شيء ممّا مضى يرقد في النّسيان، إلا مرورها الذي يأنف من أن يكون مجرد حضور. إلّا غيابها عن العين الذي قذف به في متاهات وقت طويل وضائع.

نهضت جيهان من كرسيّها، تشير إلى أن الوقت قد حان للمغادرة. صافح المدير خالداً، بعد أن سلّمه نسخاً مما دوّن عن عيشة. وفي الطريق إلى البيت، قالت له جيهان بأنها كانت تسأل دائماً عن القدر وضحاياه، عن الثوار الذين حاولوا كسر قيوده، عن علاقته بالحرّية وبالنّساء.

ظلّ خالد صامتاً إلى أن وصلا بيتها. تناولت مفاتيحها من جوف حقيبتها اليدويّة، وهمّت بفتح الباب سعيدة باستقبالها له لأوّل مرّة. دخل وراءها الصّالون المشرع مباشرة على الباب الخارجي، وفيما هي تطلب إليه الاستلقاء على الأريكة، توجهت مباشرة إلى المطبخ لتحضر طعاماً وشيئاً من النّبيذ.

أحسّ بأنه غير قادر على الحركة، وكأنه قد قضى الدّهر يتردّى في الأشغال الشّاقة. هي راحيل تحثّ على حضورها البهيّ في عقله ووجدانه، تسكن مخيّلته كالمدائن المشادة، كالمدائن المحروقة والمنهارة. وهذه صدى صورها العالقة بالذّاكرة وموسيقاها الثابتة في السمع والوجدان، هو كالآثار القليلة الناجية من انهيار الحبّ الحصين الذي

ما كان يجب أن ينهار. وحدها أنوثتها الملغّزة من كانت تجمع ما بين خالد والحياة، ما بين الشيء ونقيضه، ما بين أن يكون أو لا يكون، لأنها تترجم هذا التآلف العجيب في انبعاث معان تضلّلها ألغازها المتكتمة، تردّدها أنغام عزفها السائل فوق كف تاريخ مشرّد وطريد..

فرك عينيه دون توقف وكأنه يلح على النسيان أن يتركه إلى حال سبيله، أن يبحث عن ممرّ للفرار ما بين أروقة الهواجس الثّقيلة التي تقض مضجعه الآن.

في هذه اللحظة، وهو يصارع عنف الحضور الشّرس للمعاني التي تحملها راحيل، هتف بصوت مرتفع وكأنه قد أصيب على التّو بلوثة جنون، بالرغم من محاولة ضبطه لكلامه الذي هرب منه بالقوة.

تكتظّ الصّور فوق هذه الجدران كأنها الجراد، هي تحاول غزو عدم الاكتراث الذي يسكن في الأحشاء ويفرّخ فيها. اجتهدت في أن تروّض قوافل الخوف والتراجع، ولكن شهوة القدر ورغبته في الانحراف، أوقف سعيها، وأبطل حبها في أن يترافقا العمر كله فوق سكّة الغناء في وحدة الحبّ نحو المجهول المتحكم فيه.

لم تكن راحيل ترضى بقراءة الواقع إلا في خطوط يديها. تقرأ عكس ما يقرؤه الآخرون، أو عكس ما أصبحت تميل إلى قراءته، لأنّها تعبت من قراءة الغيب في صورة ما ينبغي أن يكون.

ترك مكانه فجأة متّجهاً إلى النّافذة يطل منها إلى الخارج. كأن زلزالاً من الندم والانفعال يخسف الأرض من تحت قدميه. شعر بحمى متوثّبة تسطو على رأسه وكأنها تدفع به إلى التيه. هو الآن يحاول طرد ما يجثم على وعيه. أن ينسى خطأه الكبير لمّا جعل من

اللّوحة الفنّية التي ورثتها راحيل سبب انفصاله عنها وطلاقهما.

لم يستطع أن يدرك، آنذاك، أن تلك اللّوحة هي التي ورثتها عن راشيل عبر مربّيتها زينب. أنّها تلبس كل المعاني التي لها دلالة الوجود والامتداد. تلبس هوية راحيل وتشكّلات الانتشاء الذي يمدّها بقوة الاستمرار.

اعتقد خطأً بأن البيانو هو وحده المعنى المنفرد الذي تحيا به، أو هو التفاؤل المطلق الذي يقودها إلى مزيد من التشبث بالحياة، نسي أنها كانت دائماً تحدثه عن كارل يونغ في موضوع الأحلام، تؤكّد له أن علاقتها بهذه اللّوحة هي العلاقة ذاتها بأحلامها منذ أن استلمتها، وهي قماش من مربّيتها زينب. منذ ذاك، وشخوصها المرسومة وأشكالها المنضّدة لها صدى يتردّد على الدّوام في أعمق غور وأخفى نقطة في الرّوح. لم ينتبه إلى أن هذه اللّوحة بمثابة الحلم الذي يجلي الماضي المغمور ويخطط للنّبوءات. كان اعتقادها راسخاً بأنّ لا شيء أكثر عجباً وغرابة من الألوان التي تحفر في الأحاسيس شعور البدء المتجدّد، كما الأحلام التي تقرّبنا في حضرتها من الإنسان الكلّي الذي يركن إلى الليل متعالياً عن العالم، مستسلماً للحظات مثيرة من اللّاوعي، من الخلق السرّي اللّاهث إلى القبض على برهة منطلق جديد ومغاير.

الآن، يعترف خالد بأنه لم يكن قادراً وقتها على فهم ما كانت تمثّله تلك اللّوحة الفنية بالنسبة إلى راحيل، باعتبارها أصلاً من أصول وجودها ورؤيتها للعالم والإنسان.

انفرط عقد زواجهما لما قرّر خالد ذات يوم أن يدعم المقاومة

الفلسطينية في حرب الحصار ببيروت سنة 1982م، انطلق حينذاك بحماسة منقطعة النظير يجمع الهبات لدعم المقاومة ضد غطرسات شارون. خطب في كل الجهات ليؤكد أن كل العرب والإنسانية في خندق واحد ضد الوحشية، في مسيرة واحدة ضد النّار والظّلام. لم يكن له كثيراً ما يهبه إلا بيع سيارته وساعة يدوية لها قيمة تاريخية ورثها عن أبيه. ولما اشتدت الحاجة إلى جمع مزيد من التبرّعات وكان يدرك أن اللّوحة التي تحتفظ بها راحيل ذات قيمة مالية عالية، ألحّ في الطلب على بيعها في المزاد العلني تحت شعار 'دعماً للقضية' ضماناً لارتفاع قيمتها المالية وترسيخاً لثقافة التبرّع ونصرة قضايا الإنسان العادلة.

وقتها، رفضت راحيل أيّ حديث عن إمكانية التخلّي عن لوحتها، وقد وهبت له في المقابل أسورتها وحليّها فضلاً عن مبادرتها لإحياء سهرات موسيقية يخصّص ريعها لدعم القضية الفلسطينية. وبالرغم من الجهود التي بذلتها في جمع التبرّعات، أصرّ خالد على بيع اللّوحة في المزاد العلني معتبراً أن أيّ رفض تبديه حيال طلبه هو عبارة عن نسف للميثاق الذي يوثّق مبدأ علاقتهما. كان مقتنعاً إلى حد العمى بأن مبدأ الانخراط في قضايا الإنسانية والالتزام بالقضية الوطنية والفلسطينية، هو مبدأ سابق عن ذاته نفسها، ومن ثمة فهو سابق عن مبدأ العلاقة الزوجية. لذلك خيّرها ما بين المبدأ والموقف، وما بين موقفها وضرورة الانفصال.

وقع اندفاعه هذا عليها وقع الصاعقة، لأنها لم تكن تتخيّل ولو مرة واحدة أن يفكّر خالد في هجرها ولو في الحلم... أن ينتهي مشوار حياتها دونه.

تساءلت من أين جاءته هذه القوّة، في أن يرغمها على أن تختار ما بين اللّوحة أو الانفصال عنه؟

فهمت بأنها لم تكن في عالمه إلا شيئاً ملحقاً، أو أنّه لم يكن يرى فيها أكثر من مجرّد موضوع للأنس والألفة.

أسفت كثيراً، لأنّها وهبته كل عمرها، ولهج قلبها بكل أسمائه ونزواته وأفعاله. تمنّت لو أنه خيرها ما بين عمرها وما بين اللّوحة، لكانت قد منحته عمرها وكيانها. عجبت من نفسها، كيف أن خالداً يعرف علاقتها بشخوص تلك اللّوحة وفضائها، ومع ذلك يرغمها على أمر يعرف مسبقاً أنها عاجزة على تنفيذه.

أمضت ذلك اليوم كلّه تقلب الأسئلة الممكنة والمستحيلة. لم تعد تعي ذاتها ومحيطها، كأن سكراً متدرّجاً يتلقفها إلى أبعد نقطة في عقلها. وجدت نفسها تحبو في مسيرة يقودها الشّكّ والألم والقاسي.

ما أشقى لحظتها، تتدافع منها خناجر مسمومة لا تعرف كيف تنحر بضربة واحدة رأفة بها. هي في حالة عزاء له جرح غائر مفتوح تسكنه بروق المآسي ورعود النّهايات.

لم يكن يفكّر خالد، حينذاك، إلا في آفة اجتياح بيروت وإحراقها تحت أطنان القذائف، وفي عجز عربي ترصّعه دورات اجتماعات طارئة وإحداث لجان المتابعة.

آلمه كثيراً أن تخوض بيروت الحرب وحيدة لمدة ثلاثة أشهر، تستغيث كالعصفورة المحاصرة. اعتقد برسوخ، بأن هذه الحرب مفصلية في تحديد مصير المقاومة العربية وامتدادات المشروع الصهيوني. إمّا أن تنتصر المقاومة العربية وتؤسس لمنطق مغاير للمفاوضات من موقع

القوة، وإما أن تنهزم نهائياً لتفتح باب المرور للمشروع الصهيوني وطمس الهوية. اعتقد أن مشروع المستقبل الديمقراطي في البلاد العربية رهين بنجاح المقاومة الفلسطينية، وأن دعم هذه المقاومة شرط وجود يتسامى عن المصالح الذاتية والحياة الخاصة. فالحثّ على التبرّعات وحشد الإرادات هما من قبيل الانخراط المبدئي الذي يتم من خلاله الميز ما بين المناضل وضده، أو ما بين المناضل وصورته. ولم يكن خالد يريد أن يكون إلا مناضلاً قادراً على التضحية بحياته الخاصة انسجاماً مع القناعات التي يحملها.

ما أشقى أن ترفض راحيل وهبه تلك اللّوحة ليبيعها في مزاد علني، هو بمثابة التّجمّع الباحث عن الإجماع حول التضحية وإرادة المقاومة!

ظن خالد بأنه قد ضيّع الوقت في ترصّد المبادئ الكبرى رفقة راحيل، وأن تمثال الحبّ الذي كانا يجسدانه يخفي شروخاً داخلية غير مرئية، هو الآن يتهاوى أجزاء متطايرة إثر أول هزّة ضربته. كلما ازداد إيغالاً في فهم أسباب امتناع راحيل عن التبرّع بلوحتها، ازداد نفوره منها، لأنّه يؤمن بأن ما يجمعهما ليس الحبّ فقط، وإنما الإيمان بالقضايا الجوهرية التي لها علاقة بتحرّر الإنسان، وبالعدل والكرامة.

ذات ليلة وبعد أن أرهقه السؤال من شارع إلى شارع، قرّر أن يهجر راحيل دون أن يطلّقها، أن يفض أختام تاريخ أصبح هامشيّاً أمام الزّمن الموضوعي الذي ارتهن إليه. زمن المقاومات من أجل الإنسان في كل العالم.

رفضت راحيل أن تبرر موقفها، لأنها كانت تعلم أن خالداً أكثر من غيره يعرف أن تلك اللّوحة هي المعنى الذي تتوكأ عليه، والحلم الذي يجدد حالاتها بالحياة. حدثته مراراً بأنها أنشأت روحاً واحدة من روح اللّوحة وروحها. تخبئ بين ثنايا قلبها وفي مجاري دمها انسيابا من إيقاع يرقص بحذاء مضيء، مرصّع بالنجوم النادرة. وإذا قدّر لهذا الإيقاع التوقّف، ولهذا الرّفض الجمود، خمدت روحها وتوقفت حياتها. ترى دائماً بأن هناك شيئاً غفلاً وغير مرئي يسبق أيّة مقاومة، أيّ فعل يخصب النّبل والمعاني الجميلة. ليس ذلك الشيء إلّا الإنسان نفسه، تلك الكيمياء الخفية التي توجّه إرادته وأفعاله.

لاحظت، وعاينت، وشهدت بأن المقاومة في حد ذاتها لا تعني شيئاً، إذ لم تكن مزودة بذلك الحسّ الذي يكون فيه الإنسان متعدداً تنتقي فيه حيل الأنانيات وتصيّد الأسلاب.

من معاني هذه اللوحة، أنها تؤسس لذلك الشيء الذي لا يُرى، للحس الذي تولد من خلاله شهوة المقاومة، ويتنفس باطن الإنسان الكلّي من أجل الإنسان فقط.

رأت أن خالداً كمثل فلاح لا يهمّه إلا حرث سطح الأرض، ولا يفكّر إلا في ظاهرها المباشر. أما أن يفكّر في نوعية التّربة وفي أعماق الأرض، فهذا أمر يظل بعيداً عنه في طيّ الخفاء. رأت كذلك أنه قد ضيق عليها بموقفه هذا فضاء الحرّية، ولم يفهم بعد جوهر عمقها، فملأ صورتها بالثقوب لمّا اتّهمها بتعلقها المادي بلوحة فنية لا تعني شيئاً أمام شرف المقاومة وواجب التضحيات.

ليتها تقدر أن تتجاوز هذا التوتّر الخانق وتنحني لرياح العاصفة،

هكذا كانت تحاول أن تقنع نفسها، لكنها أحسّت بأن في داخلها شيئاً ما قد انكسر، قد تهاوى بقوة، وأن علاقتها بخالد قد انتهت، لذلك، ألحّت على الطلاق، ولو أنه قد رفض.

تنبّه خالد أن جيهان تناديه من المطبخ دون توقّف، فانقطع عن تذكّر قصة طلاقه من رحيل. اكتشف محاولاً الرّد على جيهان التي ألحت على مناداته أكثر من مرة، بأن تجمّداً غريباً قد ألمّ بكل أطراف جسده وقد رشح بالعرق... التفت إلى جهة النّافذة فوجد أن ضوء النّهر قد أفل، وأن الظّلام قد وضع رجله على عتبة اللّيل.

رد على جيهان بصعوبة، ملتوي اللّسان، وكأنه قد استفاق من نوم طويل استغرق ردحاً من الدهر. انخضّت من طريقة حديثه، فاندفعت إليه مسرعة. لم تهدأ إلّا بعد أن وجدته واقفاً على رجليه يبتسم ابتسامة منهزم. ارتمت على حضنه تقبّله بشغف وشوق، بعد أن توجّست خيفة من أن يكون قد وقع له مكروه. أخبرها بأنه قد استسلم إلى التّأثر بما علمه اليوم، عن راحيل، من دار الأيتام. لم يدرك كيف انخطف مغمض العينين إلى تلك الأيام العصيبة التي توثّق لأسباب انفصالهما. وعلى إلحاح راحيل على الطلاق.

يحدّث جيهان وأجراس العشق والحنين تدقّ في كل شريان ينبض داخله. حزن كثيف يعزف على أوتار عينيه. لا شيء يسكن خاطره غير صور متحركة بتثاقل تتمايل في مخيّلته. هيهات أن يستدرك الحاضر أخطاء الماضي، أن تقنع النّدم وتدفّق المسارات بالتراجع أو التوقّف!

ردّد أنه لم يكن يعلم أن للقدر يداً تعبث بالخطا المتحركة بإرادته... فقد كل شيء منذ أن اقتنع خطأً أنه المفرد، وأن المثنى أفكاره، وأن الجمع وطنه. أسقط من هذا التّصنيف إنسانيته لما ألغى من هذا المثنى وجدانه وخصّه بأفكاره أو بصدى الأفكار لا غير...

بدت جذور غضبه تتعرّى ويتطاير منها ما كان يغطّيها. سأل جيهان محموماً:

- ما هو الخطأ؟ أهو مجرّد مجانبة للحقيقة ومجرّد وهم؟ أهو مجرّد ازورار عن الطريق الصّواب؟ أهو طلقة رصاصة طائشة قد تصيب رأس عابر سبيل؟

سكتت جيهان وهي تحاول أن تحطّ يدها فوق منكبيه بشدة، جاهشة بالبكاء، لمّا لهج بكلام متقطّع ومخنوق:

- الخطأ هو أن نفقد من نحبّ، أن نكون سبباً في الفقد!

طلبت إليه متأثّرة أن يهدّئ من روعه، عابثة بشعره الرّمادي، ووجهها يسيل فوق عنقه كغيمة ممطرة. خاطبته مازحة هامسة في أذنيه بأنّها تريد أن تراه هذه اللّيلة يشرب النّبيذ ويعبّ سيكاره. يحدّثها عن حكاياته التي لا يعرفها أحد، عن أسراره الدفينة التي لا تعرفها راحيل. نظر إليها باسماً وعيناه تشعّ بما تبقى من دمع متحجّر في مقلتيه، يتحسّس بأصابع ضائعة بعضاً من شعرها المتدلّي كعناقيد لؤلؤ فوق عينيها. نهضت من حينها مسرعة نحو المطبخ لتحضّر الطّعام وزجاجة نبيذ معتّق، بينما فضّل خالد النّهوض للاستحمام بماء دافئ.

طاولة مدوّرة تضيئها كوكبة من الشّموع، يتربّع وسطها طابقان.

واحد من اللّحم والخضر، والآخر من فواكه منوّعة تحيطها بعض الزهور. بمحاذاة الطاولة زجاجة نبيذ من النوع الجيّد تقف مائلة داخل إناء معدني، طويل شيئاً ما، يحتوي على قطع من الثّلج المتراصة.

جلست جيهان قبالة خالد، وقد ارتدت بيجامة مكوّنة من سترة بيضاء وسروال برتقالي شفّاف، أطلقت شعرها الذّهبي ليترنح بفوضى فوق كتفيها، وكان خالد قد ارتدى لباس استحمام منحته إياه لما كان يستحم.

وبعد أن ساد بينهما مقدار من الصّمت، تناولت زجاجة النبيذ بطواعية لتملأ الكأسين، ولو أنها لم تكن تحبّ أن تشرب النّبيذ وليست من المتحمّسات لمعاقرتها... تعجّب لما رآها تحتسيها كزيزة الشفتين. سألها عن سبب هذه الرغبة المفاجئة، فأجابته بأنها تريد أن تشاركه شربه وهواجسه وكل أحزانه. وبعد الكأس الثالثة، هجمت حمرة جميلة على بياض وجهها ونضرة خديها.

راقها كثيراً أن ترى خالداً، يعب السيجارة، ينفث دخّانه بتؤدة. تأمّلت شفتيه المتعبتين، وقد أخذتا لون النّبيذ، تنتفضان وتطبقان على إيقاع حديثه الذي كان ينفذ كالبلسم إلى أحاسيسها، يحضن دقات قلبها وهمسات أنفاسها التي كانت تتقطّع بتنهدات عميقة ما بين الفينة والأخرى كلّما اهتزت مشاعرها أمام حكاية من الحكايات يسردها خالد ويتفنّن في عرضها.

حاولت أن تسأله عن كل المعاني التي تشغلها، عن الحبّ والسياسة، عن التاريخ والفلسفة، عن الكفاءة والرداءة، عن البلاد نفسها. أجابها

بأن هذه المعاني مجتمعة بتناقضاتها وما يظهر منها من وحدة وارتباط، تمنح الإنسان دون أيّ جبر أو شرط ماهيته وتميّزه عن باقي الخلائق في الوجود، في الاختيارات والإرادات، في المنظور إلى الحرّية ومقدارها. الفلسفة هي السرّة التي تنعقد فيها كل المعاني. وتنجلي فيها كل المبهمات، ولو أنها أصل المبهمات... كل منّا رضعها بالطبيعة، بمقادير نوعية متفاوتة. لذلك، كل منا أصبح مختلفاً عن الآخر ليس بحسب الاختلاف الجيني، ولكن بدرجات الوعي وإدراك الحرية. لا يكاد يولد شكل في الإنسان، حتّى يولد معه نوع من التطبّع بالحرّية، كلّما كان التطبع مقروناً بإرادة الوعي في البحث عن معاني الحرية، كان أساساً حقيقياً لزلزلة أسس العبوديّة ودكّ أبراج الطّغيان.

أسوأ ما في الأمر أن يتطبّع الإنسان بأن يكون ما تحت الإنسان، أن يمجّد الطغيان نفسه، يخدعه بتماهٍ معه. وفي ذلك، فهو يستنسخه في أسوأ صوره، هنا... وهناك. تلك مشكلتنا في الحبّ والسّياسة وقراءتنا للتاريخ، وانتمائنا للأحزاب السياسيّة والجمعيات المدنية وفي علاقتنا بأسرنا وبأصدقائنا وبذواتنا حتّى. هناك اليوم تدافع تراجيدي نحو أنانيات قاتلة للحرّية. تنكّرنا لأدوارنا التي خلقنا من أجلها، ربما بعد انهزامنا، وربما بعد خوفنا وقبولنا أن نكون قطعاً تابعة، ولكننا لن نسامح أنفسنا لما سكتنا، وما فتئنا نسكت، عن انتعاش الدّبابير التي لم تمل من الاقتتات من عجزنا الداخلي، ونحن نستطيب تنفّس الجلبة والصراخ والتهليل والتكبير للصور والنسخ... ما أبشع ما يحدث في البلاد! ولا عزاء إلا لإنسانيتنا الهاربة من طينها وسمائها.

بهذه الجملة، توقف خالد عن الكلام ليحث جيهان عن

السؤال. عن سماع صوتها الذي يسكب في قلبه الحياة. قال، قبل أن تتكلم: إن راحيل كانت تقرأ دائماً ما يكتبه فلاسفة الحرّية، لم تأل أيّ جهد في عقد المقارنات ما بين الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر وما بين الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر. كانت تميل إلى سارتر الذي يرى أن الوجود أسبق من ماهية الإنسان؛ لأنّه يتوجب عليه أن يوجد أوّلاً، حتّى يختار ما يريده ثانياً، كيف يكون وماذا يكون. الإنسان الحقيقيّ هو الذي يحدّد وجوده وحرّيته، ولا يسمح لأي قانون أو أيّ نظام أن يسلبه حريته وكيانه ورؤيته الخاصة للحاضر والمستقبل.

ازداد شغفها بسارتر لمّا رفض وسام جوقة الشّرف وكل التكريمات. لم يقبل أبداً، أن يكون يوماً ما تابعاً لأية سلطة أو لأيّ نزوع يجعل من الكاتب والمفكّر مؤسسة تابعة مطأطئة الرأس.... أن تكون موجوداً، يعني أن لك موقفاً ورؤية مستقلة. لم تكن راحيل تتوقّف عن ترديد هذه الجملة. كلما تطلّب منها الأمر أن تبدي موقفها، كانت تفعل دون أن تفكّر في العواقب والنّتائج. الحرّية هي الوجود، هي أن تكون لك القدرة على التعبير دون خوف أو حرج، أن تكون كلمتك من جنس الحق، أو هي الحق ذاته.

قاطعته جيهان، وهو يسترسل بحماسة في الحديث، متسائلة على رفض سيمون دوبوفوار لفكرة الزواج من سارتر واعتراضها على الإنجاب. كانت ترمي من وراء سؤالها البحث عن أوجه الشبه بين خالد وراحيل وسارتر وسيمون دوبوفوار، ولو أنّ الأوّلَيْن كانا متزوجين فعلاً.

أحسّت في حديثه أن لباريس رائحة للمثل الذي تشتهيه، لها صدى لوقع أقدام جيل حفر في الصّخر طريقاً ضيّعه الأبناء، كاد بذلك

الطريق أن يرسم عالماً رحباً للإنسان، غير العالم الذي نعيشه اليوم... عالم فاضت عن تخومه كراهية مقيتة، جرفت الموسيقى وحروف الحياة.

كأنها تريد أن تؤكد لمن يشك أن نبذ الفلسفة والشعر وازدراءهما من طرق بعض النّخب، كنخبة التّكنوقراط، كان سبباً أساساً في ميلاد فقيه لا يفقه شيئاً وبين يديه كتاب الإفتاء والتكفير.

ابتسم خالد حين عبّ سيجاره قائلاً: هناك كلام كان يردّده أهل وجدة هو أن المرأة 'اعْمارَتْ الدّار' ومعناه أن المرأة هي السّكن الحقيقي والملجأ والحضن والاستقرار. لمّا تهجر الرّجل ينقلب إلى شخص تائه وناقص، يمضي وقته يقتل الوقت ويحرق تبغ السيجارة. ليس لأحلام الرجل غير المرأة التي تصنع معه الوجود ذاته، والوعي ذاته. تفكّ برفقته غموض الحياة، تقتل ثعبان العبث، لمّا يحصل هذا الاتفاق، لا تكون مؤسسة الزواج إلا شكلاً أو واجهة اجتماعية لا غير.

كان جان بول سارتر يشرح علاقته بسيمون دوبوفوار، أو هكذا كانت سيمون ترفض الزّواج وعادة الإنجاب التي قد تثمر أبناء دون المعاني التي وهبت نفسها للكفاح من أجلها طول العمر.

ولو أن راحيل قد أصرّت على أن ترسم علاقتها بخالد عبر طقس مؤسسة الزواج، وأن الأقدار لم تشأ أن يكون لهما أبناء، وذلك خلافاً لسيمون دوبوفوار، فإن كثيراً من أفكارها تتشابه وتتصادى إلى حدّ كبير.

لا مكان للعبث في المستقبل السّليم. إجبار المؤسّسات وسطوتها

يغري في البداية بالانتظام والانضباط إلى القوانين. لكن هذه المؤسسات تحولت بإرادة منها إلى النقيض، وهي تدقّ المسامير الغليظة في عيون الحرّية لتحول الوجود نفسه إلى خدعة تجر وراءها الإنسان ذليلاً مكبّل اليدين مغمض العينين... سائراً إلى حتف محتوم.

لا مكان للوجود دون حرّية. إن حضور المؤسسة للزجر هو إنذار بالوحشية والفوضى. القانون نفسه هو دعوة إلى الخرق والشغب، أو هو البياض المغري الذي يولد في الظلام المريع. لهذه الأسباب كانت دوبوفوار ترفض أن ترتبط بسارتر عبر قانون الكنيسة أو أيّ قانون آخر.

الموسيقى هي الحرية، هي اختراق مدوّ للمؤسسة، أو هي تشرّد حالم في ثنايا العالم. تشرّد له وعيه الخاص، له أشرعة الإيجار في أنفاق المنغلقات المظلمة، لأن الموسيقى هي الوجود القبليّ والبعدي، هي نقيض العبث والخواء...

كانت راحيل تجد في سارتر ودوبوفوار أو ما جاور أفكارهما، ملاذها حين تتأمّل عالم الموسيقى والفلسفة والحرّية والإنسان. كانت تكرّر مراراً أن الموسيقى أصل الأصول، أصل الوجود وتكوّن العالم.

لم تستطع جيهان، وهي ترى خالداً يتحدّث عن راحيل بانشغال استنزفه كثيراً، أن تستمرّ في الإنصات. قاطعته بجمل متدافعة مدغومة لا يستبين معناها، تخلط تنهّدات مخمورة بصوتها المتهدّج ذارفة دمعاً عصيّاً لا يقدر أن يفكّ شفرته إلا الغارق في لوعة العشق وجمر الهوى.

اقتربت منه، وفي يدها الرّاجفة كأسها التي رشفت نصفها.

نظرت إليه وفجأة طوّقت عنقه بيديها غير عابئة بانفلات الكأس من قبضتها، هارقة ما تبقى من النبيذ على ظهره، وقد انساب كالوشم يحفر فوقه حروف أصدق أشعار وأغاني التّتييم، حضنها بعنف، وكأنه يبغي إدخالها في أعماق قلبه. أدخل أنفه في خصلات شعرها الثّائر، وكأنه يشتمّ فيه رائحة تربة زكية تنبعث منها وقدة ضوء معجز. أحسّ بأنه يرى من خلاله شيئاً من الآتي يترنّح جانحاً على شطّ الرضا والطمأنينة...

ظن أن ملاكاً حطّ في حضنه لينفخ فيه روحاً مختلفة، أو ليحيي ما قد مات فيه. هذه اللحظة جعلته يشعر أن المرأة تكتب الأقدار وتختار للخطوات طرقاً إلى سدرة المنتهى. مرّر أنفه وشفتيه فوق عنقها، لما رفعت رأسها إلى الأعلى. شعرت بأن بروق الشّهوة الخاطفة قد ضربتها طولاً وعرضاً، وأن شيئاً ما كثيفاً ينسرب في عروقها كأنه هزة اللذة الكبرى. استسلم خالد إلى استنشاق طويل وعميق تخلّلته قشعريرة جارفة دفعته إلى التهام شفتيها المتورّدتين، وكأنه يمتص منها رحيق القوة والانبعاث. غشّاه رعاشها، ولما اختلطت أنفاسها أرخى يده فوق صدرها لتنسكب كالسّائل السّحري.. فوق سرّتها وفخذيها. أخذه اللهاث توقاً وشوقاً، ولما تسارعت زفراتها وتغيّمت الأشياء في عينيهما وهما ينقّلان بالتبادل فماً لفم ماء الوصال الهادر، هبّت دقائق الغيبوبة البطيئة وسلطان الارتخاء والعياء...

كان الجانب الأيسر من جسدها النّابض يلفّ خالداً، وهو مستلق على ظهره بخمود تام. وفيما كانت تداعب صدره في صمت يرنّ بإشباع الرّوح، شرد بوضع شفتيه على جبينها يدحرج الأسئلة الكثيرة كعجلة عصيّة مركوزة في موقعها.

ثمّة شيء لم يفكّر فيه قبل، هكذا بدأ يتساءل. تبادر إلى ذهنه أنّ الإحساس الصّافي بجسد المرأة الذي يفيض بلغز العشق، هو أصل كل إرادة في الإقبال على الحياة ومحبّة الكون والإنسان. لماذا تتنضّد الأحاسيس يومياً بكثرة وفي كل دقيقة. لكنها لا تثمر محبّة كاملة؟

كثير من البشر، أو كل البشر يحسّ بما أحسّته قبل قليل، ولكن لم يندلق من هذه الأحاسيس إلا الشّيء الضّئيل جداً من المحبّة. هل لأن الأحاسيس الخُلّب هي السّائدة؟ نزوات بهيمية تحشد لذّة موهومة؟.... هي عتبات تتدلّى من ثقب الفردية، تتيبّس من مجرّد قضاء الوطر.

الأحاسيس الصّافية المتدفّقة من سرّية العشق لها امتداد إلى كلّ ما تبقّى من أحاسيس الإنسان؛ إحساسه بذاته، بالعالم وبالآخر، بالبلاد الذي تأويه وتظلّله بسمائها. كلّما كان الإحساس باستلذاذ المرأة لحظياً، كان هذا الإحساس مغشوشاً يفسد كل ما تبقى من أحاسيس الآخر. لذلك، لم تنعم البلاد أبداً بفيض الأحاسيس الصّافية، لأنّنا لا نعيش اللّذة الممتدّة أو المنسابة، تلك هي علاقتنا بجسد الأنثى، والتي هي علاقة فرد بذاته، وليست علاقة فرد بالآخر من أجل إكمال صورة الوجود، أو صورة البلاد المفترضة.

الآخر هو هنا المعنى المنفتح من الذّات إلى البلاد، ومن البلاد إلى اللّامنتهى. لا نستطيع أن نعبر تلك المسافات الفاصلة ما بين هذا وذاك بأمان، إلا بقوّة الأحاسيس الصّافية النّابعة من الأصل الأول الذي هو الرّعشة الكبرى الفائضة عن التّزاوج أو توحّد معاني الجسدين.

الرّجل لا يسكن أبداً جسده، كما يعتقد مخطئاً. كما التّربة لا

تسكن الأرض كذلك. الرّجل يسكن المرأة حتماً، والعالم تمثال بهيّ يجسدهما، وليس العكس. كما أن التّربة التي تسكن خصوبتها دليل على ثرائها الأزلي.

أجمل صورة للكون، أن تعلو بحّة مزمار التوحّد ما بين الجنسين، تملأ فضاء العالم الذي يوشك على الانهيار. التفتت إليه جيهان حين كان غارقاً في التأمل، لتسأله هل هو سعيد برفقتها. ألقى يده فوق ظهرها يتحسس طول المجرى الذي يتوسطه. تنهّد عميقاً، وهو يقول لها، إنها الضوء الذي يسهر بين يدي ما تبقى من عمره. ارتمت فوقه لتقبل جبهته وعينيه وعنقه، هامسة في أذنيه أنها تشعر بأنفاسه ورائحة السيجارة التي تتعرّش في مسامه. رائحة تحبل بحمّى التغيير، ولو أنه يفوق الستين قليلاً، لأنّه لا يزال يحمل كلمات السرّ، وفي عينيه جيش من المعاني الواعدة بانتصار الحقيقة. ترى نفسها وريثة سرّه، حافظة على الأطياف والأساطير التي نبتت في أحشائه. هي الآن تحاول أن تغترف من نبضاته صراخه الذي كان يرعب الذئاب والرّديئين الذين ما انفكّوا يجوسون كلّ الفضاءات والأمكنة.

حاصرها بذراعيه، وهو يقلّبها إلى تحت صدره يتنشّق نهديها اللذين لم يتوقفا عن الإفصاح بالرغبة الأكثر جموحاً.

قال لها بأنه كمثل رجل شريد يلجأ إلى فيئها، وهو يقع من حيث لا يدري في حبّها، بالرغم من فارق السنّ بينهما. أخبرها بأنه ما كان يعتقد يوماً بأن امرأة في العالم تستطيع أن توقعه في العشق مجدداً، لأن قلبه قد ترك لراحيل، مكتفياً ببقايا ريقها ورحيقها اللّذين اختمرا في دمه وروحه، ومنحاه قوة الاستمرار الأليم في الحياة.

هو الآن يرى في عيني جيهان هجمة لإكسير الحياة، تخرج من مسامها كالجيوش الجبّارة، تلقم روحه، التي أرهقها الكبر، طاقة التجدّد والقوة. ومع ذلك، فهو يشعر في العمق أن راحيل سيّدة روحه، يراها كل ساعة ويسمعها ولو أنها بعيدة عنه. هو يعترف لجيهان بأنه حائر أمام هذا الشعور الملتبس الذي أصبح تتوزّعه امرأتان.

امرأة تعلّق على صدرها فصوصاً من وهج السّماء. قلبها ينزف بحروف الخيبات، تصغي إلى أراغن الهجر وتهدهد أغاني التنكّر والوفاء. وامرأة تجرّ زبد البحر من منبته، تظلل به المكان الذي يأوي ما تبقى من سرب الطيور المهجّرة والمحقّرة، التي رفضت أن تكون من فصيلة الببغاء.

ما بين راحيل وجيهان، يضع خالد قدميه على عتبة فصل جديد من عمره. قد تكون أوتار القدر قد هيأت للحلقة الأخيرة من هذا العمر عزفاً مغايراً لا يعلم أبداً محتواه وآجال توقفه.

نظر إليها وهو يلح على إيقاظ الأفق الذي يختفي في تموّجات عينيها، وفي ازدحام النّعوت المنبعثة من جسدها الشهيّ. ومع ذلك، فهو يرى خريف جسده يتسلق لاهثاً، ودون جدوى، جدار ربيع مزهر؛ لكنه مهما سعى، فهو لن يصل إلى خضرته، لأن الفصول تكرّر زمنها الخاص، ولا تكرّر أبداً زمن الإنسان. كل فصل خلق لقتل مجاوره أو منافسه. وكل إنسان يخطّط لقتل الفصول، لا يدري أنه بذلك يخطط لقتل العمر، أو ما تبقى من العمر...

شعر عبد الله هذا الصباح، وهو يعبر زقاق المدينة إلى مخبزته، بأنه يرسم بأنفاسه عمراً على وشك الانتهاء. بدا له أن الشوارع المنهكة

والبيوت الشائخة كمثل حشد من النّائحات اللواتي تلففن أعناقهن بمناديل حداد بيضاء، يطرزها العياء والتردّد الذي يوثّق لزمن محفور في الكوابيس. اعتبر أن هذه المناديل تتطاير ببطء في الهواء، وهي تلاطفه لاهجة بوداع أخير...

لا يعرف إن كان يسير فوق الطريق التي يعرفها جيّداً، أم أنه سجين أوهام ووسوسة داخلية. التوهم شبهة ثابتة في منظور من يصنع الواقع. هو سفر متوتّر في نفق جوفيّ من الغربة. يتبخّر فيه الملموس وتغيب فيه الذاكرة. التوهّم ضد التاريخ، لأن التاريخ مرهون بالواقع وتلاحق الأحداث وسيّادة الذاكرة. منذ مدة وهو يجد نفسه يتآخى مع التوهّم، لأن الواقع لا يتسع إلى المآسي، يكبّل الروح بعباءة مصنوعة من المسامير. يحسّ هذه المرة بأنه رجل ضائع في الطريق، وهو يتّجه نحو مخبزته أو بيته، لأنّه بات يظن كأنه كائن هوائي تتأبّطه غيبوبة مراوغة.

سأل نفسه، هل عليه أن يؤمن مثل غيره بأن الإنسان العاقل هو الذي يعرف كيف يرضخ إلى الواقع، ويتكيّف مع الأحداث؟ إنه مقتنع جداً أن الواقع لا حركة له، هو سفر دائري حول محوره، يتكرّر ليسوّي الرّتابة خداعاً، بما يشبه الحركة. الواقع في رأيه أكذوبة أبريل تتزيّن بالحقيقة.

لذلك، فهو يجتهد في أن يغرق في سراديب التوهّم. يلج الساعة بعد ساعة، قارات من التوهّم يظلّلها هدير من الأحلام.... ومع ذلك، فهو يقرّ بأنه يعيش على هامش ما يجري، وبأنه لا يحادث إلا صوراً تهدم بلا ضجيج رداءة الزّمن الذي ليس كما يراه هو، وكما تصفه بصيرته.

يتعب كثيراً في التمييز بين الكائنات والأشياء التي تكوّن الواقع. هي شكل واحد ملتبس تغرق في استعراض اليقين المموّه. وبينما هو يسلك الطريق الأقرب إلى مخبزته، طرأت على فكره صورة راحيل تنسج كلاماً عن الحرّية والموت وأعطاب الإنسان. طلعت صورتها أمامه دون أيّة نية في ذلك، أو سبق إصرار. جاءته مباشرة لما كان بصدد التساؤل حول نوع الانجذاب الذي يغرينا بالتشبث بالحياة. أية ذرات يتكوّن منها هذا الانجذاب؟ ولماذا لم يستطع الانتصار على الفراغ والقلق؟ تذكر كلامها مجلجلاً في رأسه، فخاطب نفسه متعجّباً، بأنه لم يعد يرى تلك المرأة، وقد تعوّدت على زيارته منذ زمن ليس بالقصير.

كيف التهمت قدماه الطريق حتّى وجد نفسه داخل مخبزته يتأمل اللّوحة الرابضة منذ زمن في الحائط نفسه الذي يأويها؟ أحسّ بأن كثيراً من الأفكار توحّد بينه وبينها، وأنّ شيئاً من روح راشيل يتمرأى في ملامحها وحركاتها بيسر عجيب. ترسل النظرات ذاتها، تشكك في كل شيء جاد أو متحرك أمامها...

ثمة شيء ما يشدّه إليها. ترك اللّوحة حاسر الرّأس متنقّلاً ما بين جنبات المخبزة يعدد أوقات اللقاء التي جمعتهما. تساءل حائراً، هل قرأت خطوط كفه لتعرف أفكاره وما يعتمل بدواخله؟ لم يأنف من استحضار كثير من كلامها.

المعنى تابوت تنتهي فيه الأشياء كلّها وتطمر في جوفه. واللغة خشب التّابوت، أو مادته، تعبّر عن هويته. المعنى واللّغة هما العالم والإنسان معاً، ولكنّهما في طور التّشكيل اللانهائي... تنتصب الحياة بينهما

أو فيهما لتؤجّل الموت أو لتخلق إحساساً بالاستمرار درءاً للعصف المدمّر. لكن الموسيقى هي الطقس الروحي الذي يؤاخي بين التداخل والتنافر في لوحة تركّب أفقاً للحياة، تنطق بإيقاع آخر للفكر والوجدان.

أصبح منشدًّا إلى راحيل يحصي كلامها ويفحص معانيه، هو أقرب إلى التأكد من أن روح راشيل قد حلّت فيها وأصبحت تتحدث بلسانها، تفكّر بعقلها وتلبس هيئتها وصوتها. عجب لأمره، كيف أنه لم يدرك هذا التّشابه إلّا الآن. لا يدري لماذا لم يفطن إلى حضورها هذا الذي يتنبّه إليه اللحظة؟

قالت له يوماً ما: - مالك تتكلّم وفي عينيك جدل صاخب من الأفكار؟

أحسّ يومها وكأنها تطلب إليه أن يستيقظ من غفوته الوجودية، أو أن ينهض من الأنقاض المخدّرة التي وجد فيها عزاءه الأخير. لم تكن تتوقّف عن مخاطبته بأنه رجل يفزعه الخطأ، يحاور السّقوط بلسان مهزوم.

لذلك فهو يقايض ثماره الماسية في سماء أفكاره بثمار مدوّدة متساقطة في بستان خرب.

أصبح كل شيء فيها يغوص أكثر في أحشائه، يتملّك جوارحه بقوّة. شعر أنه تحت قصف مكثّف من كلامها وجدالها الرّاقي. حاول أن يبحث عن مخرج من هذا المأزق، أن يحاور ذاته ليتحوّل كلامها إلى أسئلة تطارد حضورها الفكري. ولكن لم يأته أيّ جواب. أتاه مزيد من القلق والحيرة.

توجه عبد الله إلى مكانه الذي اعتاده يقتعد كرسيه قائلاً في نفسه:

- كم أمضيت حياتي ساهراً على رعي الأنوار المنطفئة، واضعاً خدي في العتمة، وكأن من حواليّ أثر أياد جميلة تنسج مناديل من الضوء تنتظر الفرصة لإلقائها على هامة الحقيقة وكتفها.

يكاد يعترف أنه ربّما قد أخطأ كثيراً، لأنّه ظل يبحث عن المعاني في أغوار الداخل ونسي ما يحدث في الخارج، أو ما جعل السّطح له السلطة على حجب الحقائق. غير أنه قد تذكّر أن فاجعة فقدان زوجته وطفلته فرضت عليه رغبة مقاطعة العالم الذي سلّط عليه قدره، ليأخذ منه روح التجدّد ومواصلة الحياة. أحياناً كانت تقول له راشيل بأن الحياة قد خلقت للحزن. وحده الحزن هو الغالب فيها، لم نفطن إلى أن الفرح هو مجرد جنين للألم. الفرح خدعة، أو سراب يستهوي المغفّلين. الألم وحده سرّ الحياة.

هو الهندسة التي تخطّط لمصائر النّاس لتضعهم في النّهاية أمام الحقيقة العارية المتمثّلة في الموت.

رسمت يوماً لوحة مجردة فيها من السوريالية ما جعلت الفهم متعذّراً، تتصاعد فيه جاذبية الاحتواء، حيث تجعلك لصيقاً بمنظور اللّوحة مبعثراً ما بين خطوات الألوان، شريداً وسط تدافع الإيحاءات. قال إنه لم يفهم شيئاً من هذه اللوحة، غير أنها لوحة تشكيل فقط. أجابته بأن الفهم مجرّد صيغة للتّصالح مع العالم والأشياء أو توافق سلمي ما بين الذّات والموضوع؛ لأنّ الفهم هو إيقاف لنزيف التوتّر ما بين الشكّ واليقين. لمّا يحصل الفهم يتوقف البحث عن الأشياء، ولا

نرى في العالم غير الجزء الواضح فيه. غالباً ما يقع الخلط بين الذي نريد أن نفهمه وبين الذي فهمناه. إن الذي نريد أن نفهمه هو الغائب دائماً، والذي فهمناه هو الخطأ أو الوهم الحاجب لما ينبغي أن نفهمه.

الحرّية هي الطقس الوحيد الذي يخرق الغموض والحواجز، يجعل الإنسان خارج نطاق الفهم المقترن بالخطأ والتشكيل بالألوان والموسيقى واللغة الخارجة عن القانون... كلها فضاء رحيب للحرّية. يتأسّس فيها المعنى الكامل للفهم، للإدراك الأول لمعنى الإنسان وغرائبه.

يكون الفهم عبر الألوان والإيقاع كمثل الطفل الذي يباشر ثدي أمّه. لا يفكّر في ظاهر الأشياء ولا في ضغوط الخارج، وإنما يفكر في الثّدي من حيث إنه المصدر الذي يؤمّن له الحياة. غريزة الحقيقة لا تحكمها الحواس، كما هو شأن الغرائز الأخرى، وإنما تحكمها حرّية العقل والرغبة في استكناه جوهر الحياة، لا سطحها ولا بريقها. أما جوهرها، فهو مضمون الثّدي والمعنى الذي يتثوّاه كما يفهمه الطفل لا غير.

كأنه بصوت راحيل يهمس له بكلمات متداخلة وغير مفهومة. اعتقد بأن صوت راشيل قد انسلّ من الذّاكرة. تأكد له وهو مغمض العينين بأن الصّوتين متشابهان. فتح عينيه، فلم يجد أحداً أمامه. ولكن كان يرى خلف الباب هؤلاء العابرين الذين يعبرون الزّفت وكفى. يرى ساعة قبالته تتربّع فوق الجدار، وقد توقفت عقاربها منذ زمن طويل.

فكّر في أن يعثر على راحيل، ولكن اكتشف بأنه لا يعرف أين تقيم ولا يملك رقم هاتفها. بعد ثوان من التأمل، وقد بردت قهوته

تماماً ولم يشعر بأن سيجارته احترقت بين أصابعه، لم يعد يطيق الهدوء المطبق على المكان. فضل الخروج إلى الشارع، هكذا دون أيّ هدف.

استغرب من هذا الإحساس المباغت، لأنّه لم يسبق له أن انتابه من قبل، منذ ما يربو عن خمسين عاماً منذ بيعه الخبز. نظر نحو الخارج بتعجّب وكأنه يكتشفه لأول مرّة. اندفع أماماً، وهو يراقب العابرين يتحدثون إلى أنفسهم كالمجانين عبر الهاتف النقّال. خُيّل إليه أنه يسمع أصواتاً متداخلة ولغات غير مفهومة. حاول أن يفهم شيئاً ما... أن يستوعب ما حدث. غموض كثيف يضبّب رؤيته، هدير شديد يقتحم رأسه، عطّل محاولة إدراكه لواقع أراد أن يفهمه. شهق، ما هذه المدينة التي تلبس وجوهاً متشابهة؟ أليس هناك وجه مختلف؟.

أجسام قصيرة تمشي بانضباط، لها أرجل كأرجل الدّيكة. تسير في اتجاه واحد وهي ترسم خطاً مستقيماً لتلتقط حبّات قمح حائلة ومسوّسة. لا واحد منهم يسير في خطّ معاكس أو خارجاً عن الصّف...

لا واحد منهم يسير في خطّ دون أن يتحدّث مع نفسه.

لم يجد هذا الصفّ إلّا ألفة تجمع هؤلاء الناس. شفتاه متجمّدتان كالحجر، تحمل زفير الضياع. أصبح شبه متأكد أن الحياة متذرّرة في مكان ما. هناك من أطلق القوس وأصاب دريئة رونقها ومائها...

سأل نفسه من رمى الحياة وأصاب مقتلها؟

لابد أن تكون هناك ثقوب في القضية يتصاعد منها شعاع الحقيقة!

مع كل هذه الأسئلة، يعتقد عبد الله أن هناك تحت الأنقاض التي لا يراها أحد، حياة تحتضر ويتعفّن وجهها. الأنقاض هي شكل العالم الذي يتمسك بذاته لكي يكون شكلاً فقط. هي الكلمات نفسها التي كانت ترددها راشيل، هي المعاني ذاتها التي تردّدت في خواطر راحيل، وهي تناقشه بين معترضة وموافقة.

تروح صور راشيل وتجيء في رأسه. لم يستطع تحمل ركضها العنيف في مخيلته. قرر أن يجوب هذه المرة الشّارع العريض. ولكن ليس مطأطأ الرأس منزوياً كما هي عادته. قرر أن يسترجع شيئاً من الماضي، وكأنه عازم على البحث عن شيء ما.

حاول أن يصارع ذكرياته التي وضعت السّتائر السميكة حجباً على رؤيته. أن يتخلّص ولو إلى حين من خناجرها المنغرسة في وجدانه. هو الآن يحسب أن هناك أمراً ما على قارعة الطريق أو في آخره. اندفع متثاقلاً نحو العتبة، وهناك توقف قليلاً. فرك عينيه وتنهد راغباً في أن يعثر على شيء يبحث عنه، دون أن يعرف ما هو هذا الشيء. تقدم بضع خطوات وتخيل السماء تطلق يديها فوق منكبيه، تجره إلى الضوء الذي لم يشعر به منذ وقت ليس بالقصير.

زفر عميقاً وهو يقول، ازدادت الحياة غموضاً ولم يعد يفهم كلام مجايليها وحركاتهم، حتّى الموسيقى التي التقطتها أذناه، وهي تتعالى من كل جانب، ليست بالموسيقى أو بالأحرى لم يعد يدرك هل هي موسيقى أو ضجيج معوّق لا صلة له بالجمال.... هو يعي جيداً أن الشيخوخة تسكن عظامه، ولكنه متأكّد من أن عقله هدير من الأسئلة الصّعبة والعصيّة تكبر في واقع هؤلاء العابرين، في رحم السّهولة.

يلحّ عليه عقله الآن، أن الواقع الذي يراه، ينسج أشرعة الإبصار في اتجاه الشّوه والغرق في الشيئية التي تسقط من الإنسان هويته. كل شيء يبدو أمامه أشلاء وجثثاً، وشياطين تتزنّر بالأعلام الوطنية وبالألوان الغربية. يبدو العالم وكأنه يصدح بأهازيج الكاهنات وبالكلام الذي يفرغ الشّمس من الوهج الخليق بها...

حزناً على العالم الجميل، رفض أن يمشي، ظل واقفاً على قارعة الطريق شاخصاً ببصره إلى السماء. لم يأبه بالسيارات، وهي تلتهم الزفت وتطوي الطريق طياً... صراخ المارة تعالى من كل حدب وصوب، وتنبيهات السيارات ملأت الفضاء، وتسبّبت في ضجيج مزعج. تعثّرت حركات السّير وظن النّاس أن عبد الله مجرد رجل تائه فاقد للعقل.

لم يدرك أحد أن الرجل وقف عمداً ليرى كيف يضجر الناس، ويرتبكون من أيّ شيء يزعزع هدوءهم المستطاب.

ليس هناك أدنى فطنة من لدن هؤلاء لتدبّر ما يظنونه عرقلة سير، سيرهم، بالحكمة والاتزان، هرج، ومرج، وحركات هوجاء، وصرير كلام مؤذ يتطاير معه بصاق ضار، عاذات وسلوكيات أصبحت من طبيعة الأشياء وخاصية عقل فقد جوهره ومعناه.

لا مجال للتعقّل لدى هؤلاء، أصبح الاندفاع هوية والعقل هباء في مركبة مضعضعة بأشرعة متنهّدة.

خلع النّاس لباس طبيعتهم وارتدوا نسيجاً من الحجر يحيط بكل أطرافهم، والعماء سماء تظلّلهم، وهي هجمة ظلام. لماذا لم يعد

هؤلاء نسلاً إلّا من هذه الخلايا الميّتة والأفق يقابله أوراغون عجوز يعزف عليه سيد اسمه العبث.

تمنّى عبد الله وهو واقف يعرقل السير أن تلتف حوله يد رحيمة ترعاه بالحماية وتتقصّى برفق سبب توقفه الخطر.... ما كان يظنّ أن زمن العداء الذي توالد بين العابرين كان طاغياً. لا أحد تنبّه إلى شيخوخته ووهن جسده المرتعش... كانوا يشتمونه ويصرخون في وجهه، وكأنهم ذئاب بشرية تجوس المدينة.

تابع طريقه ولم يرد أن يعود إلى المخبزة. فضّل أن يسير ويتأمل كل شيء... كل شيء. وجد نفسه وكأنه يقرأ كتاباً جديداً.

تقول له حاله، إنه في الطّرف المقابل لهؤلاء الناس، أو على النّقيض. هو الآن يفكّر دون جهد، سيل من التفكير يهدر في عقله. لكن ماذا يعني أن يفكر أو يمتنع عن الكتابة كما فعل منذ عشرات السّنين. انتبه إلى أنه قد نسي الكتابة، أو أصبح عاجزاً على أن يكتب. خاطب نفسه، هل تعطّلت كل قدراته على اقتحام المنغلق في تركيب المفردات والكلمات.

تساءل مستطرداً، هل العجز هو ألا تقدر على فعل شيء ما، أن تستنسخ الكلام والحركة والتنفس والحياة فقط؟

هو الآن، يتخيّل راشيل؛ يفكر فيها بقوة. تساءل مرة أخرى، لماذا لا يراها إلّا وهي في صورة امرأة جامدة الملامح، دامعة العينين، سخية القلب؟ لماذا قررت بمحض إرادتها أن تغادر الحياة دون أيّ استئذان؟ كيف استطاع أن يصبر كل هذا العمر، وقد تحول إلى شراع منهك

يتهادى في خيبة دائمة؟ هل سيقدر حقاً أن يستمر في الحياة؟

كأنّه يقرّر أن يغادر كما غادرت راشيل، أصبح يشعر بأنه لم يعد له مكان يقيم فيه إلا قبراً منسياً. يراوده شعور غريب بالعزم على المغادرة أو الانسحاب الهازئ من مدار الحياة الذي ليس إلا ألماً وعذاباً. انتابه الفرح وهو يغوص في أفكار طارئة عليه، لأنّه ربما وجد الحلّ الذي يخلصه من احتراقه ووحدته القاسية، زاد فرحهُ كلّما اقتنع بأنه وجد حلًّا يطرد سمّ السكاكين التي توغل في قلبه وعقله....

أصبح الكون في نظره، صورة شوهاء مرعبة، وكلاماً لا يشبه الكلام في شيء، وإنما يشبه عاصفة من القذارة والوسخ المقيت. لهذه الأسباب هو يفكر ملياً في أسلوب الرّحيل. لا يريده أن يكون رحيلاً فيه من العنف ما تشمئز له النفس وتمجّه الروح، يريده رحيلاً هادئاً وجميلاً كبحّة ناي صاعدة إلى الأعلى الشفيف.

الموت هو الثمرة التي تنعقد فيها كلّ الحكم، أو هو العود الأبدي لتمعين حقارة الحياة وكشف الغامض فيها. الغموض هو الكارثة أو هو الأسر الوجودي الذي لا يدرك إلا بحرّية العقل.

فهم عبد الله بأن راشيل قد أحبت فضائلها وتماهت بأفكارها، لذلك اختارت أن تتجاوز ذاتها، وأن تجعل من الموت معنى حقيقياً للحياة، ولأخلاق جديدة تنتصر إلى الفكرة الأولى بوصفها إمكاناً للوجود الذي يُرتجى، أو الذي يُشتهى.

تنبّه إلى أنّه يستحضر ما قرأه، قديماً عن نيتشه حول الموت. إنه يريد أن يتحرّر من عتمة الموت، من أكذوبة الكارثة بأن يجعل من اختياره لطريقة موته معنى ما في حياة هي ليست بحياة.

تذكّر فلاديمير جانكلفيتش لما اعتبر أن من لم يختر موته، لا يستطيع أن يختار كيف يحيا وسيظل يعيش أيامه في جحيم الخوف من الكارثة.

هكذا امتشق عبد الله خياره الأصعب، مصراً على أن يكون حرّاً غير مقيّد بوعيه الشّقي الذي أذاقه كل أنواع العذاب والمرارات. لقد أزفت لحظة الرّحيل، لحظة السّمو التي لا تجلّها إلا الأساطير.

لم يعد الآن في حاجة إلى التّفكير، لقد استغنى عن ذلك بالمرّة. فهم كلّ شيء.... لا يريد أن يعرف أكثر. وبينما هو هائم على وجهه يقرأ سيرة العابرين، انجذب بصره إلى امرأة مجدولة الشعر تعانق شباكاً لشقة عالقة في الطابق الثاني بإحدى العمارات المحاذية لزقّ متفرع عن الشارع الرسمي. خفق قلبه لرؤيتها، وكأن حنيناً دفيناً بدأ يهدر في أحشائه. لوّح بيده الواهنة في اتجاهها. وبعد محاولات متكررة، انتبهت إليه، وقد فرّت من دواخلها ابتسامة عريضة ارتسمت على شفتيها متباطئة. انتابتها رغبة جارفة في الاندفاع إليه. لم تشعر إلّا وهي تناديه بصوت متهالك من خلف الشبّاك، قاومت وهنها وهي تنزل إليه مهرولة....

حينما مثل قبالتها، جرت نحوه، وهي تتوق إلى احتضانه والتدثّر بحديثه. شعرت بأن رائحة زكية تجذبها إليه، تحذوها كالهواء المنعش، أو تحملها إليه حملاً. ارتمت بين يديه تقبّلهما، تشتمّهما وهي غير قادرة على تركهما إلا بعد أن أقدم دون وعي منه على تقبيل رأسها، وكاد أن يتوقف قلبه من شدة الخفقان.

أدركت أنه في حال سيئ. فحصت وجهه، فوجدته مصفراً،

وعيناه غائرتان يحيط بهما سواد خفيف. راعها هزاله المفاجئ واهتزاز أطراف جسده المتلعثمة بعلامات النهاية.

انجذبت إليه بقوة، وهي تحضنه مرتجفة كالطّير المذبوح. انفجرت عيناها بدمع مرّ، وهي تبكي على كتفه الهزيل بحرقة حارقة.

انطوت ركبتاه الهزيلتان، وهو خاشع أمام مهابة المقام. أحسّ بأنه يذوب في حضنها، يتلاشى كخيط دخان. طبطب بيدين راجفتين، أكلهما العجين والملح، رأسها المنحني على كتفه، وكأنه ثمرة تتدلى من شجرة تكاد أن تيبّس.

تصاعد من حنجرته صفير غريب، كأنه خليط نحيب وتمتمات يؤلّف حداداً لشيء غامض توارى في النسيان. استسلم أخيراً إلى بكاء شجيّ تأجج لنشيده الزّمن الذي لا قلب له.

أوّاه! شيخ منهار ضائع، يلهج ببكاء مرّ، يتأوّه ويتألّم، كأنه لا يقدر أن يعبّر عن كل العذاب الذي يمزّق أحشاءه. القدر كأنّه لا يعرف أن يومئ إلى التقرّحات التي تأكل عروقه. ثمة دموع لا تخرج، ويا للأسف، إلا لكي تحرق المآقي. وأخرى لا تخرج، ويا للأسف، إلا لكي تحرق المدينة والآخرين. أيّ الدّموع تليق بعبد الله وقد ضيّع العمر في ترصّد الحقيقة وملاحقة المعنى؟ ما للبلاد تكحّل كل يوم بالفجيعة والسطو المنظم؟ تحمل ما بين ذراعيها جيشاً من الجثث وأقواماً من الأقزام؟

ما للبلاد تصادر الدّمع السخين، وهو جنين في رحم العين؟

تستورد الدمع المزور من بركها الآسنة، لكي تظهر أنها تسقي

وردة الحرّية على نافذة غرفتها السلطانية...!

لكن ليس للدّمع إلّا معنى واحد، هو الدّمع.

مدّت راحيل يدها إلى وجهه تمسح دمعه، وكأنّ العالم في عينيها ضوء شاحب يترهّل، يفقد شكله ومذاقه.

اقتنعت بأن العالم من حولها صور مخيفة توشّيها البشاعة، لذلك لا سبيل أمامها غير العزف الطويل والغناء الذي يسقط الأفق المغدور من مدار القبح الذي يأويه.

أصرّت على أن يرافقها إلى بيتها بالرغم من امتناعه الشديد. مسكت بمرفقه، وهي تخطو على إيقاع خطواته المهزومة. كانت بين الحين والآخر، تهمس إليه بأنها قد اشتاقت إليه وإلى خبزه وإلى حديثه وكل نبرات صوته التي كانت تخالها عزف كمان. أخبرته بأنه لمّا كان يحدّثها كانت تدرك بأحاسيسها أن الأفق يسمع تحاورهما، وهو يتبرّأ من التطلعات المغشوشة؛ وأن المعاني الخبيئة تصغي إليهما وهي تومئ إلى القيد الذي يأكل رجليها.

أكّدت له بأن كلّ كلامه وقدة حياة مأسورة، وهواء رحيم يدور في قارورة التاريخ الذي اعتقل في حادثة سير.

صعدا إلى السلّم بصعوبة، ولمّا دخلا الشقة، فضلت أن تجلسه في الصالون التقليدي إكراماً له. لكنّها لم تكن ترغب في أن يكتشف لوحتها الفنية التي لها المنظور نفسه للوحته التي أخذتها أخذاً في مخبزته.

كأنها باستقبالها لعبد الله تسافر في نفق جوفي من الأحاسيس

الجيّاشة والغريبة، أو كأنها تمتطي فرس البراق الجائل في سماء البحث عن الأصول المفقودة.

ترى عبد الله في بيتها كنبيّ يقود عربة نورانية نحو الأسرار، يقتل الزّمن المتجبّر الذي طمس ضوء القمر. قالت له بأنها تعلم جيّداً شغفه بشرب الشاي، وأنها بارعة في تحضيره تسقيه بأريج روحها حتّى يستطيبه. أردفت مازحة، بأنها ستآخي بين رائحة النعناع ورائحة الخبز الشهي الذي تعجنه يداه الخلّاقتان. ابتسم ابتسامة خجولة، وهو يسألها عن سبب غيابها عن المخبزة. توجّهت إلى المطبخ طافقة في رواية أسباب غيابها وضجرها من العالم الذي يحيط بها.

بعد أن حضّرت الشّاي ووضعت طابقاً فوق الطاولة يحتوي 'برّاد شاي' وكأسين وشيئاً من المكسّرات والتّين المجفّف. طلبت إليه ألا يتحرّج من عبّ سيجارته، لأنها التقطت عاداته وطقوسه في شرب الشاي لما كانت تأتي مخبزته.

شعر عبد الله أن الدقائق التي تلتف حوله دافئة ورحيمة كمثل غطاء رطب يحتضنه بحنوّ. ولما سألته عن أحواله، تحاشى الحديث عن غمّه وهمّه، وهو يعيد السؤال حول تغيّبها عن المخبزة. لم يخف عنها أنه قد تذكّرها اليوم واشتاق إلى جدالها وغنّة صوتها التي بقيت عالقة في سمعه وقلبه. أعرب لها أن قوة خفية أخرجته من مخبزته، وكأنها تناديه من قعر بعيد،وقد جلجل الصدى في دواخله كالموج الهادر. حدّثها عن ألغاز ماكرة تحيط بصورتها، وهو يعيد تبنّيها وتفحّص ملامحها، وبالرغم من أنه حاول صدّ غزوها، ظلت تلح على الحضور وتكرّر النداء الذي لم ينقطع.

استغربت من كلامه الذي زلزل كيانها، لأنها أحسّت باشتياق غريب، هذه الأيام، يهزّها إليه هزاً،كانت تنوي زيارته، ولكنه فاجأها لما وجدته قبالة بيتها يهشّ بيده صوبها. قالت له إنها اشتاقت إلى خبزه وإلى الاستمتاع بتأملاته وحكاياته عن الذين صنعوا التاريخ وهزموا الوحوش. ذكرته لما قال لها إن الطريق لم يصبح طريقاً، ولا الأفق أفقاً. هناك شمس شاحبة هاربة من رجل يأكل عينيه ودماغه، وامرأة تلتهم ثدييها وتحفر في سرّتها وقت تبدّده في التأوه والتحسّر في الطريق الذي يعبره إعصار عات وأظافر حاقدة. طريق ليس فيه هواء أو برهة حياة عابرة.

فتح عبد الله عينيه الواسعتين وهو يتأمل كلامها. أخال النّبرة الصوتية لراشيل نفسها، وهي تحل كالروح في لسان راحيل. كم وجدها حزينة، وهي تتحدّث عن الطّريق.

ارتعب كثيراً وهو يرى التشابه ما بينهما كبيراً. ولم يدر لماذا هو خائف أن تختار راحيل ذلك الطريق المرعب الذي انتهت إليه راشيل، ولو أنه كان قبل قليل قد استعذبه وتمنّاه لنفسه. كأنّه نسي نظرته إلى الموت وهو هائم على قارعة الطريق يصارع ضياعه، بل تناسى كل شيء وهو يصغي إلى راحيل، وكأنها تبثّ الأمل في روحه من جديد.

بدأ يغمغم بأن ليس كلّ ما كان يقول صحيحاً. ربما كانت لحظة تدحرج نفسيّ جعلته يتفلسف كثيراً. يحاول الآن أن يجد كل عكاكيز اللغة يتوكأ عليها ليصوغ الكلام المشحون بالضوء والحياة.

قال لها بحماسة مرتبكة، إنّ الحياة خريطة زقاق ملتوية. بعضها يفضي إلى الخير وبعضها يفضي إلى الشرّ. يكفي أن نتأمل أيّ زقاق سالمة نختار، وكلّما أحسنّا الاختيار ألفينا هيئة كائن جميل يحمل في

كفيه بساتين عذراء وفي فمه ناي تتناسل منه سواقي الحياة.

نظرت إليه وهي تتحدث بلغة واثقة، أنه لا يقول الآن، ما يفكّر فيه. لا ترى في كلامه إلا زفيراً مقيّداً وتردّداً يخفي الحقيقة. هل عليه أن يزين لها الوجود عبر بلاغة الكلام ليحميها من كسر مجرة الحياة؟

هي تعرف بأنها تسير في طريق كلّه أنقاض وخطوات لمارة من الزّمن الجميل. ولكنها رغم كل أهوال الطريق، فهي لن تنفصل عن خطواتها أبداً. تعرف أن ليس لها راية تسير وراءها ودقات طبول تدوزن مشيها...ولكنها متأكدة أنها تسير في اتجاه الحرّية، وقبرها محفور في الأفق في جهة من جهات الموسيقى الصّافية. هي لا تهرب من المواجهة ولا تستسلم لواقع بئيس عمّره جنس من القردة المعلقة في الهواء. ليس لها قلب يخاف من واقع جبان مهزوم، بل هي تنتصر للزّمن الذي وئد في كف ليل مدمس اسمه الحياة التي نسجها أقزام دون هوية...

سألته هل عليه أن يبدو أمامها منتصراً لهذا الواقع؟ لأنّه يخاف من أن تختار طريق الانتصار؟

هل عليه أن يستبدل النّور بالظلمة ليقيم الأسيجة وينصب الحرّاس ضد تحرر الإرادة؟

أكّدت له أنها تعرف كيف يفكر، وأن ألماً بحجم المحيطات يشعشع في أحشائه، يقضّ مضجعه ويبكيه في صمت الأنبياء.

ترجّته أن يبقى واقفاً كالصفصافة يواصل حرب التفكير ضد الرداءة، وبلاد يحكمها المتفيهقون. أخبرته بأنها في حاجة إليه لكي تتعلم

لغته ونظرته وأسراره، لأن ترتمي في كل ساعة بين يديه تعبّ منهما ماء الطمأنينة وهواء الدفء والرّاحة. لقد تعبت من الوحدة والتشرد وحيدة في ملاحقة سمو الآدامية، ومجازر المعنى خلفها ووراءها تستّر ببرق خلب.

حاول مقاطعتها، ولكنّها أصرّت على الكلام. أرادت أن تصرّح بأنه لابد من استرجاع النّار الهاربة بتكتم في أنفاق الأفكار والأحاسيس. أليست نار الفكر وتوقدها سيفاً ضد الرّتابة؟ مركبتنا الأخيرة للوصول إلى شطّ النّجاة؟

سعلت سعالاً شديداً وهي تضغط على صدرها، ثم استرسلت في الحديث دون انقطاع، وكأنها تريد أن تقول كلّ شيء. لاحظ عبدالله أن راحيل مأسورة الداخل، تسعى إلى أن تتحرّر من ضواغط قاسيّة تثقل على أنفاسها وخواطرها.... ضواغط لا يكتبها إلا حبر الألم أو نزيف القلب.

كأنه يسمعها تصيح دون صوت، بأنها امتداد لراشيل. تكتب بالألوان وبالموسيقى الصّور نفسها، الإحباط نفسه والسقوط الذي لا مفرّ منه. تنهد عميقاً وهو يرقب كلامها وحركاتها. أحسّ بأن جوارحه تتفتّت وقلبه ينفطر. حاول أن يتكتّم آلامه ويسقطها عنه، قائلاً في نفسه بأن لا مجال للأنين والألم. العالم نفسه أنين والإنسان ألم... ألم ألم.

تعجّب لحاله، كيف انقلب على قناعة أخيرة رست في عقله، وهو يدعو راحيل إلى التمسّك بالحياة. في برهة خاطفة حول حديثه إلى نقيض ما حثّ نفسه عليه. فعل ذلك بالتأكيد، لأنّه كان يحرص

على أن تبقى راحيل تبحر في مركبة الحياة، تحيا وهي سليمة، بالرغم من عواصف المرارات والأوجاع الرهيبة.

الكلمات تأكل ذاتها، تستطيع أن تتحوّل، توّاً، من النقيض إلى النقيض، هي القدرة على نفي العالم أو تأكيده، وتبخيس الإنسان أو إجلاله... لكن الكلمات الفاقدة لماء الحياة لا تكاد تتوكأ عليها حتّى تنكسر، لأن سيقانها واهية كقصب مريض أجوف. الكلمات لا تسكن العالم، بل هو الذي يسكنها لأنها سابقة عنه وهي التي تشكله وتصوغه. هل هذا يعني أن البحث عن الحقيقة ينبغي أن ينطلق بالضرورة من الكلمة وليس من العالم؟ أليست الكلمة أصل الكون؟

العالم لا يكتب اللغة. اللغة هي التي تكتب العالم، تصف الإنسان وتعبر عنه.

كل أحاسيس عبد الله، وهو منشغل بين التناقض الذي غمره وبين راحيل، تنزف الآن أسئلة ملتهبة لها شكل الشّظايا الحارقة. هو يتمنّى أن يصنع في معمعان المعاناة من هذه الشظايا سفينة للإبحار والاختراق، تقودها راحيل وهو برفقتها يملأ بحضورها وحشته ووحدته إلى أن ينطفئ. تنبّهت إلى شرود عبد الله، فسألته عن السّبب. أجابها بأنه يسوّي في عقله ما بين الممكن والمستحيل، مابين الذّروة والهاوية، ما بين الضدّ وضدّه. ألّا نعبر الطريق جيئة وذهاباً، أن نعبرها بأرواحنا، ونوقظ الأفق الذي غطّ في نومه طويلاً.

ابتسمت راحيل والتّعب باد على وجهها، قائلة، هكذا تبدأ الجذور تتعرّى وتظهر ملامح الشطآن المحتشمة. نهضت بحماسة في اتجاه البيانو وهي تردد مبتسمة أنها الفكرة نفسها التي تقوم عليها

سمفونيتها الجديدة. أخبرته بأنها هجرت الموسيقى منذ سنين كثيرة، وأوشكت على الانهيار المطلق. ولكنها أدركت أخيراً أن ثمة شيئاً ما يستحق أن نعيش من أجله وندافع عنه.

هناك خلايا أصلية في الإنسان الحرّ، تائهة في هذا العالم المقنّع، تنتظر صوتاً وكلمات وفعلاً، لا يشبه الكلمات والأصوات والأفعال، لها القدرة على الالتئام والتناسل لتصبح جيشاً بمستطاعه فك أسر الحقائق والمعاني الخبيئة في غيابات المجهول.

طلبت إليه أن يستمع إلى مقطع من مقاطع السمفونية، وبعد أن جلست ورفعت الغطاء الواقي لمفاتيح البيانو، شرعت تعزف وقد انقطعت عن العالم الحيّ تماماً.

جلس عبد الله في مكانه مندهشاً مبهور الأنفاس وهو يشعر بأنه يسافر في مدارج البهاء، تلاطفه روح راشيل، وهي ترتدي فستاناً أبيض. هو فستان العرس الذي لازال منقوشاً في جدار الأفق الذي أصرّ على التكتّم.

هذه أسافل النّفس وأعاليها تترنح على عتبات زمن مختلف، قد يحدث المفاجآت بانبعاث فرسان الطريق الذي طمس قهراً. حمله اندفاع الموسيقى، وكأنه البهاء يسيل أنهاراً وودياناً على التّململ والاهتزاز وكأنه يسعى إلى التمرّد على عجزه وكبره وانكساره.

تساءل، ألديه القدرة لكي يصرخ ويثور، وهو العجوز الذي هجره العمر هجراً؟

كانت تعزف على أوتار التاريخ المغيّب. تلاحق الرّداءة النّابتة في عروقه كالفطريات.

تراءى له أن يشهد اللحظة موت المدى والطرقات، الخائنة منها والمزوّرة، موت الزمن الذي يشبه وجه الحشرات. كل الأعمدة التي يشيّدها الأباطرة والملوك، هو الآن يراها تنهار تباعاً.

تخيّل امرأة عارية إلا من عورتها تهرب من بين تلك الأعمدة المتداعية وفي يدها صولجان له شكل ثعبان يتثاءب.

سماء سوداء تنقشع في جوفها بروق وخيول لها رؤوس الموج الثّائر، وقوافل النّجوم تخرج من أسرها، وهي تقذف من فمها ندف ثلوج كثيفة، وراءها مراكب متلألئة تردّد الكورال العجيب اللّاهج بأجمل صفات المحبّة والأدمية.

كأنه يولد من جديد، كأن السنين تعود به إلى الوراء وهو يمتطي لحظة باذخة جعلته يحس بأن هناك شيئاً ما يشدّه إلى الحياة.

توقفت راحيل عن العزف. ولما حاولت أن تسأل عبدالله، وجدته مسمّر العينين في اتجاه البيانو، وكأنه قد فقد الحركة وتوقّف عن التّنفس. خاطبته من جديد، فوجدته منهمكاً في شرود عميق. وبعد أن هزت بلطف كتفه الأيسر، انتبه إليها وهي تريد أن تأخذ رأيه في المقطع القصير الذي أسمعته إياه من سمفونيتها الجديدة.

تحدّث إليها بنبرة رقراقة، وهو يخبرها بأن هذه الموسيقى الفائرة من روحها تحمل شيئاً ما ينبض في دمه منذ زمن طويل، يرجع به إلى جذوره الأولى، ليلتقط جرعة هواء يتنفّسها، لأنّه قاب قوسين أو أدنى من الموت.

هي لا تدري لماذا ترغب في الاقتراب منه أكثر، ترغب في أن

تقبّل يديه وتحضنهما بقوة، ترغب أن تمكث سادرة على صدره وهي تبكي طويلاً.... طويلاً.

هي لا ترغب في أن ينقطع دمعها، يروي قصصاً وحكايات بطلها الألم المر وغطرسة الأيام التي داست وجدانها بأحذية الفواجع والشر.

كأنّها تريد أن تحتج أمامه بأنها لم تخلق إلا للقلق والتوتّر، تبحث عن سرّ وجودها الذي سخر منها أبداً.

اقتربت منه أكثر وهي تتأمل تجاعيد وجهه الغائرة وكأنها جراح تبكي. لم تستطع أن تحبس دمعاً مخنوقاً هرب من عينيها فجأة، وهي تصرّح بأنه يجعلها تصعد السّلالم العالية نحو أصولها الغابرة الغائرة، التي لا تعلم عنها شيئاً.

توهّمت الآن، أنها تسير عبر أنفاق التاريخ الأول... تتبع صدى خطواتها البكر ذات الامتداد العميق في الزمن. كأنها تندفع إلى عناق أصل الخطوات في الرّحم الذي يغفو في مبتدأ التاريخ، ينتظر استقبالها بشغف منقطع النظير.

ليتها تقدر أن تسأل البدايات الغامضة عن أختامها، تصارحها بأنها خطّطت لقتل التاريخ المنساب وسيرورة الحياة العادية! الضوء في عينيها شاحب، لكنه في هذه السّاعة هو أكثر سطوعاً، وهي تتحسّس حضور عبد الله قريباً منها، يفيض بالأمان ويغطي روحها بالطمأنينة.

نهضت من حينها بحماسة، تتجه نحو مكتب يوجد قبالة البيانو لتلتقط ورقاً لخصت فيه الخلفية الفلسفية لمعزوفتها الموسيقية الجديدة. وبينما هي تقرأ نصها بصوت متعب، قاطعها عبد الله قائلاً بأن لاشيء

يستطيع أن يقود العالم إلا الموسيقى هي خلاصه الوحيد من الخراب الذي يدبّ في أوصاله، من لغز الأشياء المتطايرة بين يديه.

عبثاً يحاول النّاس فهم انتظام العالم. وحده الجهل عرف الطّريق إليه. أو وحدها البشاعة عرفت كيف تمنحه عريها وتجعله قميصاً ومعطفاً. أخبرته بأنها عزمت على أن تستعيد روحها وتتسلق جدار الحرّية مهما كان الثمن. قررت أن تصحح الكلام من طوابيره الهائمة على الأرض في أروقة الحياة اليومية. كلام له صوت الضّجيج المقرف الذي لا ينقطع، أوله شكل اللغة التي أصبحت قوانين تنظم رتاباتهم وأهواءهم العليلة. تريد أن تحرر هذه الطّوابير التي أصبحت لا تردد إلا كلاماً موحداً ممجوجاً بنفس نتن له روائح الجثث المدوّدة.

تغولّت الطّوابير وسادت في البلاد. استحسنت الوقوف والجلوس تحت مظلة السيّد تتحدث عن الإخلاص والوحدة غير مترددة في قصف المراكب الحاملة للأنوار وصلب الزمن الحرّ، بالسخرية واللامبالاة.

لا اللّيل يثنيها عن الصخب والضجيج، يجدّد فيها الحركة. هي هكذا طوابير لا تسكن إلا الكلام، هاجسها الأوحد الثّرثرة ولعق أعطاف السيّد المعمّم بالإخضاع. تريد أن تجعل من الرّوح الخالصة سرّ العالم الذي يبحث عن حركة التغيير، عن القوة التي تحرّر الموج المتجمد على تاريخ يتردّد في مواصلة السير. متى يغني النّاس معاً أنشودة من وحي الحرية. تلك الحرّية التي لا يعرفونها إلّا في التخيّل وفي قصص الشعوب التي قطعت يد الوحش المتربّص بالتاريخ.

أحسّ عبد الله، وهو ينصت إلى راحيل، كأنها تزيّن العالم من

حواليه بأنوار الحياة والأمل. كأنها جندية جريحة تجثو على ركبتيها، لتضع عجلة مفقودة تحت عربة التغيير. كأنها تنهض وتسقط لتكون ريحاً صرصراً عاتية تجرف سافات الواقع الذي يتكاثر نباته خطأ.

لاحظ أن تعبها العميق لم يثنها من الانبعاث وتسلق المرتفعات الصّعبة... كأنها تثقب بيديها غطاء العجز والتّراخي، لتخرج رأسها عالياً كالصرخة الهادئة. هي تريد أن تنسى كل شيء، أن تحرق كل الماضي بحركة واحدة، بنظرة مختصرة مسوّمة بكل إيحاءات التحدّي والمغامرة.

تساءل في نفسه، لماذا ضيع كل هذه السنين هارباً في أدغال التأمل وحرق الوقت بشرب أطنان من السّجائر؟ لماذا يقتلع الواقع من بطن الصخر المدفون فيه عبر التأمل الفصيح والكتابة الصّاخبة.

ألم يكن يعتبر أن الكتابة زلزال مدمّر، واختراق ناسف للرّداءة؟

كان قد اقتنع بعد انتحار زوجته وفقدان طفلته أنّ الحياة سرداب مخيف في سديم الغموض. تسكنه البشاعات والأهوال المتلاحقة، لا أمل في الخروج منه إلا بالانتصار أو الاستكانة إلى التأمل والسهو يخدّر بهما عقل الظلمة والوحشيّة.

بدأ يشعر بالنّدم يغزوه، وهو يتأمل إصرار راحيل في الاستمرار في المقاومة، كان بإمكانه أن يجعل من فاجعته وسقوطه نردية الغالبين في لعبة الحياة، أن يحوّلها قطعاً لحرارة الكتابة وعصف الأفكار التي لا تهدأ.

يعتقد أنه بإمكانه أن يكون حصان العربة التي ترمّمها راحيل، بروحه ومعناه، لأنّه قادر بالرغم من تقدمه في السن على نداء الكلمات

والأسماء الأولى التي لازالت قابعة في عقله وقلبه، ترعى الانتظار في أقاصي النسيان. هو قادر على استعادتها، لأن أصولها نابتة في دمه.

لا شيء يطوي روحه بعد الآن، ولن يخيفه الفراغ وهول الوحدة، لن تفزعه الجثث والأشلاء...

يريد أن يكون ظلاً لراحيل فقط، مجرد صدى يتنفّس بعزفها وأشعارها الطّالعة من روحها الفائرة.

هو الآن، قد أصبح له حلم آخر، ولو أنه في آخر العمر. يريد أن يكون لديه فيض ماء لا شطآن له، أو جناحان لا يكلّان من التحليق الطويل. كم هي الرغبة قوية لديه في أن ينثر أوراق تأمله التي غملت في أدراج السّنين التي مرّت.

لم يعد يعبأ بما تقوله راحيل، هو الآن كأنه يبحث عن مكان عار يقيم فيه، يكتب عن الأشياء الهاربة، عن المحظور وتردّد العالم في أن يصبح عالماً طبيعياً.

هل تساعده قواه في أن يطرق باب كل فرد، أن يوزّع بيان حقيقة يدين فيه تحول زرقة السماء إلى دم يتقاطر في شكل السّياسة، ودون أن يعبأ به أحد. حتّى الطبيعة أصبحت اليوم تنسج الأكاذيب وتخطط للخديعة، تزوّر ثمارها الأصليّة وتثمر الخبيث فيها...

بنبرة متعجّبة سألته عن سبب شروده، وقد تراءى لها في عينيه السّاهيتين تجاويف ما ينبغي فعله... ولما أعادت السؤال نهض عبدالله من حينه متمايلاً، وهو يجرّ رجليه في اتجاه البيانو....

حسبت أن سرب حمام نادر يتبعه وجوقة عذارى تتسربل أثواباً

بيضاء شفّافة تنسدل فضفاضة يذيّلها ضوء هادر. أحسّت بأن مشهداً خرافياً يحيط به، وكأنه في فردوس عدن، كأن رجليه المقوّستين المترنّحتين توقّعان رقصة عجيبة على إيقاع التطلّع الذي فقد هويّته والأفق يتلعثم بأبجديات الحقيقة.

وقفت راحيل، وهي تطلب إليه أن يحاول الضغط على المفاتيح. أن يحاول العزف كيفما اتفق وبأية طريقة يريد؛ هي واثقة من أنه لا يعرف العزف، ومع ذلك فهي تلحّ على أن تستمع أثراً من أصابعه التي يسكنها العجين سنين تترى.

جلس عبد الله على الكرسي الخاص بالبيانو. وبعد برهة تركيز تنفس عميقاً وعيناه مغمضتان. كأنه في لحظة انخطاف سرّي لا تختلف عن لحظة الواجد المنقطع إلى الحقّ.

صمت رهيب ساد المكان، لا تسمع فيه إلا خطوات لقيامة مختلفة لها هيئة امرأة مبشّرة أو رسولة هادية موجهة. استطاع أن يجعل من جلوسه المائز أمام البيانو طقساً مفارقاً للواقع، تتخلله روحانية غريبة تدفع بالحاضر إلى الوجد أو الشّطح الصامت.

انشدّت إلى جلال اللّحظة، وعيناها مجمّدتان كأنهما في حالة شرود أو تنويم قد تسلّل إليها دون سابق استئذان، لازال عبدالله مغمض العينين وأصابعه معلّقة في الهواء. مثله كمثل من يتلقّى وحياً من ملائكة الجمال، أو كأنه يستغور في لا وعيه ما تراكم من روعة الأصوات وعجيب النبرات. صمت يلبس كثيراً من الإيحاءات والإشارات، وهدوء ترتخي في حضنه الأمواج الثائرة.

ولمّا أطلق أنامله المقوسة على المفاتيح، كأنما ضغط على الأعاجيب السحرية لينفجر البهاء والكمال مسترسلاً كالقطر المخترق للأرض الجدباء. فتحت راحيل عينيها وفمها واسعاً تظلّلها الدّهشة الكبيرة، وكأن السعادة تفجرت فجأة في أحشائها وساحت في عروقها الذابلة. وقفت مرتجفة ويداها تهربان منها كطائرين طليقين لا يعرفان كيف يحلّقان في الفضاء الحرّ. حاولت أن تخطو، لكنها وجدت رجليها منشغلتين عنها وهما تعانقان سحراً سماوياً، وتطردان القبح والبشاعة، هي مندهشة جداً، لأنها لم تسمع من قبل هذه الموسيقى التي لا تنتظم على المقامات المعروفة. ولكنها، في الآن عينه، هي جدّ متأكّدة أن بعض الشيء منها يسكن قلبها الباطن ووجدانها العميق.

تحاول أن تقبض على البعض من الأنغام، ولكن الاندفاع المسترسل لتلاوين العزف وتجدد مقاماته جعلها تنجرف إلى السماع الكامل دون التوقف عند مقطع دون سواه، استمر عبد الله في العزف بحركات بلهاء أثارت كلّ أعضائه، وكأنه بصدد تصليح الأعطاب التي لحقت جسده خلال الزّمن الذي مات، لم يتوقف عن العزف إلا بعد أن سمع راحيل تجهش عالياً بالبكاء وقد خرّت على الأرض تحاول القبض عليها بقبضتيها، ولكن دون جدوى.

هرول في اتجاهها محاولاً شدّها من منكبيها، ليحثّها على الوقوف وهو مندهش ومرتبك مما وقع.

سألها حائراً عن سبب انهيارها المفاجئ، وبينما هي تحاول الوقوف طلبت إليه يده لتتكئ عليها وكلّ علائم التساؤل والحيرة تشعّ من ملامحها. تماس بين يدين تحملان سرّ التكوين والخليقة، كأنه

امتزاج بين نطفة شاردة وكتلة لها هيئة عصفور دون جناحين. كأن عبق طين طاهر من الأرض الأولى ينبعث من جلال حضور هذا الشيخ الذي تكتنفه الأسرار المخبّأة في تجاويف حياة غير معلومة. ذلك هو الإحساس الذي انتاب راحيل، وهي تتوكأ على يديه تتحسس قلقه وخوفه الغريب عليها. قلق فاضح ينطق به نبضه وشعاع عينيه.

سألته معاتبة، لماذا لم يخبرها بأنه عازف محترف عارف بعوالم البيانو وبقوانين الموسيقى. شرد عبدالله وهو يتذكر لما كانت زوجته تعلمه أصول الموسيقى، تُلقّنه عزف هذه المقطوعة التي كانت تسميها 'هجيع الغازية'. استغرب من نفسه كيف انهمك في العزف بكلِ تلك الدقة وبتلك الأحاسيس الملائكية التي يفقدها منذ زمن بعيد جداً.

بدأت الصّور تتداعى في داخله، تتجمّع لتركّز على الأوقات التي كان يتعلم فيها 'هجيع الغازية' لمّا كان يكرّر خطأ ضبط الإيقاع، كانت تسخر منه، لأنّه في نظرها يقدم البرهان على أنه ليس حرّاً. لأن الحرّية هي الإيقاع المنضبط، هي الإبداع المختلف بالأصوات المغايرة والحالات والمقامات. الحرّية لا تسع إلا الأحرار، هؤلاء الذين لا يفرّطون في انسجام وجودهم وتناغمه مع خياراتهم المتحرّرة في الحياة. قوانين الموسيقى هي نفسها قوانين الحرّية في علاقة الفرد بذاته أولاً وبمحيطه ثانياً.

من السّهل جدّاً أن نعيش عبيداً، أن نكون خطأ في ضبط إيقاع وجودنا ونشازنا مع العالم. أن نكون من مستهلكي الإيقاع المفروض أو من متوارثيه بالمصادفة والتكرار أو بالخضوع. ولكن من الصعب جداً أن نعيش أحراراً، لأن الحر لا يستسيغ أبداً أن يكون تابعاً. أن

يكون مردّداً للنشيد الذي لم يشارك في تأليفه. قناعة الحرّ آتية من كونه موجوداً بالحرّية وليس بالتبعيّة.

الحرّية هي الانسجام العادل ما بين الفرد والعالم، هي الموسيقى التي تسدّ الشّقوق وتؤاخي الاختيار بنتائجه، تؤاخي الموت بالحياة.

تنبّه أخيراً إلى سؤالها، وهو يفصح بأن هذه المقطوعة جزء من نص موسيقي طويل اسمه 'هجيع الغازية'، يحكي عن معاني الحرّية وأبعادها، عن مآسي العلاقة بين الفرد والفرد، والفرد والعالم.

كان مضطرّاً ليخبرها بأنه ليس بموسيقيّ، وبأنه قد تعلّم بعض أصول هذا الفنّ من زوجته التي حفظته هذه المقطوعة عن ظهر قلب، لكن لم يخف استغرابه بقدرته الفائقة على العزف بهذه الطريقة الفريدة، بعد مرور سنين عدداً.

لم يتوقف إعجابها بهذه المقطوعة عند حدود أسئلتها المتقطعة بالتأوّه المتلاحق، وهي لازالت تطرب بأنغامها المتسربة سريعاً إلى دمها، وإنما أخالت هذه المعزوفة نداء من عمق الأصول الغائرة في الأقاصي البعيدة، يحثّها على التذكر الدّقيق منذ أن كانت نطفة في رحم أمها.

أحاسيس عارمة تروح وتجيء بينهما في صورة هواء دافئ يحطّ عليله على جرح اندمل سطحه فقط.

بعد هدوء عمّ المكان، سمعت راحيل طرقاً على الباب، ولما فتحته وجدت وليداً وهو يعتذر على مباغتتها دون استئذان أو طلب موعد لقاء. ابتسمت لرؤيته وهي تطمئنه بأنها كانت على وشك الاتصال به لتطلعه على بعض التغييرات التي أدخلتها على مقطوعات سمفونيتها.

ولما حاولت أن تقدمه إلى عبد الله، اندفع نحوه مسرعاً وكأن ريح الشوق قد أنقلته إليه، مقبّلاً رأسه ويديه. سألته هل تجمعهما معرفة مسبّقة. أجابها وليد بأنه جمعته به مصادفة غريبة لها لون الكشف الشفيف وصوت الأراغن المحطّمة. تحدثا طويلاً عن عبدالعزيز الوجدي وزوجته رحمة، عن أشباههما الذين تدكّهم عقارب الوقت، عن الدنيا التي تسوء يوماً بعد يوم.

أراد وليد أن يستمتع بحديث عبدالله، فسأله عن أحوال السياسة وأوضاع البلاد المحشوّة بالغرائب والدّنايا... عن الأدنياء الذين خدعوا الضوء وأسقطوه من شهقة الفجر. تعمّموا تيجان الزمن المنهار وهم يرعون منبسطين جيشاً من القطعان. يسحقون، متكبّرين، البراعم التي تلهج الحياة...

ابتسم عبدالله ليسأله بدوره: ماذا يفعل النّاس حول رغيف هارب من طعمه ولونه؟

قطعان تائهة تتصبّب عرقاً، وهي لا ترعى إلا في الظّلمة، أو هكذا أريد لها. أما الضّوء بالنسبة إليها هو إذاية لبصرها. لذلك فهي تمتنع عن رؤيته أو الرؤية من خلاله. هي تمتنع أن ترى في الضوء، لأنّه لا أفق فيه. السماء نفسها خدعة بصرية تغمغم بالمخاتلة، وفي أعطافها أشلاء المعاني المهجورة أو المهجّرة.

أصبحت السياسة فضاء تتمزّق فيه أشلاء الحقيقة، تسوّره خناجر غادرة لها شكل الشّموع المضيئة، يجذبك الضوء وتهفو لولوج الفضاء. وكلما تقدّمت أو انجذبت وراء وهجها الماكر طحنتك الخناجر وتحول الضّوء ناراً وزمهريراً.

علب كثيرة مرصوصة في دولاب يحكمه شيخ لا ينفك عن السّعال، هرب من قمقم التاريخ الذي صنعه من جنس أعداء الإنسان، وعنقه يتدلّى بالجماجم وأشلاء لها هيئة جواهر خلّب.

علب كثيرة تحضن فصائل بشرية، مختلفة أشكالها وأعمارها وأجناسها، تنتظر إشارة النداء لتخرج من علبها كالمومياء المتحركّة بمقدار، تلهج بلازمة الوحدة والوطن والحقوق وتنفث عصفاً يجعل من كلامها حطباً لإحراق الحقيقة. لا تنفك هذه المومياء أن تركد فوق سجّادة الأحداث لتنوّم المدن وتسلك الطرقات الأقرب، لتزدرد اللحم والعظم والحجر. هي لا تملّ من سلخ جلد التاريخ، ولم تعيَ من إسقاط عمادات الشّمس وسرقة دمها لتحقن به السيد واهب صورها والنعم والقوة والاستدامة.

تساءل وليد: أين ضمير النّاس من كل ما يحصل؟

ما يحيّره أن النّاس كمثل سفينة عجوز يطوقها هاجس خبز يومي مغمس في الوحل. تتناهشه المسامير؛ ومع ذلك فهم مصمّمون على الانحشار في خرائط أحجيات القطيع، ماضون في ترديد نشيد ناشز غير منبعث من تباريح جراحهم المعقدة.

- هل من الممكن أن تكون في أحشاء النّاس جذوة غضب غائرة لا تبين؟ يكفي أن تطفو من عمقها لكي تشتعل وتحفّزهم على التغيير؟

بات لدى وليد قناعة راسخة بأن مفهوم النّاس لا معنى له. النّاس سراب خلفه عيون خلقت للتجسس والترقب وأمامهم جوقة معصوبة العينين تجرّ سفن الأسياد، وهي تهدهد النّشيد تلو النّشيد.

أجمل لحظاتهم لمّا يحلمون بالأفق الذي تبحر فيه هذه السفن. إنهم أبناء الوهم وقد ولدوا لكي يكونوا عبيداً يتعفّنون تحت أنقاض الرغبة العمياء، لا ينفكّون أن يوصوا أبناءهم بإزاحة الحجر الثقيل عن مسالك السفن السيّادية، وأن ينجبوا من إناث الببغاء، لأنهن من الكائنات المفتونة بالترديد والتهليل، وهن دائماً يخلصن لأزواجهن.

أليس لمعنى العامّة مفهوم آخر غير العبودية؟ لأنها قررت أن تكون كذلك، وألّا يكون لها أيّ مشروع غير أن تكون من العبيد أبداً؟

قاطعته راحيل لتقرّر أن العامّة تصنع إرادتها بتؤدة وصمت، وكم من ثورة قادها العبيد!

العامّة تأوي دائماً في الواجهة، ولكنها تحفر في العمق شبراً شبراً. إنها مثل السّاحر الذي يعرف متى يخرج حمامة الحرّية من قبعته السوداء؛ هي محتاجة إلى مزيد من الوقت فقط، إلى انسجام إيقاعاتها الداخلية في الفضاء الذي يمنح التنفس والقدرة على النهوض والوقوف والإشارة. كانت العامّة دائماً جبّارة تحرق السفن وتمتطي حصان الاختراق الكبير.

صمت عبد الله وهو يتأمّل مضمون الجدل الدائر ما بين راحيل ووليد؛ ولكنه ظلّ متسائلاً، كيف خلعت هذه العامّة جلدها، ولبست التملق قميصاً وشارة حياة؟

تخوض خلاياها حروباً ضروساً حول أيّ موقع على أعتاب الرّفاه، وكل خليّة تصوب مدفعيتها الثقيلة نحو معاني الماضي التي تناقضها. هي قادرة على أن تصوّبها في اتجاهها لو حدث لها التشكيك

في الرؤية التي تحملها، حقاً لا يهمها إلا أن تكون من الأحياء، كيفما كانت الحياة؛ الحياة نفسها أصبحت لها عامة وحياة...!

العبث دائماً هو مصير بأجنحة فراشة طوّافة تحطّ على خاتمة كل تأمّل أو مسار للعالم والأشياء.

لا معنى للعامة، الهواء نفسه عامة، قطعان الحيوانات نفسها عامة. هناك تنهّدات لأفراد مكبّلين بسلاسل السّؤال والبحث عن الحقيقة فقط.

حزناً على الإنسان الذي كان يريده التّاريخ، انتصرت راشيل وآخرون، وجنّ الكثير من الذين صدموا من هول المآل وفقدانهم لغة الكلام. كل الكلام تحول إلى ثمار نافقة، إلى أسواق ميّتة، وضاع رونقها وتحوّلت إلى مزابل نتنة.

قالت له العامة الكامنة في خاطره: انس ما تريد أيها الشّيخ؛ وابحث عن كلام آخر لا يشبه أيّ كلام؛ عن رؤية لا يتكرّر فيها الضوء القليل.

امش دون انتباه إلى النّجوم؛ فهي تتدلّى من أثداء مدوّدة. والأفق مسكون بجنون الانفتاح، قطّع رأسه في عزّ الظهيرة.

امش أيها الشّيخ ولا تدر ظهرك إلى الوراء...امش فقط!

قالت راحيل بحماسة إنّ جمهورها سيصغي إلى خطابها الموسيقي في أواخر شهر مارس القادم. ستتدفّق الأنغام من دمها بصوت عال. ترى نفسها وهي تؤلف سمفونيتها الجديدة تطير كالملاك، لتلقم ناسها حبّات وجدان يعيدهم إلى الإنسان الهارب منهم. تراءى لها أنها ستسير حافية القدمين على ممرّ روحي تطرد بأنغامها القدر المقيت، لا يفصلها عن هذا التاريخ إلا شهر واحد؛ لكنها بعد أن سمعت

عزف عبد الله أحسّت بقلق شديد أربك خاطرها. أن هناك شيئاً في ما عزفه كان يتردّد في داخلها، هرب منها أو سمعت عنه، هي لا تعرف.

طلبت إلى عبدالله أن يعيد العزف وهي تستسمحه، ولكنها وجدت نفسها دون وعي منها تلحّ على الطلب في صيغة الأمر.

أدرك عبد الله حالتها، بينما بقي وليد ذاهلاً. وبينما هي منشدّة بتركيز تام إليه أمام دهشة وليد، صرخت بأنها وجدت ما كان هارباً منها؛ وقبل أن يتوقّف عبد الله، ارتمى عليه وليد، فجأة، وهو يطوّقه بذراعه الوحيدة، مقبلاً رأسه ويديه باستغراب كامل، لأنّه لم يكن يعلم أنه عازف مجيد رهيف الإحساس.

قرّرت راحيل أن تحدث تغييراً في كثير من مقاطع سمفونيتها، وهي تصرّ على تسميتها بـ 'هجيع الغازية' هو الاسم نفسه الذي أطلقته راشيل على معزوفتها الرائعة.

شعرت بالعياء يجثم على كل مفاصلها وبارتجافة باردة تتخلّل أطرافها. تنبّهت إلى أنها نسيت تناول دوائها، وبخطوات واهنة توجهت نحو المطبخ وقد غمرتها دوخة باتت تهددها بانهيار قريب....

بعد أن شربت دواءها، استسمحتهما بأن تأخذ قسطاً من الراحة، حتّى تستعيد بعض قوتها، وتقدر على إدخال الإضافات النهائية التي استوحتها من معزوفة عبد الله.

تعذّر عليه أن يجمع الكلمات لكي يعبر لها عن قلقه واكتئابه حيالها، ولم يستطع إلا أن يلاحظ أو يعاني فقط، وهي تذبل بالتدريج، صامتة صابرة. ظنّ أنه لا يحق له أن يسألها، ولكن نبعاً عاطفياً ثرّاً

وغريباً تفجر في أعماقه وهو يتمزق لمرأى حالها، وهي في احتراب مرير مع المرض. نضحت علامات وجهه بالألم، وهو يسأل نفسه هل يقدر أن يكتب كلمات تليق بالألم نفسه، بالحزن الذي يعرّش على دمه؟ أو هل يقدر أن ينطق بأبجدية الإحساس المتصدّع تحت أنقاض هذه اللحظة القاسية؟ اكتفى فقط بطرد دمعتين متدلّيتين من محاجره دون استئذان، وهو يهمّ بالخروج محمولاً على الصّمت متبوعاً بوليد.

دقائق غريبة من الكآبة اجتاحت المكان عنوة، وكأنها هبوب من المسامير يتوغّل في الرّوح، لم تكن بالنسبة إلى راحيل، وهي مستلقية على أريكتها بارتخاء، إلا هبوباً للمعاني التي يجب أن تدرك على الوجه الأمثل. وإمعاناً في هذه المعاني، قرّرت أن تصارع العجز، وأن تجعل من الوقت عوناً لا عدوّاً، أن تتلطّف وتتعرّج على نقطة قوة فيها، حتّى تنهي تأليف سمفونيتها التي تحلم بأن تكون لها بداية مختلفة مع جمهورها، أو مع الشّعب الذي نسيَ الوصايا وفقد الذاكرة.

بدا لها أنها تتدثّر جسدين بروح واحدة. جسد منهك تتطاير فيه خلايا نافقة، وجسد مقاوم يتستّر بالقوة ولو إلى حين. كيف يمكن للروح الواحدة أن تسكن الجسدين، أن تسكب فيهما معاً حبّات التجانس لتثمر إنساناً مفرداً له بعض من الطاقة لمواصلة الترجّل فيما تبقى من السّير القليل.

تركت أريكتها بعد أن انتظمت دقات قلبها وهي تود لو تقدر على الصراخ بصوت مرتفع، يخترق حجب السماء البعيدة. كيف تغابينا عن جعل قوتنا فرصتنا لتجميل الخليقة المعفرة بالقبح؟

كيف تكون القوة أفقاً لعالم ليس إلا قلباً هادراً بالمحبّة؟ أو كيف يحدث لبلاد ليست إلا شعباً أن ترعى القوة دون سلطان أعمى؟ هل تقول لي أيها الزّمن بماذا نصارح به أنفسنا، وبأيّة لغة نخطب فوق منصّة الوقت العنيد؟ هل تقول لي كيف أصبح الفرد يبيع أشلاءه بالجملة، يبيع دمه بالتقسيط حتّى أنه بات يقبل أن يكون بعراً؟

تذكّرت مربيتها زينب لما كانت تحدثّها عن الموسيقى بأنها غابة من الأحاسيس الكثيفة والمعاني الغائرة. لا يقدر أيّ فرد مزوّر أن يعبرها، أن يستحيلها ويحفل بها أيّما إحفال. تتحوّل الألحان في الأحاسيس والمعاني إلى كيمياء إنسانية غريبة تلد الوجود المفقود الذي لا يستوطن إلا في القلوب السّاجدة بخشوع، تشبه العصافير العجيبة المحلّقة في سماء الكينونة المقدّسة.

كانت دائماً تنصحها بألا تحزن كثيراً من ركوب الشياطين مراكب مسروقة، تنفث النار في السماء العالية لحرق العصافير الساجدة أو المحلّقة. هناك حيث الموسيقى ترتفع دون أن تتعب، وهي تمنّع الإنسان أو تطهّره بما تبقى فيه من خير، حتّى لا يلوّث السكينة، وينفّر شلال الجمال من الهدير والانسياب.

جلست قبالة البيانو، وهي تستحضر صورة عبد الله يتردد في مباشرة العزف أول مرة. هي تعرف أن اللحظة الفاصلة ما بين نيّة العزف والعزف نفسه لحظة مريرة تشبه الولادة العسيرة التي يتخللها خوف مركب، لا يشبه أيّ خوف آخر. كثير من الصّور والأصوات تتشحّط بالتخيّل أمامها. تريد أن توقظ صوتاً عميقاً في ذاكرتها لا تحتفظ إلّا بآثار باهتة منه. تجتهد في أن يطلع هذا الصوت من داخلها

مكتملاً. كان يزورها طيفه من بعيد أثناء منامها وصحوها الجارح....

تجنّد كلّ قواها الباطنة، وهي تركّز على الصّوت السّاكن في أعماق يصعب غورها. هذا الصّوت، كمحارة مختبئة في القاع بين عشب البحر والحصى، هو هدفها العصيّ الذي يقضّ مضجعها. غير أنها تشعر في الوقت نفسه بأن رغبة الغموض تخادعها، تأخذ منها جهداً يؤثر سلباً على إتمام سمفونيتها. ومع ذلك، فهي مصرّة على الغوص بطريقة منفردة تتقرّى من خلالها الممكنات التي تسهّل عليها مغامرة الغوص والتقاط المحارة من القاع المنسيّ أبداً.

ألم مضاعف يغشى كيانها، هو ليس بألم الولادة فقط، بل هو ألم الفقد الذي يحبو دامي القدمين بحثاً عن العثور أو ذلك العثور...

تزلّجت طويلاً على مسالك البحث، فوجدت نفسها دائماً خارجة عن الهدف، وكأن الفقد قد أصبح قدرها الأوحد. يتناوب على عمرها كاليقين المزمن، وهي لا تقدر أن تعارضه، لأن خالداً هزمها في وسط الطريق.

لا تمتلك إذن، إلّا أن تلج حضرة الإصرار الذي يمسك بعنقها في معرج الاختيار، لكي تتمسّك بالتأمل والنّبش العميق. تحاول أن تطرد الهلع في متاهات الوقت المتردد، أن تضع الألم ككتاب عجوز في خزانة الوهم المهملة. بل تريد أن يتجسّد الوهم أمامها في أيّة صورة حتّى تقتله وتتحرّر من قبضته.

شعرت بأن رذاذاً كثيفاً وناعماً يغزو داخلها، ينسرب من كل الاتجاهات. كأنه شحن روحاني مفاجئ يتسلل عبر دمها، يغمر قلبها وبصيرتها. تغيّمت الأشياء في عينيها، وبدأت تحسّ بأنها تنقطع عن

العالم رويداً رويداً. لم تعد تعبأ إلا بأصابعها وهي تنجذب إلى مفاتيح البيانو، تخترق المعاني المغلقة، الغامضة. انخطاف تام كأنه معراج إلى بداية التكوين الأولى... انبعثت موسيقى سحرية تتدثر بضوء لا وصف له، عمّ المكان وكأنه انبلاج حلول الأنبياء.

استرسلت راحيل في عزفها لتقول مالم يسبق أن قيل أبداً، لتسير في الأرض التي لم يطأها أحد من قبلها... هي تخطو عبر ألحانها إلى السرّ الذي يقيم فيه المعنى زاهداً ملتحياً رافضاً، غاضباً، معارضاً.

لما خرج عبدالله متبوعاً بوليد لم يعرف أين الطريق. ولم يجد ما يتمسّك به إلا بعض الخواطر التي انسربت إليه فجأة. لم يعر أيّ اهتمام لوليد وهو بمحاذاته يحدّثه عن موعد السّهرة والجمهور والتّعب المخيف الذي يعتور راحيل.

ترك عبد الله راحيل، وهو يحمل صورتها موشومة في عقله تنزف بألم فوق كل أوتار جوانحه. لم يسرّه حالها وهو يتحسس سعالها واصفرار وجهها الذي سرق نضارته وجماله. هو يعجب ويتساءل، من أين تجيئه هذه الأحاسيس حيالها؟ ولماذا هو مشدود إليها مسكون إلى كل شيء يدل على وجودها؟ أصبح يشعر بأن هناك أمراً غريباً بدأ يتكون شيئاً فشيئاً فيما تبقّى من خطوات عمره الأخيرة. ليست راحيل مجرد حادث أليف، أو لقاء مصادفة. هو قدر بدأ يرفع رأسه من تحت الحجب السميكة، يلهج بما هو ناقص من معادلة قلقة هي التي أبقته متمسكاً بالحياة إلى حدود اللحظة.

كأنه سائر في طريق لا يعرفه، أو على طريق يطرده، يلفظه، لا يعرف تماماً أين يقوده.

تذكر حكاية قديمة، تقول إن الطريق الذي لا تعرف نهايته كمثل رجل فقد عقله. هو يظن بأنه يطير عالياً يلتقط النجوم ويرى بها ذات الطريق. تساءل هل عليه أن يطير وينير الطريق؟ ليست لأحلامه الآن، غير معرفة المكان الذي يقوده إليه طريقه.

أصر وليد على مخاطبته، فانتبه إليه أخيراً، بعدما وضع يده على كتفه. اعتذر إليه وهو يخبره بأنه كان شارداً يعتصره خوف شديد بسبب ما رآه في رحيل، هي مريضة بالتأكيد.

لم يتردّد وليد عن الهمس إليه بأنها تعاني من مرض القلب منذ أن هجرها زوجها خالد بسبب خلاف مبدئي حادّ حول لوحة فنّية ورثتها عن والدتها. وما زاد في مرضها أن الذين حلمت بأن تبني معهم الطريق، انقلبوا إلى عبدة الزّفت ومدّاحي السّراب. هي تقول دائماً: عوض الطريق ولد طريق آخر تزيّنه الأعلام والأناشيد والزّعيق وقصائد المدح، تظلّله جثث تتناسل على السّرير نفسه.

شكّت في كل شيء. هجرت الموسيقى والناس وفضّلت أن تركن وحيدة نسياً منسية، تنسج من خيوط صمتها قصيدة عزاء دون كلمات، لعالم غيّر الطريق وأبحر في مراكب يقودها أشباح وعميان.

أسراب من البشر تملأ هذا المركب، يصطدم كل منهم بغيره، يتدافعون بمرافق من حجر، يسقطون، يجثون، يقفون، ثم يسقطون، اختاروا ألّا يتعكزوا إلا على رضا الأشباح القائدة.

فضّلت أن تبحث عن السّعادة على طريقة الفيلسوف اليوناني ديوجين بالاستغناء عن كلّ شيء، أو نبذ كل شيء لا يتوافق مع الطبيعة. ما فتئت تردد بأن الحوائج الزائدة باب لإفلاس الإنسان. هي

شبيهة بغناء الحوريات. كل إصغاء إليه تَهْلكة، لأن التّرف سكن الإنسان كحشرات قارضة حطّمت معانيه ووضعت حدّاً لحياته. أصبح الآن أشبه بهيكل محنّط، تجوس ما بين مخارجه ديدان صفراء متندّرة.

نظر عبدالله إلى وليد مستغرباً، لأن راشيل كانت مفتونة بالفيلسوف ديوجين. تذكّر أنها قد طلبت إليه مرّة أن يكتب عن أسباب اختياره قضاء حياته داخل برميل يوقد مصباحاً في عزّ النهار، يخطو في شوارع أثينا باحثاً عن الإنسان الذي لا نظير لما يراه. رسمت له لوحة تحتفي بمعنى الحرّية لمّا تهكّم من بائعيه في سوق العبيد بقوله: خذوني أيها العبيد، فأنتم بحاجة إلى سيّد!

البحث عن إنسان الفضيلة والحكمة فضاء خاص يجمع ما بين راشيل ورحيل، صوت استثنائي منفرد يضيء في ردهات الغربة والوحشة. خاطب عبدالله نفسه، أن التّعب قدر طوّح بهما بين أشلاء زمن مُرّ... مرّ جداً، لم يحمل لهما إلا التّباريح والجراح العميقة...

همس لنفسه مرّة أخرى، لماذا يجد نفسه في كل مرّة منساقاً إلى البحث عن التشابه بين راحيل وراشيل؟ أهو مجرد شبه يجمعهما بالمصادفة، أم هو شيء نادر له دلالة الاستثناء والتفرّد في أقلية محدودة من البشر؟

أم هو شيء آخر لا يعرف مصدره؟.

هيهات ما بين عالمنا وإنسان الفضيلة والحكمة! هكذا التفت عبد الله إلى وليد، وهو يتلفّظ هذه العبارة الخارجة من أعماقه. كأنها نزفٌ قديم أتيحت له فرصة أخرى، لكي ينزف أكثر.

أخبره بنظرة منكّسة بأنه يرى شيئاً من نفسه في راحيل. ويسمع شيئاً من صوته في صوتها، شيئاً لا ينفك عن الحركة والغليان، كأنه طائر خرافي يسافر ما بينه وبينها. يعبر الطريق المنهار أو يرمّم الممر المحطم بين أضراس الزمن المنتهي، باحثاً عن حبة حياة، لبست الذكرى بيدرها في حقل ماء محجوز منع النسل والحركة...

بدأ يتراءى له حضور باذخ لراشيل، وهي تهبط من الأعلى الشّفيف عبر سلالم مضيئة وبين يديها أوراغون يعود إلى الأساطير الأولى، تحفّها آلهة الإلهام. كأنها تخطو في اتجاهه ممدودة اليدين تعرض عليها تناول الأوراغون.... وقف متجمّداً يساير تخيّله إلى حد اعتقد فيه أنها تكلّمه، تسأله عن راحيل وتخبره بأنها حزينة من أجلها.

مدّ يده مغمغماً وكأنه يلتقط الأوراغون منها:

- نعم يا سيّدة العمر سأمنحه لراحيل.

تنبّه وليد إلى غيبوبته الخاطفة، فقطع حبل تخيّله، وهو يطلب إليه التوقّف عن هلوساته. استفاق عبد الله وكأنه كان في حلم، قائلاً:

- كانت لحظة جميلة، كم تمنّيت أن تدوم أبداً! اشتقت إلى راشيل، وكم أودّ أن أقضي بقية العمر، أرعى راحيل وأخدمها.

هيهات أن يلبس الموت جلد الرذاذ الذي لا يتوقف! يتموّج فيه التخيّل والحلم الذي لا واقع لهما.

* * *

صور إشهارية مرتعبة تحفر في جدران المدينة طريقين؛ طريق ملتبس لا تنقشع فيه غير أنياب ماكرة، وطريق مهجور له شكل حقل

تيبّست زنابقه، ولم يبق منها ما هو حيّ إلا حبّات قليلة. الطريق الأول مدجج بصور تحاكي الحطام، ويعتقد أصحابها أن ألوانها فاقعة تسرّ الناظرين. صور مبتسمة تلد من فمها الخراب. تعلن عن بداية الموسم الانتخابي الجديد ومراسيم التكالب على القفز إلى مقاعد البرلمان. والطريق الثاني منكفئ في هدأة المستسلم الذي جرّب أساليب الإنذار. قفزت منه التربة وتجمدت في كتفيه سواقيه الولود... فغادر الأرض والدّار.

ملّ أصحاب هذا الطريق الزرع والحرْث وإضاعة العمر، لأنّه لم يفض إلى أيّ حصاد. لذلك، ترى الطريق الأول يتضخّم، يلتهم الأرض وهذا الطريق وذاك....

هو اليوم أكثر هشاشة وأضعف ممّا كان يظن، وهو يقف في قارعة الطريق؛ ذلك الطريق، ردمه سهل وإسقاط صوره أسهل، لو عاد رجاله الأولون يحملون الفأس ليشقوا الأرض، بالرغم من ألم الصّديد.

صديد يعتصر الوعي والتّاريخ، وشواء من لحم البشر المنضّدة كالجثث، يشكل من موسم الانتخابات خريطة من دخان لوطن لا تعمّره غير الأسماء. هناك أسماء وأسماء... هذه الأسماء التي يترأسها رؤوف برأسه المنتفخ وشدقيه المنتفختين، هي شبه أسماء أو ظلّ لأسماء تأتي في مراتب متأخرة من بين نسخ الأسماء، تلتصق بالمجتمع كالمرض الصامت الذي يأتيه الموت ببطء خفيت. كل شيء في هذه الانتخابات يحاصر تمرّد الأفق. يصنع من نوايا النّاس تاجاً تتوّج به رأس الأسماء الأصلية. تترك بعض البقايا للنسخ الشبيهة. هكذا كل اسم حسب نوعية الشّبه الذي يحمله والرتبة التي يحتلها ودرجة

الولاء. طقس انتخابي يظهر فيه رؤوف كالموجة الملوّثة التي تضرب في كل الاتجاهات.

عاد من جديد يحمل كلامه الرّث ليتحدث عن الديمقراطية والبلاد، يتقمص كل الأدوار، ويلبس كل الحالات ساعياً إلى استمالات تشبه الكيفية التي تستميل بها مومس زبناءها.

يخطب في كل التجمعات، ويحصي إنجازات حزبه التي لا تعدّ، مذكّراً بفضائله الممتدة بلا حدود منذ سنين خلت. يخطب في كل لحظة صارخاً محاطاً ببزاق كريه.

في اليوم الرابع من حملته الانتخابية، لاحظ رؤوف ملصقات ذات لون موحّد تنافس ملصقاته الانتخابية، ترجّل صوب الجدار التي تأهلها. وقف متسمراً ساعياً إلى فهم شيء ما. فرك عينيه ليتبيّن من جديد الصورة التي يراها أمامه ويعيد قراءة ما كتب تحتها. ملصقات تحتوي صورة حديثة لراحيل بقميص أسود ونظرات ثاقبة متشكّكة أضفت عليها، بالرغم من كل شيء، جمالاً هادئاً وثقة الواثق من نواياه.

ظن فجأة، وهو مرتبك، أن عزمها على الغناء والإشهار لسهرتها الموسيقية التي ستحييها يوماً واحداً قبل الإعلان عن نتائج الاقتراع، هو نذير سوء يلوّح بسقوطه في الانتخابات. تحوّل ذوي السيارات في أذنيه وهو غارق في تأمل ملصقها إلى نحيب عميق خيّل إليه أنه صادر عن ثكالى نازحات من جيل بعيد أو من قرية منسية.

اخترق النحيب كل أحشائه، ظنّه هذه المرة يتصاعد من حناجر الأشجار. ومن أشهاد أفق مغيوم... أصبح لا يرى إلا أشكالاً من

الماضي لما كانت راحيل تفضح عورة نوايا امتهانه للسياسة وهي تطارده رفقة خالد، غارقاً في مسالك الرذيلة.

شُبه له أن النّاس من حواليه جوقة تطالب برحيله، وهي تردّد وراءها أغانيها المترنّحة بين مقام الاختيار ومقام المصير. حاول أن يصغي إلى نفسه، وهو يقنعها بأن الملصق خدعة بصرية أو سراب منفلت من عقال هواجسه المضطربة. يستحيل أن تنهض راحيل من رمادها وقد فقدت الشعلة والتوهج.... ردد أن خالداً، قد قصم ظهرها وجثّ أصابعها لما هجرها... إنه متأكد أنها قد أصبحت امرأة عاجزة كالنخلة الميّتة. هي مجرد حطام يعيش على تهالك فطريات الماضي فقط.

اقترب أكثر من الملصق وهو يحملق فيه بعينين واسعتين خائفتين. كلما اقترب، أكثر، أحس بالسّكاكين تنغرس في وجهه وأمعائه. لكن صورة راحيل أصبحت واقعاً أرغمه على العودة إلى جادة صوابه.

ألقى بيده بحركة خاطفة إلى الملصق، وهو يحاول اقتلاعه. لكن يده زلت من فوقه وقد تأذت أظافره، لاعناً الجدار والطريق والناس. اعتقد أن هناك شيئاً ما يحاك ضده، أو أن هناك أفراداً يكيدون له.

خاطب نفسه أن السّياسة مكايدة وتدبير بالحيلة، وأن ظهور راحيل في هذا الوقت بالذات هو سياسة رغبة تحمل في ثناياها مضرّات وكيوداً.

عزم أخيراً على أن يذهب إليها ظانّاً منه أنه قادر على مفاوضتها. أو على إقناعها بأن تبقى محايدة فقط...

هو يعلم بأن المرض استبدّ بها وبأنها في غاية التّعب. تكفي مجاملتها فقط، والحديث معها في الفن والفلسفة والموسيقى، تلك عوالمها الفوقية التي تنتشي بالسباحة فيها والغوص في أعماقها أبداً...

تداخلت صنوف من الأوهام وتمازجت في ذهنه بحسابات خاطئة لسياسي تمرّس على المداورة والبهتان... تمرّن على أن يكون مذياع السّلطة ويدها القبيحة التي لا ترى...

في الطريق إليها وهو يخترق الشوارع الصغيرة والأسواق الفقيرة المشتتة، كان النّاس يعترضون سيارته، وهم يتملّون بطلعته مهلّلين باسمه. حشود صغيرة بدأت تكبر، تفتّحت عيناه بانتشاء، وهو ينظر إلى هدير بشري يطوقه، يلهج بألقابه وبالصّفات التي اصطنعتها له كتائبه الإلكترونية... ضجت من حوله الأصوات وتعالى الهتاف متماوجاً، وقد رفعت صوره واشتد الضجيج المادح من حوله، خيل إليه أنه سلطان عابر يرفل وسط رعيّته.

اخترقت السيارة مما ضاق من تلك الشّوارع، وهو شارد يرتّب في ذهنه إخراجاً يلتفّ به على راحيل. كل علامات القلق والخوف ارتسمت على وجهه، لأنّه يعلم مسبقاً بأنها امرأة، ليست ككل النساء، هي صارمة وذكيّة يصعب الاستحواذ على عقلها بسهولة.

ولمّا وصلت سيارته إلى شارع عريض، اختلطت عليه البنايات ولم يستطع تبيّن العمارة التي تحضن شقتها. أوقف السيّارة بضع دقائق جامداً فوق كرسيه يتأمل حالة الشّحوب التي يلبسها هذا الشّارع وشيخوخة المكان وانحباس أجوائه.

تذكر أنه كان يزور خالداً في بيته، هنا في هذا المكان، يتجسّس عليه، يقتسم معه التنظيم والأفكار في الظاهر، وفي الخفاء كان يطلع الأجهزة الاستخبارية عن الهواء الذي يتنفّسه خالد ورفاقه الذين كانوا من طينته.

لم يستطِع أحد أن يكتشف أمره، لأنّه كان يتقن الأدوار التي يلعبها، متفانياً في تنفيذ تعليمات الأجهزة المركزية... كم أسقط من الرّؤوس، وكم شرّد من عائلة...

هو غير نادم على ما فعله، لأنّه لولا ذلك لما أصبح زعيماً سياسياً وسيّداً يتدثّر الغنى والوجاهة. هو يتذكّر فقط، كم كان خالد طيّباً رقراقاً ومخلصاً لأفكاره، وكم كانت راحيل كالنّمرة الشّرسة تدافع عن حلمها وتكره السلطة كرهاً لا حد له. كانت تشمخ كل يوم كالجبل وهي تؤلف الموسيقى والأشعار التي رددها جيل بأكمله. ابتسم رؤوف، وهو يتذكّر كم كان متفانياً في تكدير صفاء ما كانت تنتجه شتّى الوسائل، وتوظيف نقاد ومثقّفين وصحفيين وفنانين للتّشكيك في إبداعها والتشهير القاطع الذي يشبه السّيوف الحادّة والرّصاص النافذ.

تذكّر نجاحاته في أن يلعب بالكل. أن يكون اليد الخفية في سيرك سياسي فقد فيه الرّجال ماء الوجه والهويّة، أو فقدت فيه النّساء بكارات الأصول ورمزية الأرض الخصيبة.

خاطب نفسه بأنه كان محقّاً في كل ما فعله، لأن هذا الشّعب مجرد كتل بشرية كريهة تتيه كل يوم فاغرة فاها تتصيد الأنعام أو التقاط ذبابة أو حشرة طائرة.

ومع ذلك، كان يرى في هذا الشارع دائماً نذيراً لأفق لا يُحدّ، أو تهديداً للصعود على سلم السياسة.

في الطريق إليها، وهو يخطط للتحاذق على راحيل وخالد، كانت تفاجئه صورتان نافرتان للشارع نفسه. تبدو إحداهما منخسفة، وتبدو الأخرى كأنها برأس حصان مجنّح. كان يضحك كثيراً من الصورتين، لأنّه كان يعتقد بأن الصورة المنخسفة هي لهؤلاء الذين لم يفهموا هذا الشعب بعد، فراحوا يحلمون به ومن خلاله. لذلك ظن أنه على حق لما اختار التمسك برأس الحصان ذي القوائم الحديديّة الشغوفة بسحق الأغنياء وغير الأغنياء. الحياة مثل هذا الطريق الذي يلد الصورتين. أما النّبه فيها هو من يحسن الاختيار. هي جمل مسكوكة مازال يردّدها في المناسبة ونقيضها، يستعملها بنفس إيجابي في السياسة وبنفس مناقض تماماً، وهو يتحدث عن مصالحه ويذود عنها.

هي هكذا السّياسة كما يعتقد. يكفي أن تكون لك روح أفعوانية حتّى تذلّل صعابها، أن يتقمّصها جسدك أيضاً أن يكبر فيك الجسد الأفعواني، حتّى تكون قادراً على الالتفاف على كل شيء والتكيف مع كل الحالات والأوضاع. لا صداقة في السياسة ولا وفاء، لا ألوان فيها ولا فواصل. هي امتداد يتجاوز الممكن ويخترق المستحيل.

ما فتئت الكلمات ذاتها تتردّد في أذنيه، تنسلّ إلى رأسه وقلبه، يتنفّسها كالهواء. هي حياته، إذاً، ولا يمكن أن يتصور له أيّ حضور أو أيّة حركة دونها.

خاطب نفسه بأنه خاض كل المعارك وانتصر فيها، حرق الأدغال واقتلع الأشجار الواقفة ضد سعيه الهائج. هو يكره الخيبات

والسقوط، يكره الصوت الذي يعارضه، وله القدرة الكاملة على نسف الذي يخالفه، يغايره، ولا يثق أبداً في الشّبيه...

تنفّس عميقاً، وهو يرى انتصاراته تتجسد في ذبول هذا الشارع، في انطفائه وانحساره العميق. وأنه كان صائباً لما ظلّ مقتنعاً جداً أن الأفكار تموت بسرعة، خلافاً لما يروج له. مَثَلُ الأفكار كمثل الرّيح المارّة. وأن خالداً كان واهماً لما اعتبر الأفكار خالدة كما الزّمن الخالد، وأنّها محرّك التاريخ.

أين هو خالد الآن وراحيل وغيرهما، أين هي الأفكار التي كانوا يبشّرون بها؟ يعلنون عنها كالمصائر الحتمية. كلها نسفت في لمح البصر، نسفتها موجة صغيرة في شطّ مقفر، وهما يعتقدان أن لهما ما بعدهما. لهما السلالة التي ستحمل هويتهما وسؤالهما الشقيّ الذي لا يهزم.

هشّ رأسه يميناً وشمالاً، وهو غارق في تأملاته يبتسم ويتساءل. أين هي السلالة والامتداد؟ انفصلا انفصال الروح عن الجسد، ولم ينجبا ولداً، تهمّشت الأحلام كحبّة تبن واهية.

غضبت منه راحيل يوماً، لما قال لها إن الأفكار والتاريخ يصبّان معاً في صهريج واحد وينتهيان فيه. إنّه صهريج الذات التي تبحث عن ذاتها اللّذية فقط، عن سلطان المتع الذي يفضي بها إلى الرعشة الكبرى. أليست الأفكار التذاذاً ذاتياً ليس إلا؟ أليس التاريخ نفسه رغبة في متعة الحكي والرواية؟

كانت تجادله في تمسكه بمكيافيلي ' الغاية تبرر الوسيلة'. اتّهمته يوماً بأنه لم يفهم السياق التاريخي لهذه المقولة التي انتشرت خطأً، انتشار النار في الهشيم. كلّما كانت الوسيلة خاطئة كانت النتيجة

مغشوشة وفاسدة. لكن رؤوفاً كان متمسّكاً بالميكافيلية بحسب تعريفات قاموس أوكسفورد الإنجليزي، باعتبار السياسة فضاء للمكر والخداع، أو هي فن الاحتيال المتجدّد.

مرة أخرى، يعتقد برسوخ على أنه كان على حقّ، هو الآن يسير في طريق معبّدة تحفّها الخيرات من كل جانب، لأنّه كان ميكافيلياً حتّى النّخاع، وأن خالداً وراحيل اللذين لم ينتصرا إلى قناعته، ضلّا السبيل. تاه كلّ منهما في طريق وعرة مظلة تملؤها الخفافيش المخيفة ونعيق البوم المفزعة.

حمدَ الله على اختياراته الصّحيحة، وهو يتحسّس جيبه الأيمن ليخرج منه سبحته العجيبة تسبيحاً واستغفاراً. لكنه تذكر فجأة أنه بحاجة إلى أن يعبّ سيكاره المألوف ليضبط مزاجه المضطرب. ولذلك، عدل عن إخراج سبحته وهمّ بإخراج السيكار من علبته الخشبيّة الخاصّة.

بعد لحظات وهو يحاول أن يتبيّن شقّة راحيل، انشدّ إلى واجهة حجرية لعمارة يزيّنها لون رمادي موحّد، تنتصب وراءها صومعة عالية قديمة.

تذكر فجأة العمارة المائلة أمامه، هي المكان الذي تسكنه راحيل. استحضر أنها تقيم في الدور الثالث جهة اليسار، وأن الصالون وإحدى الغرف تطلان على الشّارع الكبير. توقف عن النّبش في التفاصيل، وهو يتوجّه مرتجلاً نحو العمارة مضطرباً مشتّت الذهن. انتابته مشاعر ملتبسة تشبه الخوف. ومع ذلك، أصرّ على صعود السلم ودقات قلبه تتلاحق مرتفعة وكأنه مقبل على امتحان عسير.

نقر على الباب نقرتين. لم تسأل راحيل من الناقر، فتحت الباب

مباشرة فتفاجأت برؤوف يقف أمامها مرتبكاً، تسمّرت في مكانها صامتة أول لحظة وهي مندهشة. ولما بادر بتحيتها، استمر صمتها قليلاً، ثم بادلته بتحية باردة، طالبة إليه بلهجة حادّة سبب المجيء أو الزيارة...

استأذنها بالدخول، وهو يلحّ على أن الأمر في غاية الاستعجال. بعد تردّد مكشوف أذنت له بالدخول، وهي تقوده إلى الصالون في غاية الاشمئزاز. أبدت من خلال ملامحها كل إشارات الرفض له. ومع ذلك، ظل غير مكترث كما هي عادته. يصطنع الابتسامة ويخفي اندهاشه من ذبولها الفاضح والسّريع.

لم يعرف كيف يبدأ الكلام، تيبّست اللغة في لسانه واحتبست الأنفاس في عروقه، حاول أن يقاوم أحاسيسه المتناقضة بالابتسامة المتكررة، وإعادة العبارة نفسها بقوله: إن هذا اليوم سعيد.

سألته مجدّداً وبنبرة قاطعة عن سبب مجيئه إليها، قائلة في نفسها بأن هذا الخنزير لم يأخذ منه الزمن شيئاً.

أعرب لها متأفّفاً، وقد ترك أطراف أصابعه ترسم خريطة القلق على جبينه بأنه جاءها مستفسراً باسم الصداقة القديمة،عن سبب اختيارها إحياء سهرة عازفة في الليلة نفسها التي تسبق يوم الاقتراع. فهمت على التو، القصد من سؤاله، وبكثير من الغضب أخبرته بأنها نادمة على استقباله، لأنّه جاءها يجرّ وراءه فصولاً من حكاية خديعة قديمة كان راويتها وأحد أبطالها السيئين. لا يزال يرن في أذنيها وقع حديثه عن الإصلاح من خلال الانتخابات، وأن الديمقراطية أشواط طويلة ينبغي أن نقطعها بتؤدة وبذكاء الحكماء... أن نعرف كيف نتقدّم

وكيف نتأخّر وكيف نقف، لكي نستمر. هي الآن تستحضر كم كان مصاباً بإسهال في الكلام والحركة. يمطّط الكلمات والحروف كبهلوان رديء. كان وجهها مختلفاً عن الحقيقة، عن المعنى الذي كان يحلم به جيل بأكمله. الخطأ، في تقديرها الآن،أنّ جيله قد وثق فيه أيّما وثوق. استطاع أن يستميله ويطمئن إليه. اقتسم معه رغيفه والنّبض الخافت والمرتفع، صمته الجريح وصراخه المتشقق بالانكسارات. اعتقد ذلك الجيل أنه الرّمز والحقّ والمدى الذي يأهله بالصدور العاريّة. لكنه لم يكن يدرك أنه يلتف حول آلة قاطعة، طحنت المثل والأصدقاء والفكرة والأحلام الواعدة. كان رؤوف بخسته يحضن جيله في النّهار يسرق لحمه وشعاع البصيرة ليبتاعها ليلاً في الخفاء على إيقاع كؤوس الشامبانيا وتموّجات دخان السيكار الساخر. كلّما أراد رفاقه وأصحابه إخراج النار التي تهدر في أمعائهم، جاءهم في مختلف أقنعة الحكيم المزيّف، يذكّرهم بمصلحة البلاد ونعمة الاستقرار وبالظروف التي لم تنضج بعد،... كان خالد يصدّقه كثيراً، لأنّه كان يؤمن بالمرجعيات نفسها التي كان يؤمن بها، وبدروس التاريخ التي مرّت بها شعوب لم تنجح في ثوراتها.

هي الآن تحاول أن تطرد الصور القديمة من ذاكرتها، لأنها تخشى أن تلحّ عليها ذكرى خالد، أن يزيد الأمر عليها ضغط دمها، أن تقع فريسة الحنين القاسي والألم المؤذي... لم تعد تعبأ بحديث رؤوف، لأنّه لم يهمّها كلامه بقدر ما أصبحت صورته تتوكّأ على الجراح القديمة تحيي فجيعة سقوط المثال المضيء وانتهائه آفلاً.

كأن جزءاً من التّاريخ الحاسم في حياتها يركض بعنف في

أحشائها، يصهل في دمها كلحظة حرب ضروس ما بين خياراتها ومآسي المآلات التي انتهت إليها... كأنها تتردّد مابين أن تطرد رؤوفا، تلقي به خارج الشقّة وبين أن تبقيه ولو لحظة، تلتقط من حضوره ذكريات دافئة لزمن جميل، ترمم هيئة لعزاء قد يكون الفصل الأخير من فصول العمر الذي مرّ.

لم تتمالك وهي تشعر بدقات قلبها تتلاحق. وضعت جبينها على الحائط وكأنها تستريح، فرّ من عينيها سرب من الدموع، حرك أحاسيس رؤوف الذي وقف مسرعاً في اتجاهها مصفرّ الوجه حاول أن يهدئ من روعها، ولكنها قاطعته متعبة، طالبة إليه المغادرة بنفس صارم متعب ومنهار.

غادر رؤوف الشقّة دون أن ينبس بأية كلمة وهو يغلق الباب وراءه بهدوء. أحس وهو ينزل الدرج بأنه مصاب ما يشبه الندم وعيناه تبرقان بالحسرة متأثراً بمرأى راحيل وقد شطّت بها الأيّام في مفازات الوحدة والألم والانهيار...

لم يسبق له أن شعر بما أصبح يشعر به الآن، وهو ينزل سلّم العمارة. أحسّ كأنه يتهاوى إلى قاع حفرة سعير قد التهب. ظن أنه يسمع أصواتاً هو يعرفها ولكنه لا يتبين أصحابها، تتعالى متألمة وهي تدينه وتلاحقه من داخل هذه الحفرة. هو الصدى المرعب المتكرر يغشاه. يسكن دمه وعظامه، يقذف به إلى دورة الوعي المنقلب ضده، يقطّع أحشاءه، ويفجره من الداخل.

حاول النّزول مسرعاً هارباً من هذا الجحيم، راغباً في الصّراخ،

لأنّه يشعر باختناق قوي يطوّق عنقه ويجذبه أرضاً. استطاع أن يكتم صراخه. لكنه لم يستطع أن يحبس قيئاً مفاجئاً ألمّ به أمام باب العمارة، وكأنّه يرغمه على استفراغ ما في جوفه السياسيّ السرّي الذي تركن فيه كل صنوف الخديعة والبهتان.

لم يمنعه انهياره الذي بدا عليه من أن يحاول الوقوف والترجل على نحو عادي، وهو يرْشَح بعرق بارد غطّى وجهه ولبس جلده وطفح فوق بدلته، وكأنه فقاعات ترمز إلى كتلة نتنة لها شكل رجل هائم أو رجل يعتقد أنه مهم جدّاً... ولما تمكن من دخول سيارته وإغلاق بابها، فك ربطة عنقه مسترخياً فوق كرسي القيادة مستسلماً إلى زفير عميق، وكأنه يناجي ربّه أن يخفّف عنه وطئاً وجيب القلب والرئتين. تنفّس مرة أخرى وهو يردد: لعن الله الساسة والسياسة. بعت نفسي للشّيطان وعشت دون بصيرة أرفل في الشماتة. وها أنذا اليوم أفقد الجذور مفجوعاً أمام غربة مريعة... كان عمري كمجرّد رقم أجوف لا علاقة له بالوجود المانح لمعنى الآدمية.

نظر إلى وجهه في المرآة المقابلة له. وفجأة غطّاه بكلتا يديه، مغمغماً بألم:

كنت أعتقد أن وجهي وضّاء، لكنّي أراه اللحظة منطفئاً متفحماً مشوهاً تنبت فيه الخطايا والآثام كالفطر.

تذكّر كلام خالد لما كان يقول لراحيل: إن السّياسة تعني الحبّ المزلزل. وإن لم تكن، فهي مجرد قبح وشرّ مستطار....

صرخ أخيراً، أيّ بيع وشراء، أيّ شرّ أفنيت فيه العمر. ها هي

راحيل تكشف عنّي اليوم، لأراني أرخبيلاً من القبح والبشاعات العائمة...

* * *

لم يكن امتناعها الطّويل عن الكتابة والعزف هروباً أو انهزاماً، وإنما كان تعبيراً منها عن موقف من العالم الذي قطع حباله وأظلّ المنارة، عن موقف من الإنسان الذي تأبّط وجهه ولبس وجه الهراء الملوّث.

قرّرت أن تعود إلى العزف وقد قطعت من العمر مُدداً وأشواطاً، يرنّ في داخلها جرس الوهن الممض يلْهج بأبجدية الوجع الطويل، لأنها أدركت أن العالم قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من شفير الهاوية. آلمها كثيراً أن تنتهي في الصمت المنغلق تدفع بيديها المنهكتين غطرسة المرض الذي نخر عظامها. رفضت جبروت هذا الصّمت المتعالي، لذلك قرّرت التمرّد والصراخ ضد أبوابه الموصدة.

طلعت من جذور نبتة روحها أحاسيس مريرة بالمسؤولية، ما انفكت ترغمها على المثول المجدّد لتقول كلمتها وألا تنسحب، أن ينتشر صوتها كالنداء الغريب يدعوها إلى اختراق القواعد الخاطئة والعودة إلى أصل الإنسانية وربّانية الحرّية وطهرانية المحبّة، إلى الصفاء وسعادة الخليقة. تمنت لو أن خالداً ينبعث من رماده، كالفنيق، ولو أنّها لم تعرف عنه شيئاً. لها قناعة راسخة بأنه لا زالِ كالجذوة المتبقّية لم تنطفئ بعد.يكفي أن تؤجّجها ريح عابرة لتطلع ناراً زمهريراً تلتهم الأعشاب الضارة والهواء المسموم...

قالت في نفسها، إنها لازالت تؤمن بأن هناك نوعاً من التّاريخ

المنسي له عينُه العميقة السّهرانة أبداً، تراقب المنعطفات وتراكم الأحداث والتّفاصيل، وتتحسّب الخوافي... الممكنات والمستحيلات.. لا يرتدّ لها طرف، حتّى تنجز الحتميات الضّرورية أو المسارات التي لا تقهر...!

قالت مرة أخرى،إنه يحيّرها اختفاء خالد ويؤسفها انسحابه الكلّي من معترك الأفكار والمواقف. ليس لأن جراح التذكّر قد استفاقت من غفوتها، ولكن لأنها تشعر بحماسة عنيفة في دعوة الأخيار إلى إيقاف النّزيف الذي يتعكّز على ما تبقّى من أشلاء المعنى من تاريخ العزلة المفروضة!

خواطر وتساؤلات تروح وتجيء كالأمل مرة، وكالكواليس مرّة أخرى. شهيق وزفير يتدافعان جنباً إلى جنب لحجب حزنها الكبير الذي ينبغي له أن يحرث في روحها خريطة لا تتّسع للدمع والأنين، وإنما للفعل على نحو مغاير.......

أعياها التنزّه في التأمل والتنقل بين دروب الدنيا وأهوال الطريق. وبعد مدة ليست بالطويلة استسلمت إلى النّوم المتوتّر والغريب. ليس بالنوم ولا باليقظة... هو غفوة كالإغماءة المليئة بالكوابيس، ولكنّها مترعة بالموسيقى الروحية ودخّان البخور.....

في هذه الأوقات المنفلتة من ضجيج النّاس وصخب المدينة، كان خالد يتقلّب في فراشه وقد هجره النّوم. هو القلق نفسه أو شبيهه الذي حمل راحيل على المكوث ساهرة، يعتريه ويدفعه في تعداد محطّات العمر الذي مضى. هذا الأرق يهيّئ نشيج الزّمن لكي يدبّ في أوصاله كالحريق. تتطاير فيه الأحداث وصور الأصدقاء والأعداء،

متشظّية متقطعة كالصّوت المبحوح. لم يتبيّن من هذا النشيج الغامر إلا الخسائر وعلائم الخراب. يعترف الآن بأنه كان شاهداً ومتعلماً وفاعلاً، لكنه أخطأ الطّريق لما توهّم بأنّه يخطو في الضوء، ولكنه لم يكن إلا مترجلاً في مساحات الضّوء المعاكس للوقت.... كان الضوء ينتحب، وهو يلتقط أعضاءه المبتورة، ويستنجد بمن يحسن السّير ولغة الوقت المهدورة في سواعد النّاس المعطلة....

إعصار ذهنيّ وعاطفي يزمجر برياح النكوص. يقتلعه من هدأة الاعتقاد بأن هناك استقراراً وزمناً جديداً يحفّه حسن النوايا وتحذوه إرادة التغير. وضع يده على صدره، وهو يقول بصوت مسموع: لقد خدعنا مرة أخرى، وسرنا في مؤخّرة موكب الفقيه عمياناً، نردّد تراتيل صلاة الاستسقاء والأفق مثخن بالجراح والغبار، تزخرفه بلاغة الخطأ.

ترك سريره مجدّداً، وهو يتّجه صوب صندوق يحضن قصاصات جرائد ومجلّات قديمة. بعد تردّد فتح دفّته العلوية بتؤدة، ثم ألقى بيده وسط حزمة من الأوراق القديمة المنضّدة، لكي يلتقط بعضاً منها بعشوائية. وضع ذلك البعض أمامه متأمّلاً هيئة القصاصات وطريقة إخراجها وتصنيف حروفها. هي الآن تسكنها الصفرة والأرضة، تفغر فمها لتبتلع الأسئلة دون هضمها. ليست بصفرة الشّحوب والندم فقط، بل هي رديفة لما تبقّى من دم زمن مهدور صُلبت فيه الحقائق على عتبات التاريخ الذي كان ينبغي أن يكون.

زفر خالد عميقاً بملء رئتيه، وهو يفتح واحدة من تلك الجرائد. ولمّا وقعت عيناه على مقالة بعنوان 'السلطة والنّخب' موقّعة باسمه، أحسّ بارتباك خفيف يصعق جوانحه. تحمّس لقراءة المقالة

مدجّجاً بحنين العودة إلى رحم أفكاره الأولى، إلى وعيه المسكون بالشقاء والمسؤولية. لم يكن خلال القراءة يرى صورة من نخب اليوم تشبه نخب الماضي. ليس لأن الزمن قد تحوّل، وأن ذلك من سنن الحياة، ولكن لأن نخب اليوم صنعت من أنانيّتها أعراساً وولائم من بؤس الدراويش والفقراء.

ما أعجب لهذه النخب اليوم، وهي تلبس بدلة السّلطة، وصرير حذائها يوقّع تاريخاً بائراً للإجماع على عجوز يترجل على عكاز من عظام شعب استبدلته معاني الهوية الثابتة. تساءل: لا يحقّ للنّخبة التي هو من فصيلتها الكفّ عن التّجديف وإحراق السفن والتّيه في الصّحاري المعزولة؟

تذكّر آخر عهد له بالسياسة لما اختارت النّخبة التي اقتسمت معه الأفق نفسه تقمّص صورة حورية البحر، التي تخفي وجهاً مشوّهاً لساحرة شمطاء...

هل هي محقّة لما اعتبرت أن العالم اليوم، لم يعد إلا شكلًا يتلوه شكل آخر، وأن المعنى قد مات وشيّع أصله وفحواه؟

لم يعد النّاس ذلك العِقد الجميل الذي لا تجتمع حبّاته إلّا على صدر المحبّة والحقيقة. سلطة الشّكل أو جاذبية الضّوء الذي ليس بضوء فرط العقد وسقطت حبّاته تباعاً تترنّح على مدارج الهوى وسلالم الشّهوة البلهاء... جرفت رياح الشّكل العاتية الهوية واغتصبت الحلم السرّي خفية. رسّخت في النّفوس أن الإنسان خلق للشكل فقط، وأن معناه الوحيد هو اللّذاذة المتوحّشة لا غير.الشكل وحده الحياة، سرّ الوجود والهندسة الأزلية للعالم. هكذا أشيع أو هكذا شاع.

أعاد تكرار السؤال نفسه، هل كرهت هذه النخبة مواصلة التجديف بأيادٍ قد تقرّحت وتورّمت، ومن ملامح أحرقتها أشعة الشمس وملح البحر؟

أم لأنها اقتنعت أخيراً بأنه يحقّ لها أن تتوقّف عن التجديف وترتاح، لأن الشّعب لا خير فيه، ولم يبق من العمر إلا النزر القليل، وأن الحياة في النهاية لذّة أشكال المشتهاة؟

لم يعد للوطن هذا الكائن المعذّب فرسان يقاتلون بنات العبث التي ما فتئت تتناسل بكثرة غريبة، تنتشر كالجراد في كل حدب وصوب.

ألهذا كلّه قرر خالد أن يهرب لمّا تجرّع مرارة الغربة وأصوات الحسرة والضياع؟ لقد توقّع منذئذ أنّ المراحل ستتشابه، وستموت أسراب الطيور المغرّدة، وستكبو الخيول الجموحة، ولن يكون للبحر إلا الجزر وللقمر إلا الكسوف، عندئذ لن يعود للوطن وطن يأوي إليه!

ألحّ عليه الشّغف الكامن فيه والعشق الذي يسكن دمه، أنّ راحيل كانت خسارته الكبرى.

كانت محقّة لما نبهته إلى أفكاره الحبلى بالتردّد وبالهشاشة التي تعتريها وقابليتها للموت السريع، لأن هذه الأفكار لم تكن تقبل التجدّد والمغامرة في الاتجاهات المعاكسة، ظلت وحيدة في طريق مستقيم ووحيد.

أشعل سيجارته، وهو يمضغ أسفه الكبير، لأنّه لم يتفطّن في الوقت المناسب إلى أفول علاقته الزوجية إلا بعد فوات الأوان. هو مقتنع جداً بأن تاريخ الضّياع الذي عصف به بدأ منذ فقده لراحيل.

انطفأ الحبّ وتاه في الطريق الوعرة لا يسمع إلّا وقع خطواته الواهنة....

غوى التوهّم، وخيّل إليه أن السّراب يحمل علائم لها شكل الطريق. فشقّ الطريق وظن أنه يسير، أنه يمضي.... يمضي لا يتوقّف!

ولكنه لم يكن يدري أبداً، بأنه يُخيّل إليه!

فيما كان يتساءل حول الماضي، وأوراق التذكّر والوعي الشقيّ تتطاير بعنف في رأسه، ردّد بمرارة، كيف تحمّلت راحيل كل هذا التاريخ الذي وضعها منذ ولادتها في دورة قدر قاس ليس له شكل اللعنة وسوء الحظ فقط، وإنما له هيئة جنّي يقود عربة العذاب الأزلي. من أين لها كل هذا المصير أو من أين لهذا التاريخ كل هذا العنف؟

هي لم تغضب ولم تثر الفتنة، ولا تجنح إلى الثرثرة والنّميمة، ألهذا استطاعت الصّبر وهزمت الألم؟

هل لأنها جعلت من شغفها بالموسيقى قوة داخلية لإنهاء التّاريخ المكابر ومرارات القدر، فانتصرت؟

ربّما يكون الأمر كذلك، ولكن المؤكّد أن انتصارها الكبير آتٍ من كونها حرّة! أو لأنها تمثّل المعنى الكامل للحرّية. الحرّية هي الخيط الرفيع الذي نصعد عبره إلى الجوهر والكينونة، هي الوجود الذي ينتشلنا من سراديب الخوف الموحشة، من مسار النفس الدّنية. أو قل هي الوجود الذي يعلّمنا أسماءنا التي تلقمنا لغة السعادة والأسرار ودلالات واجب الوجود.......

الحرّية هي التي نحياها كما نريد لا كما يراد لنا أن نعيشها!

ردّد خالد هذه الجملة باختناق، لأن راحيل كانت لا تملّ من ترديدها، وهي تعزف لكل الأسئلة والهواجس الجريئة، تكتب منطق

المنغلقات، منطق الإنسان المفتون بأن يحيا كما أريد له.....

قال لها يوماً: إن الحرّية نسبية؛ لأن معناها الذي نفهمه يختلف عن المعنى الذي يفهمه الآخرون..... أليست الحرّية كالجمال؟ كلّ يراه على هواه وفق ما يحسّه!

أليس للناس فيما يعشقون مذاهب، وبما يحسّون ويشعرون ملل ونحل؟

هو الآن يتذكّر أجوبتها الواثقة في عينيها. كانت تقول له: إن الحرّية أوسع من الجمال، أوسع من الإنسان نفسه، لا بداية لها ولا نهاية. لا تسعها المعاني ولا تحدّها الأشكال والأحجام. هي كذلك، لأنها مرتبطة بالنفس وبالروح.....هي لا مادية إذاً!

اللّامعنى هو هذا الشيء اللّامتعين، اللّامُعرّف. هو جهة من جهات الروح، يبحث عنه الإنسان عبثاً، وهو لا يدري أن مثله كمثل من يرسم بالألوان في الهواء الطّلق.

حلم جامح بالفراغ. هيهات أن يسدّه التعقّل المزعوم أو الموهوم.... ليس هناك عبودية إلّا في الرّغبة التي تسكننا أو في الإرادة المسلوبة التي تخادع حواسّنا!

هل الولاء للعبودية فكرة تسكن رؤوسنا فقط، تتناسل متعدّدة مع شكل امرأة خرقاء، تخفي رغبتنا في الحياة على سرير لذّة مهزومة أبداً.

شرود له هيئة أفول يلبس وجوه العابرين. التّيه يمسح بأعطافه هاماتهم المنقادة على أسفلت الوقت الضّائع، حلبة المدينة تتصاعد

منها روائح التّعب والترقّب الطويل. هدير يغمر الزقاق والطرق. وهدير واهن يجرّ وراءه ضجيجاً شائخاً وأدعية مكروورة منكسرة الجناح.

النّاس هذا الصباح يجترّون الشهيق نفسه، والزفير نفسه. يتهامسون ويجهرون من سيفوز بالانتخابات. يسيرون في كل الاتجاهات، لا يجدون ما يتحدّثون عنه غير ولائم الأمس وولائم اليوم. النساء والرجال يوزّعون في ما يشبه التخفّي أوراقاً نقدية من فئة مئتي درهم..يوزّعونها بشروط وبأداء القسم بأغلظ الأيمان عن طريق وضع اليد اليمنى على المصحف.... أوراق نقدية لامعة تفوح منها رائحة لها تأثير المخدّر..... لون شعار واحد هو الكاسح هذا الصباح. هو الصّوت الذي يعلو فوق الأصوات، أو هو الخراب الذي يهدر في عروق البلاد، هو اللّون الذي يثلج سمّاً زؤاماً له لون الحداد.....

يبدو كلّ شخص كأنّه حالة غرائبية تحتاج إلى جرعة فساد، لكي تشعر بأنها كائن كامل المواطنة. هل رأيت شعباً بكل أطيافه يصرخ ضدّ الفساد، وهو يتنفّسه بملء رئتيه كأنه الهواء الذي ينعشه ويحييه؟!

ليس هذا الشعب بالرّجل الذي يلقم معناه بلحمه وشحمه. قد تكون فيه استثناءات كاللؤلؤ المكنون، الذي حُجب بريقه أو أطفئ وجهه. ولكنها دُرر فريدة جداً جدّاً، تشبه النّدرة النادرة! اعتاد هذا الشعب على وجود السيّد الذي يظلمه، والذي يضع له خرائط حياته وموته، يهتف باسمه كل فجر وصباح، يراه سابحاً في الهواء، يسبّح بحمده ككوكبة خلاص نورانيّ، ينتشي به في الواقع والخيال، هو لا يريد أن يكون حرّاً ولا أن يكون له وعي شقيّ، ولا أن يكون ثائراً إلى

حد التضحية بالنفس. هو يحسن الغضب والضجيج لاغير، يبرع في الصراخ والعويل، ولكنه لا يقرب مشارف الحرّية أو يطأ أعتابها، لأن الاقتراب يعني سداد فاتورة ثقيلة، لذلك فهو دوماً بخيل.... بخيل حتّى العظم!

يبهجه كثيراً أن يتندّر بأمثال راحيل وعبد الله، ويتدافع بالمناكب للضحك على الدقون وغواية التنكيت والتبكيت والنّميمة.

لا حاجة له إلى العقل أو الوجدان. هناك من يغنيه عنهما، لأن تسييد النّاس والأشياء ثقافة لازمة له كالتنفّس.....! هذه الانتخابات سماؤه، والتي يحكمها سيّده بمقدار. هي الكيمياء التي تذوّب كل الاختيارات، تدكّ الطرق الممكنة ولا تبقي إلّا على طريق واحد.

تساءل خالد: أية امرأة تريدين أن تكوني أيّها الشعب؟ أنت الأنثى التي باعت جسدها إلى الحجر! أيّ رجل تريد أن تكونه أيّها الشعب، وأنت جسد متحلل على أعتاب الهوى العابر ؟

لم تعد السيّاسة خنجراً مصوّباً في القلب، في مواسم الانتشاء بالعطور والبخور والألوان. هي اليوم كمين محكوم للإيقاع بالحقيقة وما تبقى من التاريخ، يقوده هذا الشعب الذي يتشطّح في حضن امرأة مدوّد!

قرّر خالد هذا الصباح أن يبحث عن سبب للقاء راحيل ليحيا زمناً ضاعت عقاربه. كأنّه يسمع اللحظة دقات قلبها المكنون، وكأن هذا القلب ساعة سحرية تتدلّى من أحداق تُبكي المدن العتيقة والدراويش، تفجّر حنين السّواقي الجافّة والجارية!

بات يعتقد أن واد ملوية وأم الربيع وأبي رقراق يحنّون إلى

دمعها، وقد جفّت مياههم التي كانت تنساب هادرة يوما ما. يتبرّؤون من مائها الراكد من ظلمات أغوارها الميّتة، من العشب المكابر الذي يظلّل امتداده ونتانته، هو الآن يدفع بالرغبة بعيداً في وصالها. يريد فقط أن يخبرها بأنه بات يعرف حقيقة أصولها كاملة.

يريد أن يشمّ رائحتها، وهو يخبرها بأن نوعاً من الحقيقة ظهر أخيراً، بأنه قد تعرف على أصولها كاملة، على أبيها وأمّها ومسار حياتها الذي غمض فيه تاريخ مهم من حياتها.

يحلم بأن يكون أول من يزفّ إليها خبر أصولها الثابتة، وهو يكشف أمامها بأنها من نبتة طيّبة تضرب بجذورها عميقاً في تربة الجمال والفلسفة، وأنها خليّة من تلك النبتة.

كم يودّ أن يمسك بيدها الحافلة بالسرّ، يطويان معاً دفتر التعقّب المؤلم عن المجهول الذي طال أمده، لا يتمنّى أكثر من أن يسترجع نظرة احترام واحدة من عينيها الكليلتين.

كان يسمعها تقول له في يوم قائظ من أيّام الصيف:

عليّ أن أخزّن صورة أو بعضاً من هذا الضوء الحارّ والكاشف، حتّى أُلبسه للغيم الّذي سيأتي معتماً، مدجّجاً بدخان كثيف.

كانت تستمر في حديثها شارحة، ليس لأن بياض الدخان يحجب وهج النّهار، وسطوع شمسه الطبيعي، ولكن لأن هذا البياض لن يكون بريئاً، سيستمر التعبير عن الحياة، وهي تحضن بذراعيها صفاء احتضانها الجمال والهواء.

كانت تخشى كثيراً أن تلبس هذه الحالة الإنسان والعالم،

يسكنان الغيم والبياض الماكر، يعني أنّنا قد أصبحنا أشياء لها شكل وليس لها معنى.

كان يسمعها تغنّي:

أجمل تمثال للضوء هو الذي تنحته الرّوح

أجمل صورة للرّوح هي التي يشكّلها الإيمان

وحده الإيمان لا ينحت ولا يشكّل!

كلّما كان يصغي إليها، ازداد شكّاً في أن يتحول الإيمان يوماً شريعة موحّدة لأبناء هذه البلاد الذين يجزّون لحمة المستقبل المضيء حتّى العظم، وبصمت غريب.

ليس لأنهم تستهويهم اللّذائذ بعماء، ولكن لأنهم اختاروا الانتساب إلى قطيع دون هويّة...

لا يهتمّ إلى ما يحيط به أبداً، يحفل بهيكل التّمجيد لسيّد نبتت في رأسه قرون الماعز.

فظن القطيع أن هذا السيّد وريث الربّ وواهب الصّور والحياة. لذلك، فهو دائم الجذبة في حضرة الولاء.

حقّاً وحده الإيمان لا ينبعث ولا يشكّل، لأنّه القوّة الغابرة التي تسمو بالروح والضوء. له الكينونة الصّافية؛ أيّ الوجود بالطبيعة، وله الحياة بكرامة.

ليس الوجود الأزلي لهذه الكينونة هو الحرّية وتكريم الحياة بترسيخ الإنسانية وفق طبيعتها!

أليس الإيمان بهذه الكينونة هو منتهى العقل الواعي الذي تفيض عنه خلايا التّفكير الحامية للوجود من الاندثار ؟

ردّد خالد بصوت مبحوح: صدقت راحيل، الإيمان هو الحريّة. هو منتهى السّعادة، لأنّه تحرّر من الوجود، من الوقوع في مهاوي القطعان ورغاء أصوات الموتى.

جيش غريب من النّدم يزحف داخله. انفعال قويّ وصامت يهيّج دمه الذي شاخ. هو يتألم أكثر من السابق؛ لأن حسرته على طلاقه منها، فقدان للمعنى ولشرعية الانتماء إلى الأفكار التي آمن بها العمر كلّه.

بدأ يصرخ وحده منهاراً، ينتقل بهستيرية في كل مواقع بيته، يعبث بالأشياء وبالكتب والأوراق، بالصّور وبكلّ التذكارات، إلى أن وقع جاثياً فوق ركبتيه لاهثاً واهناً، يبكي بمرارة الثّكالى لاعناً الزّمن والقدر.

هو الآن يتخيّل نفسه يسير حافياً فوق زبد الموج الهادئ يصغي إلى أغنية لها، تنبعث من عمق بحر له أفق يعانق السّماء. يتخيّل وجهها تتعرّش عليه الأنوار. تبدو كالسّماء الفريدة تمدّ لها جدائلها لترتقي إلى حضرة الإيمان الذي هدّها الزّمن القاسي والعمر المبعثر.

أراد أن ينهض، فلم يجد ما يتمسّك به إلا قوة إصراره على الوقوف. وفيما هو يقف سمع طرقاً على الباب الخارجي للبيت. فتح الباب ليجد جيهان تطرق ألم اللّحظة والحسرة الموجعة.

بادر إلى ضمّها، وهو يضع أنفه وشفتيه على عنقها، وكأنه

يستنشق رائحة خلاص ويرتشف جرعة طمأنينة، ارتعدت أمام حالته المضطربة، وقد راعها منظره لمّا انتبهت إلى الصّفرة تعلو وجهه وإلى خفقان قلبه ورعيش يديه.

اقتادته إلى الصالون وقد ساعدته على الجلوس فوق أريكة وثيرة. سألته متلهّفة عن سبب هذا التدهور المفاجئ الذي ألمّ به، وفيما هي تحدّثه، طلب إليها أن تحضر له كوب ماء ونصف تفّاحة لتعديل مستوى السكّر في دمه، لأنّه بدا يشعر بدوران خفيف يغزو رأسه، وبتعب هادئ يجثم على مفاصله.

بعد أن استرجع أنفاسه وتغلّب على الوهن، أخبرها بأن صور راحيل قد طرقت ذاكرته ككرة نار حارقة اشتعلت في كيانه، وكادت أن تفجّره من الداخل. ليس لأن الحنين إليها بدأ يجهز على قلبه وقد أمضه إمضاضاً، ولكن لأنها أثارت في لا وعيه سؤال الإيمان الذي سها عنه، تردّد غناؤها في جوارحه كالموج العاتي، وكنداء السّحرة، وهي تغنّي: وحده الإيمان لا ينحت ولا يشكّل..!

أخبر جيهان بأن راحيل قفص لراحته، لجراحه الأليمة الغائرة في اللّاوعي. هي عبارة عن سهم قوّسه الماضي ورأسه هذا الماضي العنيد. سألها عما يفعله ليتحرّر من هذا القفص اللّعنة.

أضناه الاستسلام، تقرّحت نفسه، وهو يدحرج عشقه كالصّرخة التي ارتدت عليه في آخر العمر، وهاهي ذي الآن تكتم أنفاسه.

من أين لراحيل هذا الزّلزال الذي تملّكه، هذا الإعصار الذي لا يهدأ أبداً؟

اعترف بأنه يتخيّل المدن تأخذ شكلها، تلبس جلدها وكل الأرض

رائحتها، كل السماء هواؤها وزرقتها، كل الجمال والمحبّة معناها... كل ما هو سام كنهها وسرّها..........

حاول أن ينهض وهو يتحدّث بصوت مخنوق، وكأنّه يريد التحرّر من ضغط يغلّه. مدّ يده مضطربة لجيهان وقد أشرق الدمع في عينيه الكابيتين قائلاً:

حاولت أن أنسى خطواتي، أن أنسى الرّصيف والشّارع.

أن أنسى القبلة في فمي والرّيق في الشفتين والماء في كفّي.

أن أغرز في صدري النّسيان وأطرد رائحة الكحل والسّواك.

لكن غبار الطريق أو ضياع الشّارع، قادني إلى التذكّر حافياً في رحاب أنوارها البهيّة.

رشقت الغياب خلف ظهوري مُرّاً، أليماً، قاسياً....

سارعت جيهان إلى ضمّه بقوة، وقد حزنت كثيراً، وهي تتحسّس أوضاع قلبه ترسو على ملامح وجهه المنهار. لم تشعر بالغيرة أبداً، وهي تدرك حجم الشغف والعشق الذي يحمله خالد لراحيل.

لا يهمها أن يقع عليها دمعه الولهان كشظايا لهيب حارق، أو دقّات قلبه المدويّة التي تسبح براحيل وهي تريد أن تكون عنواناً من عناوين شغفه لفصيلة من النّساء، يعدّد دقات قلوبهنّ ونداءات عشقه التي يزيّنها الغروب.

همّها الأوحد أن تترك لعينيها أن تسبحا في وجهه وعينيه، في شعره الأشيب وأنفه النّافر. أن تنسى العالم وكل الرّجال... كم تكون سعادتها عارمة، وهي تتحسّس في صوته المتهدّج لغة الماضي الحابل

بالرفض والممانعة. أن تستدعي من عمق الماضي، من هذا الصوت، لغته الصاخبة بألفاظها المتمرّدة وإشارتها الجموحة....

إذن هي لا تريد أن تكون رفقة خالد ودليله في الآن والهنا!

ترى أن لا أحد في العالم له سحنته وضوؤه ونبرة صوته ولغة عينيه؛ أن لا أحد في هذا العالم جعل من عزلته وانكفائه مملكة عدن لا يدخلها إلا الأتقياء والأصفياء الذين بلغوا من الإيمان أعلى الدرجات.

لا تطمح أكثر من أن تتمدّد إلى جانبه تتحسّس جسده شبراً شبراً، نقطة نقطة، أن تذوب في ذرات روحه كالهواء في الملأ، لأنّه النبع الأخير الذي تبقّى من حصيلة تاريخ هذه البلاد. نبع تغطّيه أعشاب حاقدة حتّى لا يظهر مجراه وينساب مجدّداً. ومع ذلك، فهي تراه لا يزال مقاوماً ولو في صمت واحتشام. إنّها ترغب في الارتواء منه، حتّى تسبق الجفاف وموت الأنهار وانتحار السواقي، حتّى لا تموت الذاكرة!

اقتربت منه لتضمّه باشتعال، وهي تقول له:

لا أكاد أرى رجلاً إلا أنت

ولا أفقاً إلا سماءك

أنا مثل غيمة عائمة في زفيرك

لا مرفأ لها غير همسك الباكي

ونبضك الغافي

يا رجلاً ليس في فمه غير الماء!

أحسّ وهي تلمس وجهه بأصابع غضّة ناعمة كأنه يسيل بين أعطافها كقطعة ثلج متجمّدة.

ما أعمق هذا الهدوء وهي تمرّر يدها فوق شعره، يلسع زفيرها وجهه المتدثّر بخلايا الخمود والانطفاء.

طوّقت جسده بكلتا يديها، وهي تغمغم في أذنيه.

ألن تنسى راحيل ولو لدقائق، حين أجيء إليك أيها الدّفق الذي اجتاح الروح والكيان؟

لماذا يطيب لك أن تغرق في التذكّر الذي يقتل ميعة مائك!؟

من أين لك هذا الاستثناء الذي شقّ حدود الأجيال؟ فطفوت فوق موج التاريخ بوجه يشعّ بالطفولة وبالعمر المتجدّد؟ لا الماضي يشدّك إلى أسوار القعود والارتخاء، بل هو أفق هذا الشعب الذي يملؤه صوتك المجلجل المسبّح بكل الأسماء والحروف.

أرخى يده على صدرها، وهو يقول لها متلعثماً، بأن السّماء قد غيّرت هويتها وفقدت الحروف معانيها. وهذا الشعب الذي نمضي وقتاً طويلاً نراقبه ونتعلّم منه هو شعب ليس بالشّعب الذي جايلناه واقتسمنا عرقه. أصبح اليوم شعباً ليس في رأسه إلا مثنى صورته وجمع خطى لأنفاسه التي تترجّل دون ساقين. له صورة شيخ كسيح ذي قامة منكسرة، لا يتعلم إلّا كيمياء الذّات المنفردة فقط.

سألته لماذا ترفض راحيل أن تقابله، أن تردّ على هاتفه، وهو يسأل عن أحوالها لا غير؟ هجرت الأمكنة التي تتوقّع أن تراه فيها، تحاشت حتّى النّاس الذين يذكرونها به أو الذين يشبهونه. لماذا هي

تحتاج دائماً إلى كثير من النسيان؟ تتفنّن في الهروب من الماضي الذي جمعهما يوماً في حلم واحد تحت سقف واحد.... فضّلت أن تعاكس القدر، لذلك اختارت العزلة في الطرف الآخر من العالم، تجالس الرّموز فقط وتحاكي المعاني فقط.

توقّفت جيهان عن الكلام لمّا أحسّت بخالد يتألم، ينتحب دون صوت، وهي تزيح عن نبع مضمراته أعشاب الأيام التي مرّت تسحب ستائر الحواسّ المأسورة التي حجبت المجرى والتدفّق.

هي الآن متأكّدة أن خالداً لا يسير إلا في الطّريق الذي تتردّد فيه خطوات راحيل، يتغيّا ظلّها ويتنسّم هواءها وبقايا شيء من نفسها. هو الآن وسط هذا الطريق يحدّق في المدى شبه ضائع....

هذا الطريق هو ضياعه الحقيقي أو هو سجنه الأبدي.

سألته عن انتخابات الغد، فأدار وجهه قائلاً، إنه لا يهمّه وجودها من عدمها، لأنه لم يسمع أيّاً من النّاس يتحدّث عنها حديث المنشغل بها. هم يتحدّثون عنها، باعتبارها موسماً للمحظورات المحتجبة أو للتهريب المقنّع، وحيثما يذهب بعضهم، يصفها بأنها مفسدة ومجال للحرام، كان البعض يتهيأ ليتكلم، وهو نائم عن بلاد تتدلّى من سقف السهو، بأيّ كلام.......... شغلها حديثه فيما أخذت تتحدّث عن حال راحيل اليوم، وهي تطلع من رمادها أكثر قوة، تحاول أن تفجّر سياج العزلة والصّمت الذي لم تختره، أو لتعزف لهذه البلاد التي لم تعرف بعد كيف تقف وهي نائمة بين أصوات جوقة مغلقة، تطلق في الهواء كيمياء الموت الأعمى.

عزمت راحيل أن تطوق هذه الكيمياء التي سادت في الأجواء، وألا تكون في مقام الصّفر تطلّ من شرفة العزلة تعدّد حكايات الماضي والأحلام التي سقطت والقناديل التي أطفئت والعيون التي فقئت.

قالت إنها غير عاجزة عن تحرير روح مدن بكاملها، أن تطرد خفافيش الرّعب وأصوات الخوف من الأروقة والأقبية، تردّد فيها قصيدها وأغانيها، وتتوهّج عبر الأوتار بالرؤية والرؤيا.

أعلنت في أول خروج لها، بعد غيبتها الطويلة، أنها قررت العودة إلى العزف لتتمّم رسالتها التي توقّفت. هي تنوي إعادة الحرّية إلى المعاني التي طمرها الجنّ الآدمي، اعترفت أمام جمهرة الصحفيين بأنها قد أخطأت لمّا فضّلت أن تبقى شريدة شاردة تتجاذبها أقاصي الوحدة والعزلة، وكم هي نادمة على نفورها المجاديف وهجرها لغواية الإبحار الطويل.

أعلنت بصوت متعب ومتوقّد بالحماسة، بأنه يكفي أن يظلّ التّراجع والصمت من السّمات الجديدة التي وشمت النخبة المتنوّرة، أن يظلّ هذا الشعب يرى البلاد بعيون لا تثق إلا في من أطفأها، أن يستمر الظّلام سيّد المواكب، ينحت مجاديفه المدهشة لكي يبقى الليل وحده هو الفصول والأزمنة.

اندهش خالد من كلام جيهان وهي تصعقه بهذه الأخبار. استفسرها بلهجة صارمة وهو يعيد طرح الأسئلة الدّقيقة نفسها. تملّكه ارتباك ملحوظ حين يحاول إيجاد لغة لكلامه.

أصبح عجزه عن التفكير والتركيز باد على وجهه، لم يصدق ما

أخبرته به جيهان. استطاع أن يتحرّر من عجزه عبر كلمات متقطعة متدافعة في اتجاه اللّبس الذي يحاور الدّهشة.

كيف استطاعت راحيل أن تصنع اليوم بعد كل هذه السنين والغياب، زمناً مختلفاً غير الزّمن الذي تصنعه السياسة والانتخابات، كأنها تحاول أن تقفز من وطن التوهّم إلى الوطن الحقيقي، أو الوطن المفترض.

هل تعاند بعد هذا العمر والانكسار ألّا تسير وراء الوقت والسيّد؟ أن تشكل من العتمة صباحاً لا يشبه أيّ صباح؟ هل خلقت من جديد لتعزف لحناً آخر، لتغني ليس كما غنت أو كما أصبح يغنّي الآخرون؟

هي الآن بالتأكيد ترفض أن تكون نسياً منسياً!

تخيف أعداءها التقليديين والجدد، وهي تجدّد حرّيتها، تصنع منها تاريخاً للاستمرار، تسْحل كائن التوقّف فيه، بالرّغم من عضلاته القويّة التي عطّلت توغلها في أصقاع الوعي والحضور.

كانت دهشة خالد، وجيهان تخبره بأن موعد حفلها الموسيقي غداً، قد أوقفت الزّمن.

طفحت على وجهه علامات تشبه الوجع وهو ينعصر بين أضراس الخبر، لم يزد هذا النبأ في وجعه فقط، بل حمله مباشرة إلى لحظة المراجعة والمحاسبة. في أيّ شيء أضاع كل هذا العمر، وهو يسفّه الواقع ولا يستحضر إلّا الأحداث التي تنضغط تحت خطوات التذكّر والتحسّر، منغمساً في طشت تعداد الوقائع الغالية في حديثه القبيحة منها والجميلة.

خاطب نفسه، لم تستسلم راحيل إلى التقلّب المشين لوجه التاريخ. رفعت بيارق الاستمرار والصّبر تُجرجر جراحها العميقة، وهي تنظر إلى الشّهاب الذي شعّ يوماً فوق أكفّ نساء ورجال رفضوا نزول درج الهاوية....درج الخراف التي تسبق خطوها نحو ذابحها.

أدرك خالد سريعاً بأن كان عليه أن يصنع من سقوطه، من صمته الذي طال، مجدافاً ومحراثاً وقلماً، يقول عبر هذه الأشياء بأنه لا زال حيّاً يرزق، بالرغم من رضوض السّاق وألم الرِّجليْن. يهتف بالطريق الذي يجعل من بلاده الأجمل والأنقى...

اعترف لجيهان بأنه قد أخطأ كثيراً في حقّ راحيل. لبس يوماً غضبه منها لون التسرّع الذي لم يكن له إلّا رائحة الضّياع. هكذا حصد الخسارات العظمى وأصبح أكثر قرباً من الفشل الذي يتسربل سبيلاً أشكال طقوس الموت.

هو واثق بأن عودة راحيل غداً، ستكون الطّقس الفريد للعطش إلى المعاني التي أزف موعد تحرّرها.

معانٍ لها شكل زفرة عالية تنوس ما بين السيّاسة والجمال. عاب على نفسه بأنّه غير جاهز لأن يكون جزء من الفعل، يرفع سكين السياسة عن جزّ الأخلاق والجمال من جذورها. لكن أيّ دور هو قادر على أن يلعبه دون انهزام؟

راحيل وحدها، تستطيع في خضمّ هذا اللّبس والخواء اللذين يقرعان أجراسهما في قلب المدينة وأعطافها، أن تمزّق ستائر التحسّر والمتابعة السّالبة للمتاهات في زقاق الملاحظة والتعليق الباردين.

هي وحدها من لها القوة لامتشاق السّلاح السّحري، تطوف في معارج الوجدان تأمل في أن ترعى الوعي الحبيس ما بين أشلاء التاريخ الذي مضى والتاريخ الذي سيأتي.........

السياسة تلتهم المدن، تزوّر الضوء؛ تجلس القرفصاء على كدس من الألوان. تكتب تاريخها الذي يخون التاريخ. تكره الممكن الذي يلبس الحقيقة، وتمجّد الوهم الذي ينتعش فيه الكلام، هذا الوهم الذي تجرّه فيالق من الجراد تبيض مدناً يحكمها الشرّ ويسوسها السوء.

ليس لأن الأخلاق هجرت مراكبها، أحرقت ألواحها، أو لأن ذلك الدّرويش الذي سكن الحقيقة، قرّر ذات يوم أن يمزّق رسائل الحياء المعلقة فيه. يرمي بها إلى هدير الشهوة الممضوغة.

بل لأن كلّ شريان في السّاسة أصبح يتدفّق بالسرّ، تتداخل فيه الحدود وتختلط الخيريّة بالشريّة، ثم تتّسع فيه سلالة لنرسيس تقترف الثّرثرة ومضاجعة الذات.

لا تريد هذه السلالة أن تُوقّر سطح العشق النّابت في جمال الروح، لأنها مسكونة بفتنة صورتها المغشوشة.

مسك خالد بيد جيهان، وهو يتمتم:

ما أثقل هذه الساعات التي تفصلنا عن موعد الغد... لولاك لكانت كابوساً وجحيماً!

أشعر اللحظة بأنّ الزّمن يتهيأ لسفر مختلف. سترمي راحيل سهمها وتصيب.

ترسم وجه البلاد بألوان الشكّ والدهشة. هي منهكة حقاً؛ ولكن تعبها وشْيٌ عجيب كالمنمنمات الباذخة المركوزة في القامات العالية....... هو متأكد جدّاً، أنها ستغني غداً، لتدين الفراغ والعبث والسّلطة. كبرياء ينحني وجثث تنكسر.

اقتلعت عجزها من أرض النّسيان المخبوء في الأقاصي. اغترفت وعيها النّادر، لتتسلّق جدار التاريخ الذي كان يجب أن يكون.

امض يا جيهان لا تكتفي بالرواية والتذكّر!

ذلك الطريق الوعر يزمجر باسمك، يفتح ذراعيه حتّى يطمئن أن حان الأوان قد حان لكي يتّسع.

لم تستغرب جيهان من كلامه المرمّز، فهمت من خالد كل شيء، وهي تضع يدها الدافئة على عنقه ووجهها ملتصق بوجهه.

همست إليه بأن يقظتها كانت على موعد مع رفيف روحه، وهي تتوغّل في اللامنتهى، خُيّل إليها وهي تلقي برأسها على كتفيه بأن ضوءاً له لون وجهه، ولون سماء يحبل بالثلج والعشب الأخضر الكثيف، يحفر على جلد الآتي خريطة النّصر..........

لفّها خالد بحنان بين ذراعيه مأخوذاً بلغة عينيها ورائحة شعرها... عضّت على شفتها اليسرى، وهي ترتخي بين أعطافه الدافئة. وبينما هي تذوب في مقام الرّعشة الكبرى، شهقت لاهجة بأنها أخيراً تشعر بانحدارها من ريق راحيل ومائها، من جرحها وشغفها، من وعيها الشّقي الخائب والثائر....

همست في أذنه اليسرى بأنه ليس للعشق إلا معنى واحد،

وليس للشغف إلا طريق واحد، ولكن المعاني كما الطّرق كثيرة لا تُحصى!

ليس لهذه الليلة لون، السّماء نفسها حائرة، فقدت هويّتها ونفق دمها الطبيعي في شريانها.... إنّها تدلّ على حالة أشبه بالخال الذي له شكل التمرّد على الطبيعة.

هل لأنّها تتمتع بالاضطراب الذي يجاوز التغيّم؟ بالقلق الذي يجاهر بموت آخر نقطة ضوء في منتصف الطريق؟

الكلّ يحاول أن يسأل، حتّى الذي ليس من عادته السؤال، لأنّه لا أحد يأتيه الجواب، ولا أحد يكفّ عن الغمغمة التي يحذوها الترقّب. لا يأتي السائلون إلا مزيداً من الرّغاء والصّخب الذي لا مصدر له، ومن يشبه الطيش أو الهلوسة.

لم تنته عملية فرز الأصوات هي في بدايتها فقط. كثيرة هي صناديق الاقتراع الخاصة بالبوادي والقرى البعيدة لم تصل، أو سيصل شكلها إلى مراكز الفرز متبخترة لها هيئة نساء شبه عاريات يتحدّثن بالإشارة عن ظلم السّبي بعد اغتصابهن، عن نهارهنّ الذي مرّ وهنّ يشهدن السّفك المجمّل والصامت لدماء القرويين، وقد سلخت جلودهم وهم مصفّدو الأيادي بالخوف، والأرجل بالعجز أو العرج..........

يتحرك رؤوف في كل الاتجاهات، لا يكفّ عن مكالمة أنصاره وبعض رجال السلطة ابتغاء معرفة تطورات فرز الأصوات. هو لا يردّد إلا جملة واحدة: 'المنافسة قوية في هذه الانتخابات'.

هناك شهود قاموا باكراً هذا الصباح. رفضوا التصويت على أيّ

مرشّح، ولكنهم يرغبون في متابعة آخر فصل من حكاية هذه الانتخابات. ليس رؤوف إلا جرثومة خبيثة في السياسة. يتحدّث في النّاس عن القيم والأخلاق علناً، وفي الخفاء يُتاجر في فقر النّاس ويتفنّن في الكذب والنّصب المكسوّ بتواضع المنافقين. يقول شاهد آخر: هل أتوا به وألبسوه بزّة الوسيط ليدق آخر مسمار في نعش السياسة؟ بينما يقول ثالث، إنه بالأحرى الوجه المخيف لكائنات تحيا وراء السّتار، ولا تريد لهذا البلد إلّا أن يكون مرتعاً يستجيب لنهمها الذي لا ينتهي...

فسدت كل المراهم التي استعملتها السّلطة في ملء الجراح. تورّم الجرح وانكسرت آخر الخطوات في الدرب الذي تشرّد فيه الأخيار. هؤلاء الذين فضّلوا أن يهجروا ضجيج الكلام؛ أن يسافروا في غربتهم يكظمون الغضب والألم. لن يزيدهم هؤلاء الذين أخذوا الكلمة بالقوة واعتلوا المنصّات إلا إصراراً على الصمت والبعاد.

ثمة غبن يطوي الوعي المتوقد طيّ منديل متآكل، وتبدو حركات رؤوف هذه الليلة كأنها تواقيع على زمن ينذر بالولايات. يكفي أن تتابع كيف يدير الخيوط مع من صنع له وجهاً وقامة، كيف يزوّر الأجزاء الغالية من هذا البلد، حتّى تدرك بأن الوجع الذي يسكن العظام عنوان بلد لم يعد لنا، لم يكن أكثر من وهم بَرَقَ في الداخل لحظة وخبا فيها بعد عبر خيط دخان يتلاشى في الفضاء. لم تعد تعني هذه البلاد في تصوّر هؤلاء إلّا لذّة وقانوناً للتّطويع أو كسر العظام.

غريب أن يبرز هذا الاهتمام بعازفة لا تمثل أيّ لون شبابي أو شعبي كاسح... كثير من الأسئلة يتناسل حول بروزها المفاجئ في هذه

اللحظات ذاتها. أهو تزامن من قبيل المصادفة؟ أهو اختيار مفكّر فيه؟ أم هو بارقة في التّاريخ حشد فيها الخير سيفه ليضرب بعضاً من أصناف الشرّ الذي تكاثر كالورم الخبيث؟ أيمكن للموسيقى الطّالعة من الإنسان بالجمع أن تضيء المصابيح التي أطفئت في الدواخل؟ أن تعيد للضوء المترهّل في العيون البائسة وهجه وألقه؟

كيف أيّها السيّد المختفي الذي صنع المعاني المجيدة لهذا البلد، تقنع أبناءنا الذين احترفوا طقوس النّرجسية المشينة بأن يدخلوا الخير من باب السياسة النافعة، وهم غير فاترين ولا مبالين.

أن تقنع أبناءنا بألّا يكونوا حطباً للسّياسة التي تقود إلى السرّ؟ لماذا ينثني الجمال في أفق يقيم فيه القبح ولائمه الطويلة والمكرّرة؟ من يثبت بأن هذه البلاد التي أسلمت جذورها لمقصّ القبح ستنقش بهاء وتناسباً وتكاملاً على سطح الوقت الذي حوّلوه فخراً؟ هل أصيبت بالتدرّن لأن رئتيها أصبحتا تتنفسان لغيرها؟ لذلك قرّرت راحيل يوماً السّفر في جراح البعد بين مشرق النسيان ومغربه؟ ماذا نفعل؟ هل نستسلم؟ هل نظل نجرّ من ورائنا الذاكرة والتحسّر ونرمي الحلم نرداً على طاولة الانطفاء والارتكان؟ هل نظل ندحرج الأفق المنتكس في بؤبؤ عيوننا كمثل كرة نار تكاد تحرق الرّؤية والإبصار؟

تكلم أيها السيّد المختفي الذي صنع المعاني المجيدة لهذا البلد؟ ما نفعل وقد أصبح تاريخنا معوّقاً نجلس حوله للتباكي والنوّاح الذي لا يهدأ؟

القاعة ممتلئة عن آخرها هبّت إليها نخب متعدّدة من رجال السياسة والفكر والثقافة والفن... ظهر كثير من الوجوه التي تألقت في

زمن ما، وقد غمرها النسيان لاحقاً. وجوه كثيرة ما اعتقدت بأنها ستلتقي ثانية، وقد باعد بينها الزّمن الطويل. كثير منها بدا عليه التّعب والكبر. تبدّلت ملامحها واشتعلت رؤوسها شيباً. البعض يلتقي بالبعض هنا يتبادلون العناق الطويل الذي غالباً ما يتخلّله بكاء خافت وحنين حارق لزمن الماضي. لقد تشظّى هذا الزّمن وتطاير كالمعاني الهاربة في بهو هذه القاعة الحاضنة، وهي تبدو كرواق يستقطب تُحفاً قديمة تتطلع إلى أن تقرأ جراحها وخيبات ركضها الطويل.

تساؤلات كثيرة تتردّد في جنبات القاعة عن الظهور المفاجئ لراحيل بعد غياب طويل. عجب الحضور من إصرارها على العودة إلى العزف والغناء، والخروج إلى جمهور ليس بذلك الجمهور. عيون تخطفها الدهشة والفضول وكثير من الحيرة والتوجّس، يسري في عروق أصدقائها، وهم يخشون أن تفقد بعزفها الطارئ، وقد هزمها المرض وسكنها الوهن، مجدها العريق وألوانها السّاحرة التي ما فتئت تسكن الروح وتملأ الوجدان. وجوه يتقصّف هدوءها ولونها الطبيعي في حمأة الانتظار. يلج بعضها القاعة مرتجفاً وقد فرّ منها التركيز. شعور يشبه الإجماع بأنها لحظة فريدة توشّي تخاريمها امرأة ليست كأيّة امرأة. امرأة لم تكن تعرف غير الحبّ والغناء، تموّجت كالهواء تملأ ثقوباً تختنق في بلاد تغمغم دون صوت.

اخترق خالد البهو برفقة جيهان مطأطأ الرأس، وهو يتمنّى أن يكون غفلاً غير مرئي. ضجيج كأنه خليط من التأوّهات والأنين والتساؤلات يغزو رأسه. كيمياء غريبة من الأصوات تدبّ في عروقه وكأنها تحفر فيه ما ترسّب من الذكريات القديمة التي ينبغي نسيانها.

أحسّ وسط هذا الرغاء تصاريف زلزال يسيل بالإدانة والاستنكار. تساءل لماذا يأخذه هذا الإحساس، يقصفه هذا الاضطراب، وهو ليس إلا واحد من هذا الجمهور الذي يستمتع بموسيقى هذه الليلة الخاصّة. تفطّن، وهو يتساءل، بأن رجليه لا تقويان كثيراً على الترجّل، لأن القوة الكافية أو الشجاعة اللازمة لكي يرى راحيل مجدداً ماثلة، وقد باعدت بينهما السنوات وفعل الزّمن فيهما فعله. أهي لحظة المواجهة واللّوم بالنظر والإشارة، أهي لحظة العتاب المرّ في آخر العمر؟ أم هو لقاء صلح عن بعد، يعيد اللقاء الأول إلى منابعه الأولى؟

ثمة برد يلفه وحده، يرتجف منه جسده وكأن الجليد يكسوه. رجيف الخوف يقرع في تجاويفه أجراسه. ينثر فيها كلمات الحنين وحبر النّدم والألم. كلّ شريان من شرايينه آهة، ومعارج الانهيار تعتصره، ترغمه على فتح الجرح القديم، وهو يستذكر غناء راحيل الأول، لمّا كانت تنظر في عينيه، وهي تغني دون تردّد:

أنت شاعر في ثنايا الرّوح
تروّض النجم والمحار، ولا تعرف كيف تنام
إلّا في حضن اليمام
يمسح دمع الأفق
بجناحيه الرّفرافين
وهما يرسمان، يكتبان
وصايا الجليد المذاب، والرمل الرقراق
وشغف الشطآن.

خاطبته جيهان وقد أدركت ارتباكه وسط هجمة نظرات الحاضرين الذين يعرفونه، بأن يمضي ولا يتوقّف حتّى وإن سأله سائل، أو أوقفه واحد من الحضور. مسكت بمنكبه واتّجهت ملتصقة به إلى مضيفة أوصلتهما إلى مقعدين في الصف الثاني، كانت جيهان قد حجزتهما بصعوبة.

دخل النّاس القاعة وقد امتلأت عن آخرها وسط ترقّب يلبس كثيراً من الأسئلة وحبّ الفضول.

لا يسأل من يرقبه أو من يراه، هو يسأل متى يفتح الستار؟ كيف تكون الرؤية ويمضي الزّلزال؟ يحملق في الفضاء وقد سوّاه كائناً يحترق. يشعر وكأنه يؤاخي المأساة.

تكلّست كل الأحلام، ولم يعد للحاضر هويّة أو ذاكرة. كل المعاني أصبحت واطئة!

قنديل العمر يكاد ينطفئ والزّمن لم يعد سفراً أو مساراً. هو جثّة متحلّلة على طرق الهاوية.

يحلم حين يموت أن يشيّع وليس في جنازته إلّا راحيل، وعزفاً هادئاً من أناملها يبكي العمر الذي كان فراقاً وألماً عميقاً لم يُبرِئْه الزّمن الطويل.

زفر زفرة ممتدة، وهو يحدّث نفسه.

في داخلي أرخبيل من الحيرة الغامضة؛ شطآن من المآسي القاسية.

ألهذا توقّفت عن الحياة، وسكنني الحزن كالتنفّس كالهواء؟

دخل عبد الله، بدوره، القاعة شبه متكئ على وليد في اتجاه

الصفّ الأول يحمل باقة من الزهور. ولمّا كان يهمّ بالجلوس، انتبهت جيهان إلى أن هذا الرجل من المدعوين الخاصين لراحيل. سألت عنه خالداً وقد أجاب بأنه لا يعرفه، ولكنه يبدو من قسمات وجهه رجلاً حمّالاً للأسرار، يشغله أمر راحيل أيمّا انشغال!

جلس عبد الله متسمراً في مكانه، وهو يقول خفية، بأن هذا الكرسي أشبه بمكان الاحتراق والتشظّي. أرخى رأسه يصغي إلى نفسه، وهو يسمع أصواتاً غريبة كأنّها تراتيل الكنائس أو أصوات الكتاتيب القرآنية. رفع عينيه إلى الستار الأحمر المنسدل وقد بدا له وكأنه لوحة كبيرة ترصد كثيراً من اللّغات الغريبة المتداخلة، يجمعها منطق الغياب والحضور وغموض الآتي المنغلق!

كم مرّة ارتفع هذا الستار وانسدل؟ كم مرّة انكشف على حياة وانسدل على أخرى؟ حجب الكواليس وأشياء لم يتوقّف الإخفاء عن طرحها. لهذا الستار صمت يحبل بالحقيقة. رحم يأوي الأجنّة الميتة. ليس لأنّه يلفظ الحيّة منها أو لا يستوعبها، وإنما لأن هذا الرّحم لم يخصب بعد شيئاً من الحياة له امتداد في الخارج.

يهدر الطّوفان ليسقي بعرق الذين وقفوا وراءه، حلمهم الذي ظلّ صورة وصوتاً وحزناً وألماً، ظل مغلولاً يركن في روح هذا السّتار.

ليس لهذا الستار المنسدل أيّ معنى إلا في عيون من يسكنهم المعنى وحده. ستعزف راحيل، بعد لحظة، تغنّي بصوت شامخ يختصر الزّمن الذي فات والزّمن الذي لم يأت بعده. تمضي إلى شواطئ المعنى حيث تقبع الحقيقة، في خدرها العلويّ، حيث لا يدرك السرّ إلا من يحلم بالضيّاء!.

غني إذاً، ذلك هو السبيل المفرد الذي يهزم القبح والفوات.

ستصغي إليك الصّخور والشّواطئ المتجمّدة، وسأختار وراءك طريقك الأصعب والأمرّ!

ألم يتراءَ لنا العالم معا كمثل فكرة تتضخّم دون إيقاع وانسجام؟

ارتفع الستار وأطفئت القاعة. منوار واحد يسلّط الضوء كصرخة خرساء على بيانو وكرسي فارغ.

يبدو البيانو محاصراً ببقعة ضوء راقصة وسط سواد مسلوب الإرادة.

الخشبة قفر والظلام سيّد المكان....صمت عميق، عميق يأخذ بقوة جمهوراً يشبه علامة استفهام وتعجّب.......

دخلت جوقة القاعة بتؤدة، وهي تأخذ مكانها الخلفيّ من الركح. بهدوء يشبه لحظة التهيّؤ لأمر عجيب، التقط العازفون آلاتهم الموسيقية، وشرعوا في عزف وسط تصفيق مباغت كان له دوي الصاعقة.

أحسّ النّاس بأن هذا العزف التمهيدي عبارة عن لغة باكية تطفح بالألم والفجائع، بالغضب والإدانة.

كانت هناك امرأة بالقرب من جيهان لم تستطع منع دمعها متنهّدة، وهي تغمغم.

كلّنا ألم أو كلّنا نتألّم بصمت!

بعد دقائق قليلة دخلت راحيل الخشبة، وهي ترتدي لباساً أبيض اللّون، كل شيء كانت ترتديه كان أبيض، حتّى قرطيها كانا أبيضين، حتّى قلادتها وسوارها كانا أبيضين وحتى حذاءها كان أبيض

اللّون، إلا شعرها الذي كان أسود، وقد لمعت فيه بعض الخصلات البيضاء، دخلت محاطة بمهابة القديسين، متثاقلة، وقد وقف لها النّاس مصفقين هاتفين باسمها.

شعر خالد وكأنه يذوب كقطعة ثلج لم يتمالك وقد راعه الهزال الذي سكنها والزمن الذي هزمها، انفجر بدموع حرّى، وهو يغطّي وجهه بيده. التفت إليه عبد الله الذي كان يتقدّمه في الصف الأول متخفّياً تحت قبعة سوداء وبدلة رمادية قديمة تنتسب إلى جيل قديم جداً.

وجد رجلاً قد تقدّم به العمر يخفي في شعره الأشيب حكايات وأسراراً، رجلاً يطرد دمعاً وكأنه لهيب السنين المتأجج أبداً. لم يفهم شيئاً، أدار وجهه بتباطؤ دون أن يخفي تجاوبه النازف مع هذا الرّجل الباكي: قال في نفسه:

يُخيّل إليّ أنّ كلّ شيء حول ظهور راحيل يتأوّه ويتألّم حتّى الصّخر يتوجّع!

هل من الممكن أن يسير وراءها النّاس والأفكار؟

أم أنه لن يكون وراءها غير البكاء والغبار والرّيح!

جلست على كرسيّ قلق في كفّ اللحظة وبعد تأمل وجيز، وهي تأخذ أنفاسها، شرعت في العزف، ثم انتقلت إلى الغناء بصوت رخيم متهدّج نائح، اختصر الزمن والمسافات، اهتزّت له أعمدة العالم القاسي، وبدأت أوراق القبح تتساقط تباعاً من شجرة الوقت الذي نبت بين خواطره العبث.

استرسلت في العزف، وبدا العالم يتمايل، ما بين الماضي والحاضر، كمثل مركبة يعرّش عليها الكشف والبوح الممضّ. لم يستطع خالد أن يوقف دمعه المدرار، وراحيل تصنع حكمة المقاومة تنحت الصخر وتحفر أنفاق الاستمرار.

تراءى له أنها ترتفع رويداً رويداً إلى السماء تطأ فضاء لم تسبق إليه خطوات إنسان.

تمنّى لو يعانق هواءها فقط أو بعض بقايا أنفاسها، وهي تعلو عبر مدارج الانقطاع الكلي عن عالم يطارد فيه القبح قبحاً آخر.

أيّ شغف هذا الذي يجتاحه الآن، وأمامه امرأة تطرز بصوتها وأناملها انبعاث ضوء وسط سطوة الغبش وقهر السقوط.

ها هي ذي تفتح ذراعيها الواسعتين وقلبها يشدو لكي تحضن بحنو وعشق ذلك الجسد الذي انطفأ، أو ذلك الحشد الذي تكوّم مخذولاً على ضفاف المتوسط وجنبات الفرات.

هي الآن تغنّي وتعزف، وكأنها تحوّلت إلى ساحرة تبهر النّاس وتشلّ حركاتهم، تفض أختام قساوتهم، وهم يمسحون دموعهم بمناديل النّدم والتحسّر.

شعر خالد أن الكون، الآن، قد تحوّل إلى فضاء عاصف، تتطاير فيه أوراق الجراح وبقايا التذكّر وحروفاً وكلمات مكسورة تتطاحن في الأعلى الشفيف تبحث عن معنى هارب أو ممتنع لكي تنتظم فيه.

لم يعد لديه متّسع من الصّبر ولم يتمالك، غشّته غيبوبة الواجد،

وهو يقف جاهشاً بالبكاء الصّاخب مصفقاً مردّداً: برافو هذا أول القطر يا امرأه تسكن الروح.

غنّي واعزفي فالمرافئ خلف صوتك تصيح!

وقف النّاس وراء خالد كالموج الهادر، وهم يصفّقون بحماسة ودون انقطاع.

انتبهت إلى خالد وقد اخترقتها قشعريرة باردة لم تعبأ، وهي واقفة تحيّي الجمهور، تلوّح بيديها في اتّجاهه. انقشعت في ذاكرتها الصورة نفسها، لمّا استحضرت أول لقاء جمعها به، وهي تغنّي على خشبة المسرح رمقته يومها شابّاً يافعاً باكياً، وها هو اليوم يقف أمامها في موقف مختلف، مثلج الشّعر منكسر القامة، منهاراً. لم تكن تظن أبداً أن يكون خالد قد شاخ بهذه السرعة، فقد بريق عينه وألقه، شعرت بصوته وهو يهتف باسمها كالحراب الحادة تمزّق أمعاءها وقلبها، هو الصوت نفسه الذي كان يرافقها شامخاً مدوياً، وهو الصوت نفسه لرجل بلغ من الكبر عتيّاً يرنّ بالضعف والوهن، يحكي عن قصة عذاب عاشق طوّح به الزمن في عواصف الحزن تطويحاً.

اعتراها شرود عميق سكن عينيها المتسمّرتين في اتجاه خالد الذي لم تعد ترى فيه غير أيامها التي انطفأت بين رجليه.

رفعت يديها إلى السماء تطلب ربّها في صمت، وهي في غاية الألم، قائلة:

يا ربّ أما لهذا الحزن من نهاية؟

انتبه عبد الله إلى هذه اللحظة الإنسانية العجيبة، فهمّ بالجلوس متسائلاً مع نفسه.

أيّ سرّ هذا الذي انقشعت علائمه بين رجل وامرأة، وهما يداعبان ضوءاً ناحلاً لا يدركه إلا العاشقون....

ذرف هذا الرّجل دمعاً في شكل حروف مرصّعة بالوله والشّغف. بلى لهذا الدمع شكل ساقية باكية!

أيّ نزول لراحيل من معارجها الرّوحية، وهي شاردة تنزف بخفاء أمام رجل يحمل الغيم على جبهته، ويطلّ إليها عبر الظّلام.

لما عاد النّاس إلى مقاعدهم بعد أن أطالوا التصفيق، انتبهت راحيل إلى أنها قد بقيت وخالد واقفين وحدهما. همّت بالجلوس وقد تبعها خالد مترنّحاً مقوّس الظّهر.....

جلست وهي تتماسك ذرّات لما راعها منظر خالد الذي تحوّل جملة وتفصيلاً.

من أين للزّمن هذه القسوة، يرغم الضوء على أن تتفكّك حبّاته. يحوّل الماء إلى حصى. يشقّق الفرح شوكاً وجمراً، يحلم بحقول العطش والحرائق....

أحسّت بعياء مباغت يزلزل كيانها، ثم استمرّت تعزف دون أن تغنّي وحنجرتها تسجن جهيشاً ونحيباً لهما صوت الفجائع.

تعزف وكأنها تستدعي أصوات التاريخ التي فقدت نبرتها القديمة بحّة الزمن الذي أصابه الخرس.. تعزف ولحركاتها شكل نحّات يحفر في الهواء أشكال المستحيل....

تلاحقت حركاتها، وتعالى عزفها، وأخال الجمهور أن بحاراً من الشغف والعشق والجمال تخرج كالطوفان من بين أصابعها، تنوء من فوقها مراكب الوجع والجراح الشيباء.

أكمل حكمك أيها القدر، وارسم فجائعك، ولكن تريّث!

اترك بعض الوقت لبحّار فقد يديه في لجّة الموج، حتّى يعرف كيف يرفع قلبه الذي انتزعه من صدره لمّا أنقذ السفينة واستمرّت في الإبحار.

أكمل حكمك أيها القدر، وأطلق رصاصتك الأخيرة على فكرة شريدة، أخيرة... أعياها التسكّع في الأقاصي...

تذكّر أيّها القدر أنّ التّاريخ لن يجيز حكمك إطلاقاً، ولكنّه سيمنحك شهادة عابر داس الضّوء في عرس الفجائع.

وقف الجمهور مرّة أخرى، مصفّقاً بقوة، مذهولاً أمام عزف ساحر هزّ الدّواخل وحرّر اللّاوعي المسكون بالأوجاع والدمع.

تلاحقت حركات راحيل، وانبعثت الموسيقى غامرة كأنها محمولة على القلوب الملائكة تنسكب في الأحشاء ثرة كمثل إكسير الحياة. تسارعت حركاتها أكثر قوة بخفّة عجيبة وكأنها تسابق الوقت، ترقص حتّى الفناء بحذاء من الوجد.

رفعت يدها اليمنى إلى الأعلى ممتدّة وكأنها تتطلع إلى السّماء راغبة في شيء.

ابتسمت ونظرت إلى عبدالله بحزن، بعينين تسيلان باللّوعة والحنين، كأنه ضوء باكٍ يرسو على ضفاف سرّ مغلق.

أرخت يدها ببطء، وهي تتوكّأ على اليسرى ضاغطة على أكثر من مفتاح، كما لو أنها ترمي آخر نَرْد لها. حطّت فجأة رأسها على المفاتيح الوسطى من البيانو، فانبعثت ممدّدة كصرخة هادئة لها معنى النّهاية.

امتدّت النّغمة لحظات، وهي تطنّ طنيناً، دون أن ترفع راحيل رأسها أو تحرّك إحدى يديها. وقتها ترك وليد مقعده مندفعاً نحو الخشبة، وهو يحاول الصّعود من الواجهة الأمامية متعثّراً بيده الوحيدة. لمّا وقف أمامها وحاول رفع رأسها بتؤدة، وجدها قد فارقت الحياة.

صرخ بأعلى صوته وكأنه يدعو قوافل الفاجعة إلى أن ترسم بخطواتها طريقاً إلى الحزن الكبير.

كثُر الهرج والمرج في القاعة، وقد همّ كثير بالمغادرة مذعورين. بقي عبد الله متسمّراً في مكانه لا يقوى على الحراك أو الكلام أو الصراخ.. فيما كان خالد قد جرْجر جرْيه المكلوم في اتجاه راحيل، وهو شبه فاقد للوعي، ارتمى فوقها كمنديل هار جاهشاً بالبكاء منتحباً، وفي نواحه شعلة حارقة حوّلت حركة الأشياء إلى سكون مفجوع، يكتب بحبر سخيّ ليس إلا ماء التاريخ المحتقن.

رفع عبد الله رأسه قليلاً، وقد ظلّ ملتصقاً بكرسيه يقول لنفسه:

اطمئني يا راشيل إلى جفونك، يا صورتها

أنت تعرفين حقيقة الموت التي لا نعرفها

كانت تأتيك الحقيقة ما بين الفينة والأخرى

جنون له شكل الضّوء الغامر الممتدّ

وجناحان لملاك الموت أو لريح الحقّ!

مشى بضع خطوات، وهو يخاطب نفسه من جديد، بأن جنونها أو موتها لم يكن إلّا كرة صغيرة ينفذ منها هباء العالم الحقيقي أو العالم الحيّ الذي لا نراه.

راشيل وراحيل نجمتان نزلتا من كوكب الحقيقة، يبعثران أوراق العالم المظلم، ثم ارتفعتا إلى الأعلى البعيد دون رجعة... أو دون أوبة زائرة.

لكن، كذب علينا الضّوء والطريق، فيما تومئ الحياة التي نعشقها كما لو أنّها سفر عبر أنفاق الوهم.

وقف وهو يتلمّس في الهواء شيئاً يتوكأ عليه، شيئاً يمنعه من السقوط المحقّق. تأمل باستغراق راحيل، وهي جثّة تطفو فوق الصراخ. نكّس رأسه، ثم ترجّل قليلاً وكأنه يخطو ما بين الجرح والجرح، أو ما بين الفجيعة والفجيعة. انتبهت إليه جيهان، فاندفعت نحوه، وهي تقول له مفزوعة:

لقد انكشفت الحقيقة؛ راحيل هي ابنتك التي فقدتها بعد انتحار راشيل!

لم يعبأ عبد الله بكلامها، حثّ الخطى مترنّحاً نحو الخارج وكأنّه يتعكّز على دقائق أخيرة من عمره.

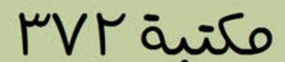
تساءل دامع العينين: ماذا يختبِئ بعد، وراء السّتار؟

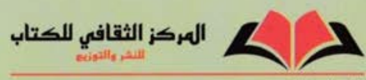
بأيِّ ذَنب رَحلَتْ؟

محمد المعزوز

الكلمات تأكل ذاتها، تستطيع أن تتحوّل، توّاً، من النّقيض إلى النّقيض، هي القدرة على نفي العالم أو تأكيده، وتبخيس الإنسان أو إجلاله... لكن الكلمات الفاقدة لماء الحياة لا تكاد تتوكّأ عليها حتّى تتكسر، لأنّ سيقانها واهية كقصب مريض أجوف. الكلمات لا تسكن العالم، بل هو الذي يسكنها، لأنّها سابقة عنه وهي التي تشكّله وتصوغه. هل هذا يعني أن البحث عن الحقيقة ينبغي أن ينطلق بالضّرورة من الكلمة وليس من العالم؟ أليست الكلمة أصل الكون؟...

حاصل على جائزة المغرب للكتاب (صنف الإبداع) عن رواية "رفيف الفصول" عام 2007





الدار البيضاء / بيروت
الدار البيضاء: 212522810406+ / بيروت: 9611747422+
markazkitab@gmail.com